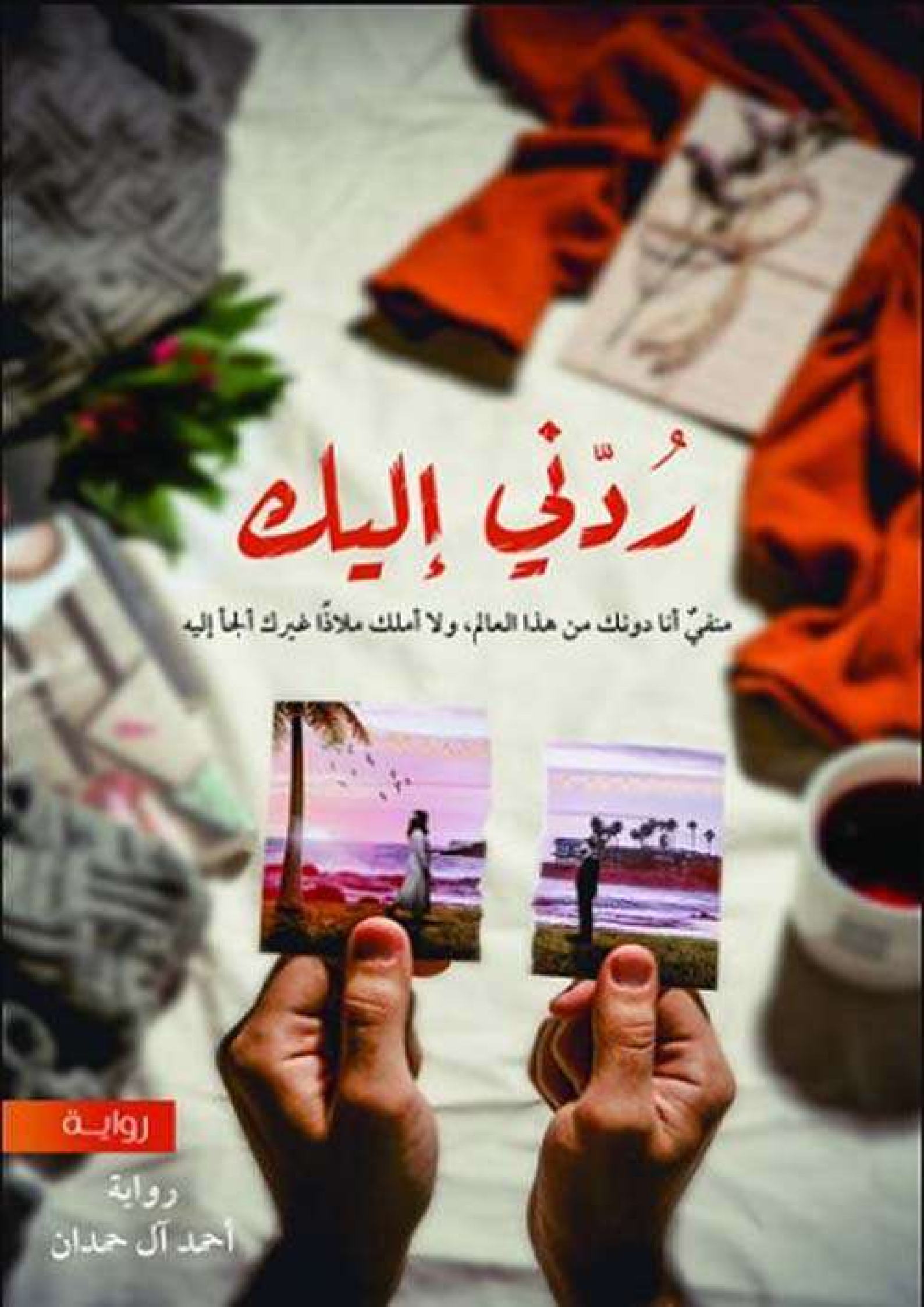
رُدّني إليك
منفيٌّ أنا دونك من هذا العالم، ولا أملك ملاذًا غيرك ألجأ إليه
رواية
رواية
أحمد آل حمدان

ستمضي بالكثير من تحيات الأمل قبل أن تُلفك الحياة دومها الأهم وهو: «أن الحب ومهما بدا رائعًا وجذابًا في البداية إلا أنه شيء لا يمكنك الاتكاء عليه؛ إنه يعرجُ بك نحو السماء السابعة، وعندما يُدرك بأن سقوطك سيكون قاتلًا.. يُفلتك»

لقد سقطتُ من ارتفاع شاهق جدًا.. تهشمت عظامي كُلها، وثُقبت رئتاي حتى أصبحتُ بالكاد أتنفس.. ورغم أنه لم يعد في استطاعتي رؤية الأشياء من حولي إلا أنني استشعرتُ شخصًا ما يقترب مني:

- «إنها فتاة» - قلتُ لنفسي.

فقد كان ذلك واضحًا من خلال الصوت الناعم الخفيف لهزة الخلخال الفجريّ الذي كانت تلفه حول كاحليها..

انحنت عليّ تلك الفتاة أسندت رأسي بكلتا يديها، وجعلت تحدق قليلًا في ملامح وجهي المحطم، كأم تتفقد الجنود المصابين بعد انتهاء المعركة تُفتش بينهم عن ابنها المفقود، قالت:

- وجدتك.. تماسك، سأنقذك!!

سألتها بصعوبة:

- من تكونين؟!

- سأخبرك لاحقًا، المهم لا تمت!!

ولأني كنتُ أرجفُ من شدة الحُمى وقسوة البرد؛ فإنها لم تكترث لبقائها أمامي شبه عارية، ونزعت عن جسدها معطف الفرو لتُدثرني به، ثم همست تعاتبني بلطف:

- الأغبياء وحدهم من يثقون بالحب.

في تلك الليلة المُظلمة اعتنت بي الفتاة جيدًا: خاطت لي جروحي العميقة، لفّت بالجبيرة كُل عظامي المُحطمة، ثم أوقدت نارًا في حزمة من الأحطاب؛ كما لو أنها بتلك النار أرادت أن تمنع ذئاب الحنين من مهاجمتي على حين غفلة..

أخيرًا وعندما تأكدت تلك الفتاة من أني أصبحت بخير، وبأني لم أعد في حاجة للمزيد من الرعاية الطبية، فإنها طبعت قبلة مطولة على خدي وابتعدت:

- لحظة إلى أين؟ - استوقفتُها.

- لا تقلق سأعود إليك، فقد أصبحتُ قدرك..

- لماذا قمتِ بإنقاذي؟

- لأسكنك..

- من أنتِ؟

- شيطانتك..

كانت نبرة صوتها الجادة لا تدع مجالًا للشك بأنها ربما قد تكون فتاة مجنونة أو أنها تمزح..

سألتها بحذر:

- بحق الرب من أنتِ؟!

أجابت كما لو أنها استطاعت قراءة ما يدور في رأسي:

- أنا لست فتاة مجنونة ولا أمزح

- من تكونين إذًا؟!

- أنا شيطانة الكتابة، وقمتُ بإنقاذك لأسكنك..

- ولماذا أنا؟!

ابتسمت ثم قالت وهي تختفي شيئًا فشيئًا:

- لأن شياطين الكتابة لا يسكنون إلا بداخل من هزمهم الحُب.

أعدُ نفسي دائمًا بأن أنساك، لكنّي في كل مرة أعود مرغمًا للكتابة إليك.. هذا القلب خائفٌ جدًا، ولا شيء غير صوتك بإمكانه بعث الطُمأنينة فيه..

الباب ما قبل الأول

«العم ميلاد»

قطاراتنا تتبع نفس المسار

لا وجهة نهائية للحب غير الفراق

1

الثلاثاء،

العاصمة،

17/ ديسمبر/ 2019

كانت ليلة طويلة وماطرة من شتاءات مدينة الرياض، لا صوت في الأرجاء يقطع الصمت غير حفيف بعض السيارات المسرعة.. القمر مكتملٌ في السماء البعيدة لكنّ غيومًا رمادية كثيفة كانت تحيط به مثل أحفاد صغار يجلسون حول جدتهم يستمعون بدهشة وإصغاء لقصصها الخرافية القديمة..

هناك فوق الرصيف الخالي من المارّة كنتُ أسير وحيدًا، أرتدي بنطالًا ثقيلًا ومعطفًا جلديّ، وألفُّ حول عنقي شالًا من الصوف يقيني هجمات البرد المباغتة..

دخلت عمارة سكنية ذات طراز عتيق، صعدتُ سلالمها المهترئة بأقل ضجيج ممكن؛ لكي لا أوقظ بخطواتي سكانها النائمين، توقفت أمام شقة عُلِّقَ على بابها هذه العبارة:

«سوف تفوتك الحياة، إن لم تقرأ»

- العم ميلاد -

كبست زر الجرس لأكثر من مرة ولكن لم يفتح لي أحد.. أخرجتُ هاتفي المحمول وطلبتُ رقم العم ميلاد.. فأجابني سريعًا كما لو أنه كان يتوقع اتصالي.. قلتُ له ممازحًا:

- أُصبتَ بالصمم أيها الرجل العجوز؟.. افتح أنا عند الباب

- لستُ في المنزل - ثم أردف مُداعبًا: لقد تركت لك الباب مفتوحًا ألا تراه؟! أم أنك أُصبتَ بالحول أيها الشاب الطريّ؟!

كانت العمارة السكنية من الداخل سيئة الإنارة؛ ربما لهذا لم ألحظ أنّ باب شقته كان مواربًا بالفعل، دفعته بيدي وما أن فُتح حتى أطلقت مفاصله آنة طويلة متقطعة بدت للحظة وكأنها صوت ضحكة الباب وهو يسخر مني.. قلتُ أبرر للباب خطئي:

- لم أنتبه!!

جاء صوت العم ميلاد في السماعة:

- يجب أن تفتح عينيك جيدًا؛ فالفرص في هذه الحياة لا تشرّع لك أبوابها بل تجعلها لك مواربة.. تمامًا مثل ما كان باب الشقة قبل أن تدفعه بيدك.

- نصيحة جيدة - أجبته وأنا أضع أولى خطواتي داخل شقته الدافئة، وأضفتُ قائلًا: غير أنه كان من الأفضل لو أنك نصحتني بتجفيف ملابسي سريعًا حتى لا يصيبني البرد؛ فأنا مبلل حتى آخري.

- ألا تزال حتى وأنت في هذا العمر تبلل نفسك؟

في تلك اللحظة هبّت نسمة هواء أغلقت الباب، فأطلقت مفاصله مع الارتداد أنّة سريعة بدت لي كما لو أنّ الباب يعاود السخرية مني مجددًا:

- لم أبلل ملابسي لقد بللها المطر!!

سأل العم ميلاد:

- وهل السماء تمطر فعلًا؟!

من خلال سؤاله ذاك عرفت أنه في مكان مغلق، وإلا لكان عرف من تلقاء نفسه أن السماء تمطر «ربما يكون في زيارة أحدهم».. ولكن لحظة هو لا يملك أقاربَ في مدينة الرياض، وليس لديه أصدقاء هنا غيري:

- أين ذهبت في هذا الليل، أأصبحت عاشقًا على نهاية عمرك؟

- لا اطمئن، فأنا لم أُصب بالخرف بعد

- أين ذهبت إذًا، إنها الثانية فجرًا؟!

- سأخبرك عندما أعود.

- ستتأخر؟

- ليس كثيرًا.

قال ذلك ثم فجأة سمعتُ وقع أقدام شخص يقترب منه.. لم أكن واثقًا في البداية ولكن صوت وقع الأقدام ذاك بدا كما لو أنه يشبه طرق كعب حذاء امرأة..

همس العم ميلاد بعجالة:

- آسف، أنا مضطر لإغلاق الخط..

رغم أنه بات على مشارف السبعين من عمره إلا أنّ حماقات المراهقة كانت لا تزال تحتل كل شبر في جسده، مما يدفعه في كثير من الأحيان لإقحام نفسه في مشاكل لا يستطيع الخروج منها بسهولة.. سألته:

- ما بك، صوتك يرجف هل أنت في ورطة؟!

- لا تقلق أنا بخير - ثم أردف هامسًا وبسرعة من يكتب وصيته الأخيرة: أشعل الدفاية في غرفة الأولاد لكي لا يُصاب أحدهم بالبرد، وأخبرهم بأن والدهم يحبهم كثيرًا..

- لحظة لا تغلق الخط، خطوات من هذه التي تقـ..

لكنه أغلق الخط في وجهي دون أن يعطيني إجابة على سؤالي.. تُرى من عساها تكون تلك التي ذهب العم ميلاد خلسة لرؤيتها في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل؟!

***

ذهبتُ للغرفة التي أجلس معه فيها دائمًا عندما آتي لزيارته.. كانت غرفة واسعة يغطي حيطانها الأربعة خزائن خشبية تحمل على رفوفها الكثير جدًّا من الكتب.. يتوسط تلك الغرفة طاولة صغيرة من خشب الأبنوس الفاخر يعتليها مصباح قراءة، وآلة كتابة عتيقة كان العم ميلاد يحب الكتابة عليها.. سحبت ورقة من حافظة أوراقها وقرأت:

«معكِ كانت الفصول في صدري تنحصر في الربيع، وكانت السماء قريبة منّا للحد الذي كان باستطاعتي فيه أن أرفع يدًا إليها، وأقطف لكِ منها قمرًا أو نجمة أو غيمة»

رغم فارق السن الكبير الذي بيننا إلا أنه كان أكثر أصدقائي قربًا، وهو الشخص الوحيد الذي سأظل طوال عمري ممتنًا له من أجل معروف قديم صنعه لي: فهو الذي أخذ على عاتقه مهمة تعليمي الكتابة الأدبية، حتى أصبحتُ كاتبًا..

سحبت ورقة أخرى وقرأت:

«كان يشع حولي ألف ضوء منير، لكني لم أختر إلا عتمتك القاتمة ذلك أن ظلامك بالنسبة لي .. كان يُغني عن ألف شمس ساطعة»

***

أشعلت نظام التدفئة في الغرفة كما أوصاني العم ميلاد قبل أن يُغلق الخط في وجهي.. ثم همستُ للكتب المتكدسة فوق الأرفف:

- أبوكم يخبركم بأنه يحبكم كثيرًا..

كانت العلاقة التي تجمعه بالكتب شديدة الغرابة؛ فقد كان يعاملها كما لو أنها عائلته الوحيدة.. أذكر أني سألته في بدايات لقاءاتي به:

- لماذا تحب الكتب لهذا الحد؟!

كان جوابه غريبًا قال بأنه يحب الكتب لأنها لا تخون، لأنها تتفهم حاجته للعزلة والصمت، لأنها تنصت إليه باهتمام عندما يبدو كلامه للآخرين سخيفًا.. ولأنه محدود القدرات ولا يستطيع رؤية ما وراء ظهره، بينما تمنحه الكتب قدرة الرؤية لما وراء الأشياء، ولأنّ رائحة الشيخوخة حين باتت تفوح منه، أصبح الآخرون يخترعون الذرائع لمغادرته، بينما بقت الكتب وحدها معه، تنظر إليه من فوق الأرفف بحب وولاء.

تأكدت حينها أن هناك من آلم قلب ذلك الرجل المسكين، وبأنّ حبه الشديد للكتب ذاك لم يكن إلا تعويضًا عن شيء يفتقده بشدة، أو بشكل أدق: كانت الكتب بالنسبة إليه ضمادة يُغطي بها جُرحًا عميق.

أذكر أيضًا أنه سألني وقتها:

- وأنت لماذا تحب الكتابة لهذا الحد؟!

- لأنها الشيء الوحيد الذي يساعدني على البقاء حيًّا..

- وأين هي كتاباتك؟!

- لا أملك شيئًا منها.

- لماذا؟!

- لأني أطعمها للنار..

- تحرق أوراقك؟!

- نعم، بعد كل مرة أنتهي فيها من الكتابة..

- ولماذا تحرقها؟!

- لأني أخاف

- من ماذا؟!

- من سخرية الآخرين؛ أنا أحب الكتابة مذ أن كنت صغيرًا، ولكن الجميع كانوا يسخرون مني عندما يقرؤون لي..

- فأصبحتَ تحرق أوراقك حتى لا يسخر منك أحد؟!

- نعم، هذا هو السبب

قال بغضب مكتوم:

- أتعلم؟!.. لو كنتُ قاضيًا لأمرت بشنقك

متعجبًا سألته:

- لماذا؟

- لأنك ترتكب جريمة ضد الأوراق!!

لم أكن حينئذ أعرفه جيدًا وبالتالي لم أستوعب حينها لماذا كان غاضبًا مني لتلك الدرجة، قلت في محاولة لتصليح الأمور معه:

- سأكتب شيئًا من أجلك.. صحيح أني لا أحب أن يطّلع أحدهم على ما أكتب ولكن لا بأس إن كان هذا سيرضيك

- لا تُحرق الأوراق، إن كنتَ فعلًا تريدني أن أرضى.

- لم يسبق لي أن رأيتُ شخصًا في هذا العالم يهتم بالأوراق مثلك

- ربما لأننا أصبحنا نعيش في عالم فاسد، يحتاج سكانه لتأديب.

- ألا ترى بأنك تعطي الأمور أكبر من حجمها؟!

- بل أضعها في حجمها الطبيعي، أنت من يبخس قيمة الأشياء هنا.

- أي أشياء هذه التي أبخس قيمتها؟! - سألت متعجبًا ثم أخرجت له من جيبي ثلاثة دولارات وقلت: بهذه الدولارات الثلاثة فقط أستطيع أن أشتريَ لك دزينة من الأوراق تكفيك دهرًا، إنّ الأوراق ليست ثمينة كما تعتقد.

ببرود شديد أدخل يده في جيب بنطاله وأخرج لي دولارًا واحدًا:

- أترى هذا الدولار الواحد؟!.. أستطيع أن أشتري به عبوة ماء، ثم أُنقلك بها عندما تكاد تموت عطشًا.. أرأيت؟!.. لقد أنقذتُ روحك بعبوة ماء اشتريتها فقط بدولار واحد، هل هذا يعني أن روحك ليست ثمينة؟!

انهزمتُ أمام منطقه، لقد كان المثال بسيطًا من حيث الفكرة لكنه ثقيل في معناه.. أما هو فقد كان يدرك جيدًا مدى العمق الذي وصلت إليه كلماته، لهذا ربما صمتَ لبعض الوقت قبل أن يسأل:

- أخبرني هل تعرف ميثاق الشجرة والكاتب؟!

أجبتُ بشرود: لا، لا أعرف.

- لكنك تعرف بأن الأوراق تُصنع من الأشجار أليس كذلك؟

في الواقع إنها المرة الأولى التي كنت أعرف فيها أنهم يصنعون الأوراق من الأشجار، لكنني تظاهرت بالعكس لأتفادى غضبه:

- نعم، أعرف..

- هل تحلم بأن تصبح كاتبًا في المستقبل؟!

- هذا أكبر أحلامي، ولكن..

- ولكن ماذا؟!

تنهدتُ وأنا أقول:

- ولكنه حُلم يُستحيل تحقيقه.

أذكر أني وقتها كنتُ مشتتًا لا أعرف أين أضع خُطوتي الأولى، متناثر أبحث عن صمغ جيد ألصق بمعيته أحلامي المُبعثرة.. تائه والدرب مستحيل.. أخاف من سخرية الآخرين مما أكتب، وأخاف أن أكتب فلا يقرأ لي أحد..

قال العم ميلاد وكأن الله أطلعه على قلبي في تلك اللحظة:

- سوف أُعلمك الكتابة الأدبية، وستحقق حُلمك.

سألته بشك:

- وما مصلحتك أنت من هذا؟

قال وعيناه تخفيان سرًّا:

- ستعرف يومًا.

كنتُ أعرف جيدًا أننا نعيش في وقت لا أحد يُساعد فيه أحدًا دون مقابل، غير أنّ الشغف بداخلي كان أكبر من التردد أو الشك؛ لذلك قلت لنفسي وقتذاك بأنه طالما سوف يُساعدني في تحقيق حُلمي فلا يهم أي سر كان يُخبئه خلف ظهره:

- موافق، ما هو الدرس الأول؟!

- يجب عليك أولًا أن تتعرف على ميثاق الشجرة والكاتب

- وأنا كلي آذان صاغية..

أما هو فإنه ابتسم لحماسي ذاك، وبدأ يتكلم:

- تقول الأسطورة بأن أحد الكتّاب القدماء ذهب للغابة ذات مرة، لجمع بعض الأشجار التي سيقوم بتحويلها لأوراق للكتابة، ولكن وبينما هو يتجول وحيدًا هناك إذ سمع فجأة صوت شخص يبكي، انتابه فضول شديد حينها؛ فهو يسكن بالقرب من الغابة ويعرف بأن لا أحد في العادة يزورها غيره، فذهب ليتفقد الأمر وحين وصل لمصدر الصوت وجد شيئًا غريبًا للغاية: لقد وجد شجرة تبكي!!

حاولت بقية الأشجار همسًا أو عن طريق لغة الإشارة أن يطلبوا من الشجرة الكفّ عن البكاء؛ لكي لا يكتشف الكاتب سرهم.. لكنّ الشجرة كانت لا تزال صغيرة؛ لذلك فإنها عندما رأتهم يأمرونها بالصمت زادت من حدة بكائها عنادًا..

أما الكاتب فإنه تقدم نحوها مدفوعًا بشغف الفضول يريد أن يعرف السبب الذي من أجله كانت الشجرة الصغيرة تبكي، فسألها:

- لماذا تبكين؟!

بطبيعة الحال فإن الأشجار لا تعرف على وجه اليقين ما الذي يفعله بها الإنسان بعد أن يقتلعها من تربتها، إلا أنها بغريزتها التي توارثتها جيلًا بعد جيل كانت تعتقد أنه يفعل ذلك ليتخذ منها حطبًا يُشعل بها ناره، فأجابت:

- لا أريد أن ينتهي بي المطاف في مدفأتك!!

- لم أكن أريدكِ حطبًا للمدفأة، كنت أريد تحويلكِ لأوراق للكتابة.

- أوراق للكتابة؟؟

- نعم أوراق أكتب عليها قصة يقرؤها الأطفال والكبار..

- وما هي القصة التي ستكتبها؟

- إنها قصة فلسفية، عن طائر يقع في حُب سمكة.

في تلك اللحظة أحسّت الشجرة بأن هناك شعورًا طاغيًا في اللذّة يلامس أبعد نقطة في داخلها، لقد أحسّت بذلك السحر المُبهم الذي تمارسه القصة، لتشدنا أكثر نحو تفاصيلها الرائعة.. تساءلت الشجرة:

- كيف لطائر أن يقع في حُب سمكة؟!

ولأن ذلك الكاتب كان يؤمن بخصوصية القصة، فإنه لم يكن يُحب أن يتحدث عن شيء يكتبه قبل أن يكمله نهائيًا، لذلك قال:

- سوف تعرفين بعد أن أنتهي من كتابتها..

تمنّت الشجرة في أعماقها لو أنها تتحول لأوراق؛ كي يكتب عليها الكاتب قصته الفلسفية تلك، ولكنها في الوقت ذاته شعرت بالرعب من المصير الذي قد يلحق بها بعد أن ينتهي الناس من قراءتها، فسألت بقلق:

- وماذا سيحدث للأوراق بعد أن ينتهي الأطفال والكبار من قراءتها؟

- إذا كانت القصة جيدة فإنهم سيحتفظون بها لإعادة قراءتها من وقت لآخر، أو ليقوموا بإهدائها لشخص يحبونه..

وعندما اطمأنت الشجرة للمصير الذي ستؤول إليه الأوراق بعد الانتهاء من قراءتها، فإنها اتخذت قرارًا غير متوقع جعل بقية الأشجار تشهق لفرط جرأته:

- أريدك أن تحولني لأوراق - ثم أضافت: ولكن بشرط..

تساءل الكاتب: ما هو الشرط؟!

فقالت: «أن تكتب قصة رائعة تستحق أن أموت من أجلها»

***

نظر إليّ العم ميلاد بعد انتهائه من سرد القصة وقال:

- إذا أردت أن تصبحَ كاتبًا في المستقبل، فاكتب شيئًا يستحق أن تموت الأشجار من أجله، هذا هو ميثاق الشجرة والكاتب.

أذكر أنّ تلك القصة جعلت بداخلي شغفًا كبيرًا لأتعلم الكتابة وأكتب شيئًا تستحق أن تموت الأشجار من أجله؛ لذلك ذهبت للعم ميلاد في اليوم التالي لكي أريه شيئًا من كتاباتي، فأخذ الورقة من يدي وقرأ:

«ما أروع وأفتن عينيها الخلابتيـن.. عينيها اللتين كانهما ثقبٌ أسود فضائي سحيق.. يدفع النجوم المضيئة التي في السماء البعيدة دفعًا للدخول إليه»

بعد أن انتهى من القراءة نظر إليّ بصمت ولم يعلّق، فسألته:

- هل كتاباتي سيئة؟!

- في الحقيقة إنها سيئة لدرجة أني شعرت برغبة في التقيؤ وأنا أقرأ.

لقد آلمني بصراحته لكنّه لم يكترث لشعوري، وأخرج من جيب سترته قلمًا سائلًا انتزع غطاءه بفمه وجعل يكتب على ورقتي شيئًا بينما هو يقول:

- إنّ الكتابة الجيدة عبارة عن فكرة وكلمة.. وفكرتك هذه لا بأس بها ولكنّك تعاني من الإسراف في استخدام الكلمات - ثم أضاف متسائلًا: قل لي لماذا لا تلجأ لتبسيط كتاباتك؟!

- لأن تعقيد الأمور هو ما يجعل الناس يعرفون بأنك كاتب.

- خطأ.. تعقيد الأمور هو ما يجعل الناس يعرفون بأنك أحمق، أما الكاتب الرائع فإنه ذاك الذي يجعل أكثر الأشياء تعقيدًا تبدو وكأنها تافهة لفرط بساطتها - ثم أضاف قائلًا وهو لا يزال يُمسك غطاء القلم بفمه ويواصل الكتابة: إنّ الكاتب الذي يخاف أن يكتشف الناس ركاكة محتواه، يلجأ للتعقيد في كتاباته، أتعرف لماذا؟!

- لا.

- كي يُخفي ضعفه بين السطور فلا ينتبه إليه أحد.. بينما الكاتب الرائع يكتب بأكبر بساطة ممكنة هل تعرف لماذا؟!

قلت غير واثق من صحة إجابتي:

- لأنه يثق بنفسه؛ وبالتالي هو لا يملك شيئًا يُريد إخفاءه بين السطور؟

- ها قد بدأت تستوعب درسك الثاني - قال ذلك ثم أعاد ورقتي:

هاك، لقد أجريتُ بعض التعديلات على كتابتك..

أخذت من يده الورقة وقرأت:

«كانت عيناها تُشبهان ثقبًا أسود

يُغري نجوم السماء بالدخول إليه»

لقد كان الكلام مكتوبًا ببساطة شديدة، ورغم هذا إلا أنه بدا أكثر عمقًا وجمالًا من النص القديم، لقد تخلص العم ميلاد من كل كلمة زائدة، وقام بإعادة صياغة التعبير بأكبر قدر ممكن من البساطة، قال:

- اكتب كلامًا يُلامس قلب القارئ؛ فالقارئ يبحث عن نفسه داخل كتاباتك وفي اللحظة التي سيجد نفسه فيها فإنه سيعلن عليك

الحُب.

بدأت أسجل خلفه الملاحظات كي لا أنساها، بينما أكمل هو قائلًا:

- واقرأ بشغف كما لو أنّ القراءة ستدفع عنك موتًا يُطاردك.

وأضاف شيئًا أخيرًا:

- ولا تستهن بالكتابة أبدًا؛ فالكتابة تشبه قتيلة موقوتة، يجب عليك أن تكون في كامل وعيك وأنت تكتب وإلا انفجرت كلمة ما في وجهك وأردتك قتيلًا.

***

بعد قليل وبينما كنت لا أزال أجلس وحدي في الغرفة التي تغطي الخزائن الخشبية حيطانها الأربعة، إذ سمعت صلصلة مفتاح يدخل في الثقب المعدني لقفل باب الشقة؛ فعرفت أنّ العم ميلاد قد عاد.

متوكئًا على عكازه الخشبي وببطء شديد يشي بتقدمه في السن، كان العم ميلاد يسير باتجاه الغرفة التي كنت جالسًا فيها..

دخل الغرفة بهدوء مبالغ فيه؛ لكي لا يوقظ الكتب النائمة على الأرفف الخشبية.. وما أن رآني جالسًا هُناك حتى قال بصوت خافت:

- اعتقدتُ بأنك غادرت..

- ليس قبل أن أعرف أين كنت

قال وهو يتقدم لعُمق الغرفة:

- أنت صديق جيد ولكنك تملك قلب زوجة مزعجة.

ثم سألني وهو ينزع عن جسده المعطف الثقيل، ويُعلقه على المشجب:

- بالمناسبة أتعرف لماذا لم أتزوج بعد زوجتي الأولى؟!

- ربما لأنك أصبحت رجلًا منتهيَ الصلاحية؟!

- لا أيها الأبله ليس لهذا السبب - ثم أردف ساخرًا: حسنًا إنه أحد الأسباب، ولكن هُناك سبب آخر، قل لي ما هو..

- ما هو؟!

- لكي لا أجلب لنفسي محققًا مزعجًا في بيتي، يسألني في كل مرة يراني فيها إلى أين سأذهب، ومن سأقابل، ومتى سأعود.. لذا كف عن التحقيق معي!!

- أخبرني بأنك لن تلجأ لي عندما تقع مصيبة فوق رأسك وأعدك بأن لا أحقق معك!!

- يا أخي مللتُ البقاء في البيت فذهبت للتنزه قليلًا على قدميّ!!
- كيف إذًا لم تنتبه للسماء وهي تُمطر؟!

صمت قليلًا كما لو أنه استوعب الخطأ الذي وقع فيه ثم قال:

- كان يجب عليّ أن أفكر بحبكة مقنعة، قبل أن أكذب عليك.
- لماذا لا تريد أن تقول الحقيقة؟!

جلس فوق كرسيّ مكتبه، ثم قال بصوت مبحوح:

- لأنني في ورطة، ولا أريد أن أُشغل بالك بها..
- منذ متى أصبحتَ لا تُقحمني في مصائبك؟!
- منذ عرفت أنها مُصيبة لا حل لها..
- تكلم قد أستطيع مساعدتك
- لا، لن تستطيع
- أتقاسمها معك إذًا فهكذا يفعل الأصدقاء.

سادت بيننا لحظة صمت قصيرة، قال بعدها معترفًا:

- لقد كنتُ في المشفى..
- وماذا عن صوت وقع الأقدام ذاك؟!
- لقد كانت الطبيبة المناوبة..
- وهل كانت الطبيبة المناوبة تنتعل حذاء كعب؟!
- نعم، وكم كنت أرغب في أن أخلعه من قدميها، وأضربها به على رأسها حتى تشعر بمدى الصداع الذي كان يسببه لي وقع كعب حذائها كلما تحركت خطوتين في العيادة.

- وماذا كنت تفعل في المشفى؟!

- هل تذكر الحالات التي بتُّ أعاني منها منذ فترة؟!

- نعم، أذكرها ما بها؟!

- لقد ذهبتُ للمشفى قبل ثلاثة أسابيع من أجلها.. قمت بعمل بعض الفحوصات الطبية اللازمة، وأخبرتني حينها الطبيبة بأن النتائج قد تستغرق عدة أيام قبل أن تظهر.. ولكنّي نسيت أن أذهب لاحقًا للمراجعة.

- وما الذي ذكرك بها اليوم؟!

- لقد تلقيت البارحة اتصالًا من الطبيبة تطلب مني فيه زيارتها بأقرب فرصة ممكنة.. سألتها إن كان باستطاعتي زيارتها بوقت متأخر، فقالت بأنها ستكون مناوبة لهذه الليلة وبأني أستطيع الذهاب إليها في أي وقت - ثم همس العم ميلاد مداعبًا: ولا أخفيك سرًا بأني ظننت في البداية بأنها قد تكون معجبة بي، وإلا فلماذا تسمح لي بزيارتها في وقت متأخر من الليل؟!

ابتسمتُ لدعابته:

- وهل اتضح لك أنها معجبة بك فعلًا؟!

- لا - قال ساخرًا وأضاف: فما الذي يظنّك قد يدفع طبيبة جميلة مثلها لأن تعجب بشخص سيموت قريبًا مثلي؟!

بدهشة سألته: ماذا تعني بكلامك هذا؟!

صمت قليلًا قبل أن يعترف: أنا مصاب بورم خبيث.

ثم راح يخبرني أنّ الفحوصات النهائية قد كشفت بأن لديه كتلة كبيرة في النص الأيسر من دماغه، وقد تبين لهم بعد التحاليل الدقيقة أنها ورم خبيث؛ وهذا ما يفسر حالات الصداع والإغماءات التي باتت تصيبه من فترة لأخرى:

- في أفضل الأحوال قد أعيش لمدة عامين ونصف العام.

- لا عليك سآخذ قرضًا من البنك، ونذهب لعلاج..

قاطعني قبل أن أكمل:

- لا تتعب نفسك؛ فقد أكدت لي الطبيبة أنهم اكتشفوا ذلك متأخرًا وأنه لا أمل من إجراء عملية جراحية - وأضاف مازحًا كما لو أنه أراد مواساتي: ثم إنني على كل حال لن أسمح لك بأن تأخذ قرضًا من البنك لتساعد به رجلًا منتهي الصلاحية.

احتضنته بكل قوتي وكأني أحاول التشبث به فلا يخطفه الموت أبدًا..

يا الله امنع المصائب عنه؛ فإنه صديقي:

- هل ثمّة ما أستطيع أن أفعله كي أخفف الحزن عنك؟!

- في الحقيقة نعم.

- ما هو؟!.. سأفعل أي شيء من أجلك

صمت قليلًا كما لو أنه يعلم سلفًا بأنّ طلبه سيكون صعب التنفيذ، ثم أخيرًا همس بتردد وهو ينظر مباشرة لعينيّ:

- أريدك أن تكتب جزءًا ثالثًا من مدينة الحب لا يسكنها العقلاء.

شعرت لحظتذاك بالاختناق كما لو أنّ رأسي كان مغطسًا في بركة مياه ضحلة، قال العم ميلاد محاولًا إنقاذ الموقف:

- أعلم بأنك لم تعد تريد المواصلة في كتابة هذه السلسلة، وأنا أحترم رغبتك، وأؤكد لك بأنك تستطيع رفض طلبي هذا إن أردت.. ومن غير أي ضغوطات عليك.

***

فيما مضى كنت أخاف كثيرًا من فكرة أنّي ربما وعن غير قصد أقوم بحبس نفسي داخل هذه السلسلة الأدبية فلا أستطيع الخروج منها أبدًا؛ لهذا فبعد إصدار «الجزء الثاني»[1] قمتُ بعقد صفقة مع العم ميلاد وهي: «التوقف نهائيًا عن كتابة هذه السلسلة»

أذكر أنه سألني وقتذاك عن السبب فأجبته قائلًا:

- أخاف أن يرتبط اسمي بهذه السلسلة، فلا أستطيع كتابة غيرها.

بدا متفهمًا حينها وهو يقول:

- قد تكون محقًّا، ولكن هل لديك فكرة جاهزة لكتابة عمل آخر؟

---

١ الجزء الثاني: «أنت كل أشيائي الجميلة»

أجبته على سؤاله:

- لديّ رواية قمتُ بكتابتها منذ زمن طويل، لكنها بحاجة لبعض التعديلات، سيكون اسمها أبابيل - ثم أضفت قائلًا: لا أدري إن كانت ستكون رواية جيدة أم لا، لكنني سأقوم بتنفيذها على كل حال.

كانت «أبابيل» أول رواية أقوم بكتابتها على الإطلاق وأول عمل أدبي كان من المفترض أن يُنشر لي، ولكنني عندما فقدتُ الفتاة التي بتهي اسمها بتاء مربوطة في تلك الأيام البعيدة اضطررت لكتابة مدينة الحب لا يسكنها العقلاء ونشرها أولًا.

❁❁❁

ما زالت طاولة خشب الأبنوس تفصلني عن العم ميلاد، وما زلت أنظر إليه بتعجب؛ هو الذي يعلم جيدًا وأكثر من أي شخص آخر بأنني لا أريد العودة لكتابة تلك السلسلة، فكيف له أن يطلب مني هذا الطلب الغريب، قلت غاضبًا:

- لقد اتفقنا على أن نتوقف نهائيًا عـ.

قال مقاطعًا:

- صدقني أنت لستَ بحاجة لأن تتحدث معي بهذه الطريقة العصبية، حتى تذكرني بذلك الاتفاق؛ فأنا لا أزال أذكره جيدًا..

- طالما أنكَ لا تزال تذكره جيدًا، فلماذا تطلب مني هذا الطلب؟

- لأنك سألتني إن كان هناك ما يخفف عني الحزن، فأخبرتك.

لقد وضع فوق عاتقي حملًا كبيرًا، إنها أمنيته الأخيرة فهل أدعه يرحل قبل أن أُحققها له؟!.. قلت أفكر بصوت مسموع:

- عندما قمتُ بنشر مدينة الحب لا يسكنها العقلاء في عام 2015 .. كان في قلبي شيء يهمس لي بأنّ هذا الكتاب سوف يتفرع مثل بذرة ويغدو يومًا سلسلة روائية، لكن في الوقت ذاته ما كنت أعرف كيف سيحدث هذا.. ثم ولولا تلك الطفلة المشاغبة التي جاءت تحمل الأوراق في معرض جدة الدولي للكتاب، لما كان هناك اليوم جزء ثانٍ منها..

سأل العم ميلاد: ماذا تريد أن تقول بالضبط؟!

- أريد أن أقول بأنّي كنت أملك مبررًا مقنعًا لكتابة الجزء الثاني، أما الآن فأنا لا أملك مُبررًا أدبيًا واحدًا يدفعني لكتابة جزء ثالث..

- بل لديك.

أرسلت إليه نظرة مستفهمة، فقال:

- السر المكتوب داخل الورقة النقدية.

***

يا إلهي.. إنه يقصد سر الفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة، ذاك السر الذي قامت بكتابته داخل الورقة النقدية من فئة العشرة ريالات والذي لم أتمكن من قراءته حينها..

سألتُ متوجسًا:

- ما الذي ذكرك به الآن؟!

- لم يغب عن بالي يومًا - ثم أضاف بنبرة متوسلة: لا أريد أن أموت قبل أن أعرفه، أرجوك جد طريقة تحثها بها على إخبارك بالسر..

- وماذا تريد مني أن أفعل - قلت مهتاجًا - هل جننت؟!.. أم أن هذه الكتلة الغبية التي في رأسك قد أثرت على وظائف عقلك الدماغية؟! لقد اختفت تلك الفتاة نهائيًا، ولم أعد أعرف لها دربًا، أم أنك تريد مني أن أطرق أبواب بيوت العالم بيتًا بيتًا للبحث عنها وسؤالها عن ذلك السر اللعين؟!

أعرف أني قلت ما لا ينبغي قوله، أعرف أني قسوت عليه بكلماتي في الوقت الذي كان يجدر بي أن أكون معه أكثر لطافة من أي يوم مضى، قلت مستدركًا بندم: آسف، لم أكن أقصد.

متجاهلًا اعتذاري سأل بفضول:

- ألم تعد تحبها؟!

تهربتُ من سؤاله بالصمت.. فألقى بسؤال آخر:

- ألا يتعبك أن تكون غارقًا بكلام لا تستطيع البوح به؟

- ثمّة كلام البوح به يشبه السير فوق حقل ألغام.

- أنت يائس لأنك هُزمت، ونحن الرجال بطبيعة الحال لا نحب الكتابة عن معاركَ عُدنا من ساحاتها مُكللين بعار الهزيمة..

- لستُ حزينًا لأني هُزمت؛ فتلك الفتاة كانت المعركة الوحيدة التي افتخر بأني هُزمت فيها.. لقد أخبرتك بهذا أكثر من مرة.

عاد ليسأل السؤال الذي هربتُ من إجابته قبل قليل:

- ألم تعد تحبها؟!

- لا، لم أعد أحبها..

- ألم تعد تخطر في بالك أبدًا؟!

- أبدًا.. للحد الذي لو رأيتها فيه صدفة بالشارع، فإني سأحتاج لوقت طويل حتى أتذكر من كانت، أو حتى أتذكر اسمها.

جعل يُحدق فيَّ لبعض الوقت كما لو أنه يبحث عن الصدق في عيوني.. وحين طالت مدة تحديقه قلت له مقاطعًا:

- ما بلك تنظر إلي بهذه الطريقة، هل أضعت شيئًا في وجهي؟!

- ليس عليك أن تطرق أبواب بيوت العالم بيتًا بيتًا لمعرفة السر..

- كيف تُريدني أن أصل إليه إذًا؟!

بخبث همس كما لو أنه شيطان يدفعني لارتكاب معصية:

- اكتب لها جزءًا ثالثًا تطلب فيه منها معرفة السر - ثم أضاف:

اكتب لها، فأنت تعلم جيدًا بأنها لن ترد لك طلبك..

لم أكن أعرف كيف أجيبه حينها، لذلك نهضت من مكاني متجهًا لباب البيت مغادرًا، فقال وهو يستعد للحاق بي: مهلًا، سآتي معك..

- لا، أفضل أن أكون وحيدًا.

- هل ستعود؟!

- لا أدري - قلت ذلك ثم غادرت.

في الشوارع المبللة ببقايا المطر جعلت أسير وحدي تائه الخطا كفط مشرّد لا يملك وجهة محددة للذهاب إليها: أنا لا أريد مواصلة الكتابة في هذه السلسلة، ولكن ليس فقط للأسباب التي قُلتها للعم ميلاد، بل لأن الكتابة إليكِ موجعة، تشبه وجع شخص يتألم لأن ثمّة من طعنه بخنجر حاد ثم أخذ يبرمُ نصل ذلك الخنجر داخل جرحه النازف.

لقد حاولتُ مرارًا نسيانكِ بيد أنّ كُل محاولة للنسيان كانت في نهاية المطاف تقودني إليكِ، لذا قررت لاحقًا الانهماك في أعمال كثيرة تفوق قدرتي على الاحتمال؛ فقط لكي لا يصبح لديّ متسع من الفراغ للتفكير بكِ.. لكن وأنا في غمرة انشغالي كان طيفكِ يمد ليّ كوب ماء دافئ، ويمسح بكفّيْه قطرات العرق عن جبيني، ويهمس لي بحب: «أنا لك وأنت لي».. ثم بلطفٍ كان يُعانق روحي المُتعبة؛ من كُل شيء فيَشفيها.

لم أكن قويًا كما تظنين، كنتُ سرًا آخذ كفاف قوتي منكِ، أنا الذي كان كلما شعر بالخوف، حمل قلبه المرتجف بين كفيه وراح يركض به نحوكِ باحثًا عن السلام، عن الأمان والطُمأنينة..

آه لو تعلمين كم يُجيفني هذا البعد، كم تؤلمني هذه المسافة اللعينة بيننا، كم تؤذيني فكرة أننا لم نعد ندري عن تفاصيلنا، نحن اللّذان كنا نعرف أدق التفاصيل عن بعضنا، كيف انتهى بنا المطاف اليوم إلى أن لا يعرف أحدنا عن الآخر أكثر مما يعرفه الغرباء عنا؟!

أعلم بأني لم أكن شخصًا يسهلُ التعامل معه، أعلم بأني كنتُ مُملًا، وموغلًا في الكآبة كجمرة مُنطفئة، لا شيء يروقني، كثير العتاب، متردد متشائم، إلا أنّ حضورك الطاغي كان يُشرّع نوافذ قلبي مانحًا للهواء والمطر وضوء الشمس بالعبور، فأصبح معكِ حافلًا بالحياة مثل كوكب ليس ثمّة فيه غير أطفال يلعبون ويضحكون..

أنتِ لا تعرفين كم نحن الرجال مخلوقات أنانية في عواطفنا، كم نحن بخلاء حين يتعلق الأمر بالتعبير عما يدور بقلوبنا.. ولكن لكل رجل منّا فتاة واحدة فقط حين تأتي تجعلنا مستعدين لتبني كُل كوابيسها وأحزانها وعقدها النفسية.. ونعطيها دون مقابل: أحلامًا، وضحكات وبالًا مطمئنًا.. هذه الفتاة عندما تختفي يصبح الرجل منا واقفًا على شفير هاوية.. لا شيء ينقذه من السقوط غير التفتيش عن فتاة أخرى مشابهة..

وأنا لا أخفي عليكِ بأنّي قد حاولت مرارًا التفتيش عن فتاة تُشبهكِ، في الشوارع والمقاهي وفي وجوه كل العابرات فوق الجسور والأرصفة، لكن نجوم الله في السماء ذات ليلة همسن لي بأنّه ليس ثمّة حورية على سطح هذه الأرض تُشبهكِ.

هل عرفتِ الآن لماذا لا أريد كتابة جزء ثالث؟!.. أنّي أخاف أن أكتب عنكِ فيختلّ توازني وأسقط في الهاوية.. ولكنني في الوقت ذاته لا أستطيع رفض طلب العم ميلاد؛ فأنا لن أسامح نفسي أبدًا إن مات قبل أن أحقق له وصيته الأخيرة.

3

مدير الدار،

الساعة 3:45 ليلًا

في طريق العودة لشقة العم ميلاد.

تناولتُ هاتفي المحمول من جيب المعطف، وتواصلت فورًا مع «مدير الدار».. طال انتظاري وأنا أضع سماعة الهاتف على أذني للحد الذي أيقنتُ معه بأنه لن يُجيب، ولكن قبل أن تنتهي المكالمة رفع مدير الدار الخط وجرت بيننا هذه المحادثة:

– أستاذ باسل مرحبًا..

جاءني صوته خافتًا:

– ألم تنظر للوقت في ساعتك قبل أن تتصل بي؟!

قلت بخجل وأنا أستعد لإنهاء المكالمة:

– معك حق، لم أنتبه لتأخر الوقت، سأتصل بك غدًا

يبدو أنّ الفضول بدأ يركلُ بداخله كجنين يركلُ بطن أمه:

– تكلم قُل ما لديك..

– رواية – قلتُ بتردد – إنها رواية جديدة، أردتُ أن آخذ رأيك فيها قبل الشروع بكتابتها..

- ما هي - سأل باهتمام - هل هي جزء آخر لـ أبابيل، لأنها لو كانت كذلك فأنا أخبرك بأنني سأقوم بنشرها لك حال انتهائك منها..

- إنها جزء آخر ولكن ليست لـ أبابيل، بل لمدينة الحُب لا يسكنها العقلاء

سأل بحيرة:

- هل توصلت للسر المكتوب داخل الورقة النقدية؟!

- لا، ومن أجل ذلك أريد كتابة الجزء الثالث..

- ماذا تقصد؟!

- سأطلب منها في الجزء الثالث أن تخبرني بالسر..

- وهل هناك قصة مثيرة ستقوم بكتابتها؟!

- أظن أن قصتي معها ستكون مادة أدبية جيدة، وأظن أيضًا أن..

قاطعني قائلًا وبطريقة مباشرة: أقصد هل ستكتب قصة مُثيرة من تلك التي لا تصلح إلا للكبار فقط؟!

أجبت عن سؤاله بإجابة تعني - لا ونعم - في الوقت ذاته:

- سأكتب القصة الحقيقية كما حدثت بالضبط.

أعرف أنه لم يكن راضيًا عن مستوى الوضوح في الإجابة، إنه يريد مني أن أكتب بجرأة عالية متجاوزًا كل الخطوط الحمراء فقط ليزيد حصة أرباحه من مبيعات الرواية، لكنني لن أكذب من أجل إرضائه سأكتب القصة كما حدثت بالضبط.

- وكم ستحتاج من الوقت لإنجازها؟

- ربما شهر، أو أقل.

- شهر واحد فقط لكتابة الرواية؟!!

- نعم، فأنا سأكتب من الذاكرة، لن أبتكر قصة خيالية.

بخبث قال:

- عمومًا ستخضع هذه الرواية لاختبار لجنة الموافقة.

أصبت بالدهشة مما سمعته؛ فالمؤلفون الجدد وحدهم فقط من تخضع أعمالهم الأدبية لاختبار لجنة الموافقة، حيث تقوم تلك اللجنة أولًا بالاطلاع على المادة الأدبية، ثم تقوم بإرفاق توصية لإدارة النشر تفيد بقبول أو رفض العمل.. أما المؤلفون الذين قد تم نشر أعمالهم سابقًا فإنهم عادة لا يمرون بهذا الإجراء..

سألته:

- ولماذا ستقوم بإرسالها للجنة الموافقة؟

- اسمع يا أحمد.. هل تعرف لماذا تلعق الحيوانات نفسها؟!

أجبته بسخرية مبطّنة:

- في الحقيقة لا.. ولا أعرف حيوانًا آخر لأسأله، أخبرني أنت.

- لأن للعابها قدرة ذاتية على شفاء جروحها.

- لماذا تخبرني بهذه المعلومة الآن؟!

- لأنك أحيانًا تبدو لي مثل وحش جريح، تكتب فقط من أجل أن تلعق بكلماتك جُرحًا يؤذيك.

- غير صحيح أنا آآآ..

قاطع كلامي قائلاً:

- أنت تعلم بأننا أصدقاء، وبأنك تستطيع أن تطلب مني ما لا يستطيع غيرك أن يطلبه، ومن أجل هذه الصداقة أنا لن أنشر لك عملاً قد يضر بمصلحتك، لهذا سوف تمر روايتك القادمة على لجنة الموافقة.

«أنا وأنت نعرف جيدًا أننا لسنا أصدقاء فعلاقتنا قائمة على المصلحة، أنت تبحث عن منافعك الشخصية، وأنا أبدو لطيفًا معك بسبب عقد الاحتكار اللعين الذي بيننا.. فلا تحاول خداعي!!»

هذا ما كنت أريد أن أقوله.. لكنني لم أشأ أن أختلق معه مشكلة جديدة؛ فأكثر شخص من المفترض على المؤلف أن يخافه هذه الأيام هو مدير الدار التي يتعامل معها، لذلك قلتُ متظاهرًا بأني ابتلعتُ الطعم وأنا أستعد لإغلاق الخط:

- شكرًا لأنك تهتم لخطواتي الأدبية أستاذ باسل.. بعد أن أرسل لك المسوّدة النهائية للرواية تستطيع أن تفعل بها ما تشاء.

4

4:15 فجرًا

شقة العم ميلاد..

مددت يدي كابسًا زر جرس باب العم ميلاد، وما هي إلا لحظات حتى بدأت أسمع وقع خطواتٍ قادمة من عمق الشقة، يتبعها نقر عكاز على الأرض، قال وهو يفتح الباب:

- ظننت بأنكّ لن تعود؟!

- عُدت لأني أحتاج لمساعدتك

- تحتاجها في ماذا؟!

- في كتابة الجزء الثالث.

فاغرًا فاه، سأل مندهشًا: أستفعل هذا من أجلي؟!

- لن أدعك تغادر هذا العالم يا صديقي وفي قلبك لا تزال أمنية.

***

في الغرفة الواسعة التي تغطي الخزائن الخشبية حيطانها الأربعة، جلسنا متقابلين تفصل بيننا طاولة خشب الأبنوس والتي بات يعتليها الكثير من الأوراق البيضاء بالإضافة لمصباح القراءة وآلة الكتابة العتيقة..

قال وهو يمد لي قلمًا:

- اكتب بجنون كما لو أن أحدًا لن يقرأ لك.

قلت معترفًا وأنا آخذ من يده القلم:

- لقد أخبرتك فيما مضى بأنني لا أريد كتابة جزء ثالث لأني أخاف أن يرتبط اسمي بهذه السلسلة، ولكن في الحقيقة ليس هذا هو السبب الوحيد.. إن التعايش مع فكرة غيابها كان أصعب شيء اضطررت لفعله طيلة حياتي، لن أقول بأني نجحت ولكنني مؤخرًا أصبحتُ أشعر ببعض التحسن.. وأخاف أن أعود للكتابة إليها، فأفتح لنفسي بابًا للذكريات لن أستطيع إغلاقه بسهولة..

ثم ولكي أُخفي عنه ضعفي فإني أخفضت رأسي وجعلت أتظاهر بالانشغال بالنظر في الأوراق البيضاء الممددة فوق الطاولة، وأردفت معترفًا كمذنب يعترف لقس كنيسة:

- أنا لا أزال أفكر بها..

- أعلم؛ فأنت تُضيء كبرق كلما فكرتَ بها.

- أنا لا أزال أُحبها..

- أعلم؛ فالقلب لا يكره قلبًا أحبه يومًا.

- أنا لم أنسها للحظة..

- أعلم؛ فالذي بينك وبينها أعمق من أن يُنسى.

- ماذا أفعل؟!

- لا تفعل، الوقت سيفعل، فكل شيء سيمضي.

- أعلم؛ ولكنّي لا أملك صبرًا يكفي لانتظاره حتى يمضي.

مد يدًا مثقلة بالعروق الناتئة رفع بها وجهي، وعندما نظرت إليه كانت ملامح وجهه جادة كما لم أرها يومًا..

قال:

- الله وحده يعلم بأن داخلك يحترق، الله وحده يعلم بأن قلبك معطوب، إنّه مطلعٌ عليك.. مطلعٌ على جروحك الغائرة.. على ارتجافة يديك، على قلقك، ضعفك، بؤسك، اضطرابك، ضياعك، وقلّة حيلتك، وهو لن يتركك.

- ولكنّ قلبي يحترق منذ زمن بعيد، أليس هذا كافيًا؟!

- أنت تحترق لتصل إلى ما أنت عليه الآن، ألم تقل يومًا بأنك تريد أن تصبح كاتبًا؟!.. ألم تقل يومًا بأن هذا هو حلمك الأكبر؟!.. أخبرني هل كنت لتصل إلى هنا لو أنك لم تتألم؟!.. إنّك تحترق لكي تنضج.. وحالما تنضج سيُطفئ الله النار المتقدة في صدرك.

- وإلى أن يُطفئها الله ماذا أفعل؟!

- اكتب.

***

وهكذا قرّبت القلم من الورقة وبدأت بكتابة القصة التي جمعتني بالفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة.. تلك القصة القديمة والتي كان من المفترض أن تظل جاثمة بقاع صدري كسفينة منسية غارقة في أعماق المحيطات البعيدة، وأن لا أقوم بكتابتها أبدًا.

- أن تكون رجلًا لا يعني أن أخاف منك، بل يعني
أن لا أخاف شيئًا في هذا العالم، وأنا معك

قالت الجميلة ذات مرة

مذكرات:

أحمد آل حمدان

والفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة.

1

جدة،

حي الصفا،

صيف عام: 2006م

أشعة الشمس الذهبية تُضيء السماء الزرقاء الصافية، الساعة تشير إلى الثانية عشرة والنصف ظهرًا، والجو حار.. حار جدًّا ومكتوم كما لو أن مدينة جدة كانت جُغرافيًّا تقع داخل فُرن مخبز كبير.

في آخر الشارع الطويل من الحارة ذات الطرقات الضيقة، تظهر السيارة القديمة: «كرسيدا موديل 1995» .. يقودها شاب مراهق لم يتجاوز عمره الثمانية عشر عامًا، لديه شارب نابت متصل بلحية خضراء خفيفة، ويملك وجهًا حاد التقاسيم يجعله يبدو كشخص أكبر من عمره الحقيقي.

ورغم ضخامة جسده التي تؤهله في المستقبل لأن يصبح ملاكم، إلا أنه كان هشًّا من الداخل كقطعة بسكويت غُمست في بيالة شاي؛ فكلمة واحدة قد تُفتّته لأشلاء صغيرة وأخرى قد تُرمم فُتات قلبه..

وكانت هذه الصفات هي أكبر المشاكل التي يُعاني منها صديقنا المُراهق؛ لأن رهافة قلبه المُفرطة تلك هي من كانت تجعل منه مادة يسخر منها ويتنمّر جميع زملائه في المدرسة.

لذلك بدأ صديقنا المُراهق في البحث عن وسيلة ما يستطيع بواسطتها الدفاع عن نفسه وإجبار الآخرين على احترامه، بالطبع هو لن يختار أن يكون طيبًا؛ لأنه يعلم من خلال تجاربه السابقة في الحياة بأن الطيبين لا أحد يحترمهم: «كن سيئًا يحترمك الجميع» .. كان هذا شعاره..

وهكذا بدأ صديقنا المُراهق شيئًا فشيئًا بتقليد أولاد المدرسة سيئي السمعة، أولئك الذين يخافهم الطلاب، أولئك الذين حتى عُرفاء الصف لا يتجرؤون على كتابة أسمائهم في قائمة المشاغبين؛ فأصبح يدخن مع أن رائحة التبغ المحروق كانت تؤذي رئتيه اللطيفتين، وبات يتحيَّن الفرصَ المناسبة للقفز من فوق أسوار المدرسة، ويدس شعره المجعد أسفل طاقية صفراء مُحرّمة يجعلها تميل نحو اليسار قليلًا كرمز لعدم الاكتراث بشيء، ثم ولكي يحافظ على سمعته السيئة أكثر أمام بقية الطلاب فإنه كان يجلس في آخر كرسي بالصف رغم أنّ نظره الضعيف يمنعه من رؤية المكتوب على السبورة.. ولم يكن أبدًا يرفع يده للمشاركة عندما يُلقي المعلم سؤالًا في منتصف الدرس، حتى لو أنه كان يقينًا يعلم الإجابة الصحيحة.. صديقنا المُراهق ذاك: كان أنا.

***

ما زلتُ أذكر جيدًا تفاصيل اليوم الذي بدأت فيه قصتي: كان صباح الأربعاء "اليوم الثاني من عطلة إجازة صيف عام 2006" والرطوبة شديدة الكثافة في الجو حتى إن المرء ربما يُخيل إليه أن الهواء نفسه كان يتصبب عرقًا..

ورغم أن جهاز تكييف السيارة كان معطلًا إلا أنني كنتُ سعيدًا للغاية وأنا عائدٌ للبيت؛ فللتو فقط كنت قد استلمتُ من إدارة المدرسة ملفًا أخضر اللون، بداخله أوراق كثيرة من ضمنها: شهادة تخرجي من الثانوية العامة.

ركنتُ سيارتي أمام بوابة العمارة السكنية رقم 37 حيث كنتُ أقيم مع عائلتي في شقة سكنية مستأجرة بحي الصفا.. ثم جعلت أصعد السلالم درجتين درجتين لأزفّ البشارة لوالدتي التي كانت منذ الصباح تنتظر عودتي بفارغ الصبر.

***

ما أن فتحت أمي الباب حتى عانقتني بقوة كدتُ معها أموت مختنقًا، ثم ورغم أنها لم تكن تجيد القراءة، إلا أنها أمسكت وثيقة التخرج بيديها وأخذت تتأمل فيها بسعادة بالغة..

كدتُ وقتذاك أن أخبرها بأنها كانت تُمسك الشهادة بالمقلوب، لكنني قررت أن لا أفسد جمال اللحظة، وأخذت بصمت أطيل النظر لملامح وجهها المسالم المستدير داخل حجاب الصلاة، وأتأمل خطوط التجاعيد الدقيقة التي كانت تظهر واضحة عند زاوية عينيها وهي تبتسم:

- يا الله كم أنا فخورة بك أيها الرجل الكبير!!

هُناك طفل حزين داخل كُل واحد منّا، هذا الطفل لا شيء في الدنيا بإمكانه أن ينتشله من كآبته ويجعله يبتسم إلا فقط عندما يسمع كلمات المديح من أمه.

- لماذا تقف عند الباب - سألت - ادخل لا بد أنك تتضور جوعًا.

- قبل أن أدخل أخبريني، أعاد أبي من عمله؟!

- نعم لقد عاد مبكرًا اليوم.

- هل نستطيع إخفاء موضوع الشهادة عنه لبعض الوقت؟!

- لا تقل بأنك لم تنجح!!

أجبتها وأنا أستعيد من بين يديها الشهادة وأخبئها داخل الملف الأخضر:

- لا داعي للقلق يا أمي، لقد نجحت.

- لماذا تريد إخفاءها عنه إذًا؟!

- بصراحة؟!.. لأن درجاتي في غاية السوء

- ويلك، قد يرميك والدك بالرصاص إن عرف!!

- ولهذا يجب أن نُخفيها عنه، ريثما نجد طريقة مناسبة لإخباره لاحقًا

- ولكنه سألني عنك عندما عاد من عمله قبل قليل..

- وماذا قلتِ له؟

- قلت له بأنك ذهبت لاستلام شهادتك!!

ثم وفي تلك اللحظة بالضبط ومن غير أن نشعر بخطواته وهو يقترب، ظهر والدي فجأة من خلف أمي دون أن يترك لنا فرصة لإيجاد حل للورطة:

- أين شهادتُك يا ولد؟!

2

أصبح الجو بيننا متوترًا للغاية، ولم تعد والدتي تعرف ماذا تصنع، إنها لا تريد الكذب على زوجها، وفي الوقت ذاته لا تريد أن تؤذي ابنها بقول الحقيقة؛ فهي تعلم جيدًا بأن صفعة واحدة فقط من يد والدي الثقيلة لربما كانت كفيلة بجعلي أفقد الذاكرة للأبد..

كرر سؤاله:

- أين شهادتُك يا ولد؟!

كان يجب عليّ أن أتصرف لم يكن أمامي خيار آخر.. فتحت الملف الأخضر مُكرهًا، أخرجت منه إحدى الأوراق، وقلت:

- هذه شهادتي..

أمسك والدي الشهادة بكلتا يديه الكبيرتين وأخذ يتأمل فيها مقطبًا حاجبيه، وما هي إلا لحظات حتى أصبح وجهه ممتلئًا بأمارات الدهشة:

- لا أصدق ما أراه..

اندفعت أمي بلهفة الخائفة تريد أن تستحلفه بالله أن لا يضربني غير أنه كان قد سبقها بأن رفع يده الكبيرة عاليًا، ثم هبط بها على كتفي مرتين:

- لقد رفعت رأسنا - ثم أضاف وهو ينظر باتجاهها: لقد حقق ابنكِ يا مريم أعلى الدرجات، ونال المرتبة الأولى على جميع أقرانه في المدرسة.. لم أكن أعلم من قبل بأنّ لنا ابنًا نابغة!!

أرسلت والدتي نظرة مستفهمة نحوي، بينما أكمل أبي ارتداء بنطاله:

- وهل تعرف هذا النجار.. ستأجر ليلة الغد لمراسم تكريم وليمة عشاء كبيرة، تدعو إليها كل الأقارب والمعارف وسكان الحارة.

•••

بعد أن انصرف أبي ولحقت أمي من أنه دخل غرفته وأغلق الباب خلفه، فإنها التفت نحوي وعلامة استفهام كبيرة تعلو جبينها:

- هل كذبت علي عندما أخبرتني بأن درجاتك سيئة؟!

- الحقيقة نعم لقد كذبت - ثم أضفت: ولكن ليس عليك.

- ما الذي تقصده - سألت وكأنها بدأت تشك بالأمر - لماذا يظن أبوك أنك نلت المرتبة الأولى في المدرسة؟!

- لقد ذهبتُ لقرطاسية الحي، بعد خروجي من المدرسة وآآ..

- وماذا؟!!

- وقمتُ بتزوير الشهادة!!

•••

والدي رجل طيب القلب لكنه قابل للاشتعال من أقل تصرف قد لا يعجبه، وهذا ما كان يدفعني دائماً لاتخاذ إجراءات احترازية عالية في التعامل معه، فبعد أن استلمت شهادتي من المدرسة عرفت بأنه سيقوم بحبسي طوال فترة الصيف إن رآها، لذلك عرجتُ لقرطاسية الحي، وقمتُ بتزوير الشهادة بعد أن دست مبلغاً بسيطاً في يد العامل وواعدته بأن لا أشيَ به في حال انكشف أمري.

سألت أمي مُعاتبة:

- أتظن أن أمرًا كهذا لن يعرفه أبوك؟!

- المهم أن لا يعرفه قبل انتهاء الصيف.

- هكذا إذًا؟!.. أنت لا تهتم بمستقبلك الذي ضاع، ولا بالجهد الكبير الذي قمنا ببذله من أجلك، كل ما يُهمك هو أن تحظى ببعض المُتعة أثناء الإجازة الصيفية مع أصدقائك.

كنت أريد أن أقول شيئًا، لكنها سبقتني بالقول:

- أصدقاؤك هؤلاء لن ينفعوك بشيء؛ ففي هذا الوقت شهادتك فقط هي الصديق الوحيد الذي سوف ينفعك في مستقبلك..

ثم أمسكت وجهي بكلتا يديها الناعمتين وأضافت معاتبة:

- لقد وصلت لسن الرجال يا أحمد، ويجب عليك أن ترفع رأسك وتنظر للبعيد، وتفكر مليًا بخطواتك القادمة..

- وهذا ما أفعله أنا يا أمي ولكنكِ لا تعرفين..

قاطعتني وهي تلّف ذراعيها حولي بحنان: الأم تعرف كُل شيء، أنت لا تزال فتًى طائشًا يا بني، ونظرك هذا لا يتجاوز في مداه أرنبة أنفك..

- ولكنّي بخير يا أمي، لماذا كل هذا القلق؟!

- أنت بخير؛ لأنّ لديك أمًا وأبًا يقفان خلف ظهرك، ولكنك لن تستمر طويلًا في دائرة الأمان هذه يا بني، غدًا حين تواجه قسوة الحياة بمفردك، ستعرف حينها سبب كل هذا القلق عليك..

وفي تلك اللحظة جاء صوت أبي من بعيد مناديًا على أمي.. فحررت والدتي ذراعيها من حول جسدي وهتفت بخوف:

- ويلي!!.. أتظن أنه اكتشف أمر شهادتك؟!

- لا أظن؛ فلو أنه اكتشف ذلك لكان حذاؤه قد سبق صوته - ثم قلت بهدوء محاولًا ضبط أعصابي: اذهبي لتري ما الذي يريده منكِ واحذري أن يزلّ لسانكِ فيكتشف الأمر.

- وأنت ماذا ستفعل؟!

- سأبقى هنا في انتظار عودتك.

3

بعد ذهابها حاولت البقاء في مكاني محافظًا على مسافة آمنة لأستطيع الهرب بسهولة في حال انكشفت الخطة، غير أنّ شيئًا يشبه الفضول أخبرني بأنّ والدي لم يقم باستدعائها إلا للحديث معها حول موضوع يخصني، فذهبت أسير على أطراف أصابعي بحذر نحو غرفتهما، وألصقت أذني على ظهر الباب المُغلق وهذا ما سمعته يدور في الداخل:

- أريد أن أسمع رأيكِ بسارة ابنة أختك؟!

- أتسألني عن رأيي فيها وأنت الذي قمت بتربيتها بعد وفاة والدها؟! لقد اهتممتَ بها أكثر حتى من اهتمامك بابنك أحمد..

- إنّ الرجل منّا لا يشعر بأنه أب إلا حين يُرزق بفتاة، وأنا أشعر تجاهها كما لو أنّها أكثر من ابنة بالنسبة لي..

- وهي أيضًا بفضلك باتت تشعر وكأن أباها لم يُفارق الحياة.. يكفي أنك استأجرت لها ولوالدتها شقة في العمارة التي نسكن فيها لتُصبحا قريبًا منك وتحت رعايتك، لقد سددت الثقب الذي خلّفه لهما رحيل رب أسرتهما.

- لا شيء يعوض رحيل الأب يا مريم، ولكنّي أحاول بقدر الإمكان تقليص حجم معاناتهما.. عمومًا هذا ما كان سيفعله والد سارة، لو أنني أنا الذي كنت قد انتقلت لرحمة ربي بدلًا عنه، لا تنسي بأنه كان الأخ الذي لم تُنجبه أمي..

- أعرف.. ولكن لماذا تذكر هذا الموضوع الآن؟!.. ما الذي يدور داخل رأسك يا عبد الله؟!

صمت أبي لبرهة ثم سمعته من خلف الباب يقول:

- في الحقيقة بعد أن اطّلعت على شهادة أحمد، ورأيتُ كم هو متفوق في دراسته، وتأكدت من أن مستقبله أصبح واعدًا.. رأيت أني سأشعر بالكثير من الراحة لو أنه تزوج سارة - ثم أضاف آمرًا: مريم أريدكِ أثناء حفل العشاء الذي سنُقيمه ليلة الغد في الاستراحة أن تفاتحي أختكِ بشأن خطبة ابنتها سارة لابننا أحمد..

صحيح أنّي وقتها لم أكن أستطيع رؤية ما يدور داخل الغرفة، لكنّي كنت متأكدًا من أنّ ذلك الخبر نزل كالصاعقة على أمي؛ فقد ذهبت الكلمة أبعد بكثير مما كنّا نتوقع.

ولكن وفي الوقت ذاته الله وحده يعلم كيف قفز قلبي من مكانه وقتها لشدة الفرح حتى ظننت أنه كاد يسقط من صدري؛ فلم يكن في حياتي وقتذاك أمنية أكبر من الاقتران بسارة ابنة خالتي هوازن..

***

ما زلت أذكر جيدًا تفاصيل القدر الذي كتب بداية قصتي معها حيث كانت سارة حينذاك صبية صغيرة لم تتجاوز بعد الخامسة من عمرها، تسكن مع والديها في الهيئة الملكية بمدينة الجُبيل حيث كان والدها يعمل هُناك مهندسًا في إحدى الشركات الصناعية الناشئة.

وذات مساء أحد الأيام رنّ هاتف بيتنا فلهبت والدتي لالتقاط السماعة وما أن وضعتها على أذنها حتى زعقت بكل صوتها.. هبّ والدي إليها مسرعًا ليرى ما بها، فقالت:

- لقد مات زوج أختي هوازن..

- من نقل لكِ هذا الخبر الزائف - قال أبي ثم أردف مبررًا سبب اعتقاده زيف الخبر: لقد هاتفتُ ناصر قبل ساعتين، وطلبتُ منه الذهاب من الجيل للدمام ليقوم بإنجاز بعض الأعمال بالنيابة عني، وقد كان يحادثني وهو يضحك وبدا أنه في أفضل صحة..

اتسعت عينا والدتي الغارقتان بالدموع وهتفت:

- لهذا السبب إذًا

بشك همس أبي:

- لهذا السبب ماذا؟!

- لقد قالت هوازن بأن رجال الإسعاف أخبروها أنّ الوفاة حدثت بسبب حادث وقع لزوجها في الطريق السريع المؤدي للدمام، وقالت بأنها لا تعرف ما الذي جعل زوجها يذهب إلى هناك..

كانت الفاجعة على أبي وقتها مضاعفة، فحزن شديد يعتصر قلبه على وفاة صديقه الأكثر قربًا، وضمير يؤلمه لشعوره بأنه وبطريقة ما كان هو السبب في تلك الوفاة؛ فلو أنه لم يطلب من صديقه الذهاب للدمام لما كان قد حدث ما حدث..

لهذا وكنوع من الوفاء لصديقه من جهة، ولإعطاء إبرة مخدرة لضمير الثائر من جهة أخرى؛ فإنّه قرر لاحقًا أنّه سيكون المسؤول عن إعالة خالتي وابنتها الصغيرة سارة، وطلب منهما أن تنتقلا للعيش معنا في جدة، واستأجر لهما شقة بالدور الأرضي في العمارة التي نسكنها، وخصص لهما مصروفًا شهريًا ورعاية كاملة، ومن هنا بدأت قصتي مع سارة.

في ذلك الوقت كان عمري لا يزال ست سنوات وكنتُ أُعاني من ظُلمة شديدة في روحي بسبب الوحدة التي كنت أشعر بها.. وكانت هي في ذلك التوقيت بمثابة النجمة التي هبطت من السماء لتُضيء روحي المُظلمة..

استمرت علاقتي بها بريئة وكنت كُل يوم أنغمس في تفاصيلها أكثر، وحين تجاوزنا بعد سنوات مرحلة البلوغ بدا أنّ هُناك شيئًا غريبًا آخر مختلف ولذيذ يجذبني إليها، حتى إنّي قلت لها ذات مرة:

- إني أشعر بأنّ هُناك هزّة قوية تحدث في قلبي كُلما سمعت اسمي يخرج من بين شفتيكِ.. أتعلمين؟!..أنتِ تنطقين اسمي بطريقة مغايرة أشعر معها بأنّي الوحيد الذي سُمي في العالم بهذا الاسم..

- لماذا تشعر بهذا النحو؟

- لستُ واثقًا، ولكن ربما هو الحب..

استطاع والدي سريعًا أن يلمح الدخان المتصاعد من مدخنة قلبي المشتعل حُبًا، وأصدر قرارًا يقضي بحجبها عني؛ لأننا كما قال أصبحنا في السن الذي لم يعد لأحد منّا الحق في التكشف على الآخر..

كانت رقابة أولياء أمورنا علينا مشددة، ولم يكن وقتذاك لدى أحدٍ منّا هاتف نقّال يستطيع بواسطته مهاتفة الآخر؛ لذلك كان يجب علينا اختراع طريقة ما نستطيع من خلالها إبقاء جمرة الحُب مشتعلة؛ فأصبحتُ أكتب لها رسائل ورقية وأهرّبُها لها أسفل دواسة عتبة الباب، أو داخل أصص الزرع الصناعية المنتشرة في مدخل العمارة، أو في القدور والأواني النحاسية التي كانت والدتانا باستمرار تتبادلانها..

وكنتُ أحرص على تغيير مواقع التسليم كل أسبوع حتى لا تقع رسائلي في قبضة أحد أولياء أمورنا فيشددوا علينا الحصار.. أما سارة فإنها لم يسبق لها أن كتبت لي رسالة واحدة، وحين سألتها ذات مرة عن السبب قالت بأنها كلما أمسكت القلم أصابتها الحيرة ولم تعرف ماذا تكتب، ولكنها طلبت مني أن أواصل الكتابة إليها قائلة أنّ مرآتها أخبرتها ذات مرة بأنها تُصبح فتاة أجمل كلما قرأت كلامًا لطيفًا كُتب من أجلها..

4

ما زلت أقف خلف الباب المُغلق، أسترق السمع وأبتسم سعيدًا بالاقتراح الذي طرحه أبي.. وفي الحقيقة هو لم يقترح أمر خطبتي لسارة إلا فقط لأنه اطَّلَع على شهادة تخرجي واطمأن على مستقبل الفتاة التي بات يَعُدها مثل ابنة له أو أكثر.. وكانت أمي تعلم تلك الحقيقة جيدًا؛ لهذا فإنها كانت تحاول جاهدة انتشال تلك الفكرة من رأسه بدون أن تتسبب في افتضاح أمري:

– ألا ترى أن الوقت ما زال مبكرًا على أن تخطب لأحمد؟!

– نحن فقط سنطلب له يدها ليس أكثر، وبعد أن يُنهي دراسته الجامعية، ويجد لنفسه وظيفة مرموقة نحدد لهما موعدًا للزواج..

طرأت في رأس أمي فكرة جيدة، فقالت:

– ما رأيك أن نجس نبض أحمد، فلربما كان لديه رأيٌ آخر..

مُتأففًا أجاب أبي:

– لماذا تريدين تضييع الوقت؟! هو لن يرفض فكرة الزواج منها..

قالت بحكمة:

– لم أقل بأنه سيرفض ولكن ربما يرغب أحمد في هذه الفترة أن يركز على أمور دراسته أكثر، ولا يريد لشيء آخر أن يشغل باله.. نحن لن نخسر شيئًا لو أننا استشرناه في هذا الموضوع..

فكر أبي قليلًا بما قالته أمي، ثم قال مقتنعًا:

- قد يكون معكِ حق، اذهبي واسأليه عن رأيه إذًا..

أحست والدتي بأنّ جبالًا من الهموم تزحزحت من فوق صدرها، فبهذه الطريقة بات بإمكانها احتواء الموقف والتنسيق معي لإيجاد مخرج من هذه الورطة.. ولكن سرعان ما عادت جبال الهموم تلك للجثوم مرة أخرى فوق صدرها، وذلك عندما صرختُ أنا لفرط الحماس من خلف الباب وبغباء منقطع النظير قائلًا:

- أنا موافق، أريد أن أتزوج سارة!!

***

مساء اليوم التالي: استأجر والدي استراحة كبيرة لإقامة وليمة العشاء احتفالًا بمناسبة تخرجي من الثانوية العامة.. وبعد صلاة العشاء بنصف ساعة بدأ الجيران والأقارب بالتقاطر علينا واحدًا واحدًا، أما أنا فإني بقيتُ مكاني جالسًا أرد عليهم التباريك والتحايا، وأتحيّن الفرصة المناسبة للذهاب لقسم النساء ومحاولة اختلاس نظرة عابرة لسارة، وجعلها تراني وأنا في كامل أناقتي مرتديًا الثوب والشماغ..

وحين أصبح المجلس ممتلئًا بالمعازيم أدركت أن الفرصة المناسبة قد حانت؛ فمع امتلاء المجلس بالضيوف لن يُلاحظ أحد غيابي، فنهضت من مكاني مُنسحبًا بهدوء ولكن قبل أن أبتعد من هناك، حدث ما لم أكن أتوقع حدوثه أبدًا، فقد وصل للاستراحة ضيف جديد:

لقد جاء مدير المدرسة!!

شعرت بمغص شديد وقتها.. وأظنّ أن جميع من هُناك استطاعوا
تلك اللحظة سماع صوت الألعاب النارية التي تفجرت في سماء بطر
احتفالًا بالعيد القادم..

هبّ والدي نحو مدير المدرسة مرحبًا ومُهللًا بقدومه.. أما أنا فإني
ألغيت فكرة ذهابي لرؤية سارة، وعدت أجلس مكاني لأفكر بخطة أحاول
بها منع حدوث الكارثة..

كان مدير مدرستنا رجلًا ثرثارًا، يحب التحدث عن نفسه كثيرًا ويتمتع
بدمٍ ثقيلٍ ويكره الأشخاص الذين لا يضحكون على نكاته السمجة..

حاولت مرارًا يومذاك التقرّب إليه لأشرح له الموقف وأطلب منه أن
لا يفضح أمري، لكنّه كان طوال الوقت يحدثني عن إنجازاته في الحياة
ولا يترك لي فرصة للكلام.. وحين كفّ أخيرًا عن الحديث بعد ساعة
ونصف الساعة من الثرثرة المتواصلة قلت:

- أستاذ مازن.. بخصوص الشهادة، أنا لا أريدك أن تخبر أبي بأنـ..

وهنا قطع أبي علينا الحديث بأن قال بصوت عالٍ للضيوف:

- تفضلوا إلى العشاء..

وما أن سمع الأستاذ مازن النداء حتى تجاهلني قافزًا من مكانه مسرعًا
نحو صالة الولائم كما لو أنه كان مشاركًا في سباق طويل ويريد أن يصل
لخط النهاية أولًا..

اذكر أنّ العشاء كان مكونًا من خمسة صحون كبيرة مليئة بالأرز واللحوم، وكانت عادات قبيلتنا تقتضي أن يجلس كُبراء العائلة حول الصحن الأكبر والأكثر وفرة بالطعام من بقية الصحون الأخرى تقديرًا لمكانتهم وتقدمهم في العمر..

لم يكن يُهمني في ذلك الوقت غير شيء واحد فقط وهو: البحث عن الصحن الذي كان يجلس إليه الأستاذ مازن؛ لأجلس بجانبه وأكمل حديثي معه..

لم تستغرق عملية البحث تلك طويلًا، فقد وجدته متربعًا بمحاذاة أحد الصحون مستغرقًا في التهام الطعام، وقد كان لحسن الحظ ثمّة مكان فارغ بجانبه، ولكن ما أن هممت بالذهاب إليه حتى امتدت يد كبيرة وأمسكت بي قبل أن أتحرك.. لقد كان أبي وقد جاء ليقول:

- أنت ستجلس إلى الصحن الأكبر..

ولأني كنت أريد التقرّب من الأستاذ مازن بأيّ طريقة فإني قلت لوالدي محاولًا التملص من طلبه ذاك:

- أليس من المعيب أن أجلس إلى ذلك الصحن وهُناك من هم أكبر مني شأنًا وسنًّا يا أبي؟!

ابتسم ثم همس في أذني بفخر قائلًا:

- لا أحد أكبر منك هذه الليلة، أنت أمير المكان وهذا الصحن لا يليق بأن يجلس إليه غيرك أيها العالِم النابغة.

شعرت بحزن كبير وأنا أشاهد الفخر يبرق في عينيه، وشعرت أيضاً بخوف شديد وذلك عندما تخيلت ما قد يحدث لي حين تُكتشف كذبتي، ولهذا كان يجب عليّ أن أجد حلًّا سريعًا فقلت:

- لماذا لا تدعو الأستاذ مازن للجلوس معي إلى هذا الصحن؟! - ثم أضفت لأقنعه: إنّه يستحق يا أبي فلولا توجيهاته في المدرسة لما كان بإمكاني تحقيق كل هذا النجاح والتفوق..

- معك حق، سأذهب وأطلب منه الانتقال للجلوس معك..

وليته لم يفعل، فبينما كان والدي يقوده للجلوس معي إلى الصحن ذاته قال الأستاذ مازن مُدعيًا التواضع بأنه أصغر مقامًا من أن يجلس للأكل على الصحن الكبير مع كُبراء العائلة.. ولكن والدي قال له بصوتٍ عالٍ حينها كما لو أنه أراد أن يتفاخر بي أمام ضيوفه:

- بل مقامك كبير جدًّا يا أستاذ مازن؛ فلولا توجيهاتك الإدارية في المدرسة وحرصك الزائد على أبنائك الطلبة، لما كان ابني أحمد قد حصلَ على الدرجة الكاملة في كل المواد وحقق المرتبة الأولى على جميع صفوف الثالث الثانوي!!

كانت الفاجعة الحقيقية هي عندما رد الأستاذ مازن بتعجب قائلًا:

- لحظة.. ولكن ابنك أحمد لم يحقق المرتبة الأولى!!

شعرت لحظتها بأنّ الدنيا تدور بي، وأنّ رأس المخروف المشويّ على الصحن الأكبر كان يغمز لي بعينه ويبتسم كما لو أنه يقول: لقد انتهى أمرك..

- ماذا تعني بكلامك هذا، لقد اطّلعت بنفسي على شهادته..

- لا بد أنّ هناك لبسًا في الموضوع - ثم أشار المدير نحوي وقال ساخرًا: فابنك هذا كان معرضًا للسقوط في أكثر من مادة، ولكنني طلبت من المعلمين مساعدته على النجاح لأنه خريج..

سدد لي والدي حينذاك نظرة غاضبة لم يسبق لي في حياتي أن رأيت مثلها؛ لقد فهم الأمر وعرف أنّي قمت بتزوير الشهادة التي اطلع عليها..

كنت أعتقد أنه ربما سيقوم بفصل رأسي عن جسدي ووضعه فوق الصحن الأكبر بجوار رأس الخروف المشويّ.. ولكنه لفرط الغضب صمت ولم يفعل شيئًا؛ ذلك أنّ هناك بعض الخيبات لا يُجدي العتاب معها نفعًا..

اصطنع والدي ابتسامة زائفة وطلب من الضيوف إكمال طعامهم، ثم غادر صالة الولائم مكسور الخاطر، فنهضت من مكاني أتبعه للخارج، ولكنّي ما أن اقتربت منه حتى سمعت صوته وهو يُحادث والدتي عبر الهاتف ويطلب منها عدم التقدم لخطبة سارة..

كنت أنتظره وراء الحائط حتى يُغلق الخط وأذهب إليه لأعتذر، ولكنّه ما أن أغلق الخط حتى أجهش بالبكاء.. لم يسبق لي أن رأيت والدي يبكي، لقد كنت أظن بأنّ الآباء لا يبكون ولكنّي اكتشفت يومذاك بأنّهم يبكون فقط حين يتعلق الأمر بخوفهم على مستقبل أبنائهم، لم أكن أعرف كيف أتصرف، ولكن أذكر أنّي استدرت وركضت مبتعدًا..

5

ظلّ والدي لأيام طويلة لا يتحدث معي أو ينظر إليّ، وكان ينصرف مبتعدًا كلما لمحني أتأهب للجلوس في المكان الذي يكون جالسًا فيه.. لقد كان في صمته ذاك الكثير من العتاب، وكانت صدوده تُخلّف داخلي ألمًا لا يُطاق، وكم تمنّيت وقتها لو أنه يضربني أو يحبسني، مقابل عدم تجاهله إياي بتلك الطريقة.. ثم وللتعبير عن الندم فإني حبست نفسي داخل غرفتي، وأصبحت لا أخرج منها إلا عند الضرورة..

***

بعد ثلاثة أشهر من المقاطعة، وبينما كنت نائمًا ذات ظهيرة، إذ طرق أحدهم باب غرفتي، وحين فتحت الباب وجدت أبي واقفًا أمامي بطوله المَهيب ونظراته القاسية وهندامه العسكري الذي عاد به للتو من عمله:

- هل أديت صلاة الظهر مع الجماعة؟

- آآ.. بالطبع أديتها

سأل بطريقة ممازحة: وما الذي قرأه الإمام في الصلاة؟!

في الواقع لم أؤدِّ صلاة الظهر مع الجماعة في ذلك اليوم، ولكنّي كنت أريد إرضاءه بأي طريقة لهذا كذبت، ولهذا أيضًا فإنه حين سألني ما الذي قرأه الإمام في صلاة الظهر أجبته مندفعًا وقد غاب عن بالي أنّ الظهر ليست من الصلوات الجهرية:

- الفاتحة في الركعة الأولى، والإخلاص في الركعة الثانية!!

في تلك اللحظة نظر والدي إليّ نظرة تشي بخيبة أمله؛ هو لم يكن مستاءً لأني كذبت عليه، بل ربما لأنه تأكد حينها أكثر بأنّ له ابنًا نابغًا في الغباء..
وبدلًا من أن يبدأ معي جولة عتاب جديدة، قال شيئًا غريبًا:

- أتسمح لي بأن أكون صديقك يا أحمد؟

عرفت من سؤاله ذاك بأنه سامحني، فعانقته من شدة الفرح وقلت:

- بالتأكيد أسمح لك بأن تكون صديقي يا عبد الله..

استغرب عندما سمعني أناديه باسمه المُجرد؛ فقلت مبررًا:

- لا تستغرب فأنا في العادة أنادي أصدقائي بدون رسميات..

- وهل تدع أصدقاءك في العادة يقفون على عتبة بابك؟

- بالطبع لا، تفضل - قلت وأنا أفسح له مجالًا للدخول.

تقدم والدي في الغرفة الطافحة بالملابس المَرميّة في كل مكان، والأرضية المتلئة بعبوات عصير فارغة وصحون بلاستيكية تحوي بداخلها بقايا أطعمة نصف مأكولة..

جلس على الكنبة وجلست مقابلًا له على طرف السرير، قال:

- بخصوص ما حدث، في ليلة الاستراحة..

قلت مُظهرًا له صدق الندم: أبي أنا آ..

قاطعني قبل أن أُكمل: لا تعتذر.. أنا السبب؛ فلو أنّي منذ البداية كنتُ أبًا متفهمًا.. لما اضطررت للكذب عليّ - ثم باح بحزن: لقد كنتُ طيلة حياتي أحلم أن أراك في أعلى المناصب، ولكن يبدو أنني عن غير قصد أفسدتُ كل شيء بعصبيتي وحرصي الزائد عليك..

قلتُ مواسيًا: لا تقلق يا أبي، منذ الغد سأبدأ البحث عن جا
تقبلني، وسأكمل دراستي وستراني يومًا في أعلى المناصب.

بصراحة رد والدي:

- يا بُني.. أتكذب عليّ أم على نفسك؟! فبدرجاتك هذه التي حصلت عليها، لن يسمح لك أمن الجامعة بالعبور من بوابة الدخول حتى

قلتُ مطأطئًا رأسي: أنا آسف، لقد خذلتك..

أجاب بنبرة ذات مغزى: ربما لم تخذلني بعد..

رفعت رأسي أنظر إليه: ماذا تقصد؟!

- أرأيت القرطاسية التي قُمتَ بتزوير شهادتك فيها؟!

- نعم، ما بها؟!

- لقد تم اكتشاف العامل الذي ساعدك على التزوير، وقام مالك القرطاسية بطرده البارحة.

بتأنيب ضمير قلت: أأنا من كان السبب في طرده؟!

- لا.. لم تكن أنت.. لقد تقدم الكثير من أولياء الأمور بشكوى لمالك القرطاسية يخبرونه فيها بأنّ ذلك العامل كان طوال الوقت يعرض على أبنائهم الطلبة مساعدات من ذلك القبيل.. فقام المالك بطرده.

تنهدتُ بارتياح بعد أن عرفت أنّي لست السبب في قطع رزقه ولكنّي لم أكن أعرف حينها لماذا يفتح والدي سعي ذلك الموضوع:

- لماذا تُحدثني الآن بشأن ذلك العامل يا أبي؟!

- لأنك ستعمل في القرطاسية؛ فمالكها صديقي وقد وافق على توظيفك فيها، وستبدأ العمل لديه منذ يوم الغد..

- لا لا لا.. أنا غير موافق!!.. فأنا لم أدرس الابتدائية والمتوسطة والثانوية، حتى أعمل في نهاية المطاف مديرًا على قرطاسية صغيرة كتلك!!

- ومن قال لك بأنك ستعمل مديرًا عليها؟

- ماذا سأعمل إذًا؟!

- ستعمل بدلًا من العامل الذي طُرد..

- وكيف ترضاها لابنك؟ لن توافقك أمي لو أنك أخبرتها

- لقد أخبرتُها بالفعل، وقالت بأنه لا عيب في العمل

- والناس؟!.. ماذا سيقول الناس عن ابنك؟!

- لا تفكر بكلام الناس؛ فكلامهم لن يَملأ جيبك بالنقود

- ماذا تعني؟!

- أعني أني منذ هذه اللحظة سأقطع عنك المصروف، ولن تجد قرشًا واحدًا في جيبك إن لم تعمل وتحصل على المال بجهدك..

قلت غير مصدق:

- ستقطع عني المصروف؟!

- نعم - أجاب ببرود ثم أكمل: فأنت يجب عليك أن تبدأ في تحمل مسؤوليتك بنفسك..

6

بعد يومين بدأتُ العمل في القرطاسية، ورغم أنها كانت في أغلب الأوقات تكاد تخلو من الزبائن إلا أن مالكها العجوز، لم يكن ليسمح لي أو لغيري من العمّال بأخذ قسط ولو قليل من الراحة.

كان الوقت هُناك يمضي بطيئًا، ولم أكن أفعل شيئًا أكثر من أن أصلب يديّ خلف ظهري وأحدق عبر زجاج النافذة في السيارات العابرة..

وربما الشيء الوحيد الذي كان يُخفف عنّي وطأة الضجر القاتل هناك هو التفكير بالرسالة القادمة التي سأكتبها لسارة حالما ينتهي وقت العمل وأعود للبيت..

استمرّ ذلك الروتين الممل يرافقني لأسابيع طويلة، حتى جاء ذلك اليوم الذي فُتح فيه باب القرطاسية، ودخلت تلك المرأة الغريبة..

***

فبينما كنت أقوم ذات صباح أربعاء بفتح وجرد الكراتين التي كانت قد وصلتنا للتو من تاجر الجملة، إذ فُتح باب القرطاسية ودخلت امرأة كانت ترتدي عباءة مخصّرة، تكشف عن وجهٍ ما زال جميلًا رغم تقدمه في العمر:

– هل يوجد لديكم قسم للكتب الأدبية هُنا؟

كان في القرطاسية قسم صغير يضم عددًا لا بأس به من الكتب، ولكنني لم أكن أعرف ماذا كانت تعني بقولها كتب أدبية فسألتها:

- أتقصدين كتبًا لتأديب الأطفال؟!

- بل لتأديب الروح - قالت ذلك ثم أضافت بلسان فصيح: فالأدب هو كل ما يُعبر به الإنسان عما يدور بداخل قلبه، كالشعر والقصة والرواية والخاطرة.

أجبتها: آه نعم يا أمي لدينا قسم في آخر هذا الممر يضم عددًا من هذه الكتب التي تقولين عنها.

أذكر أنها قالت موبِّخة:

- أمي هذه تقولها للتي حملتك ببطنها تسعة أشهر وأنجبتك..

- لماذا غضبتِ؟!.. كنت فقط أريد أن أُظهر لكِ احترامي!!

- إن أردت أن تُظهر احترامك لامرأة لا تعرف اسمها فقل لها يا سيدة..

- حسنًا.. أنا آسف يا سيدة!!

- أين مالك هذه القرطاسية؟!

كان مالك القرطاسية تلك الأيام يشكوني لوالدي كل يوم تقريبًا بسبب إهمالي وتأخري في الحضور، وسرحاني المبالغ به أثناء أوقات العمل؛ لذلك عندما قامت تلك المرأة بالسؤال عنه ظننت أنها تُريد أن تشكوني إليه؛ فسألتها بقلق: ما الذي تريدينه من مالك القرطاسية؟

أجابت وكأنها استشعرت ما أفكر به:

- لا تقلق لن أشكوك إليه - ثم أضافت: كل ما في الأمر هو أني كاتبة ولديّ رواية أصدرتها مؤخرًا وكنت أريد توزيعها على المتاجر التي بها أقسام مخصصة للأدب؛ لذلك سألتك إن كان لديكم قسم للكتب الأدبية هنا أم لا.

حينذاك كنت شخصًا لا يهتم بالأدب ولم يسبق له في حياته أن أمسك كتابًا لقراءته غير الكتب الدراسية، إلا أني في الوقت ذاته كنت أطمح لتحسين قدراتي الكتابية؛ فقط لكي أستطيع إبهار سارة بكتابة رسائلي القادمة إليها:

- قد يصل مالك القرطاسية في أي وقت، ارتاحي ريثما يصل..

جلست المرأة الكاتبة على أحد الكراسي المخصصة للزبائن، وأخرجت من حقيبة يدها مُفكرة صغيرة جعلت تدون عليها بعض الملاحظات.. أما أنا فإني كنت مترددًا بشأن التحدث إليها، ويبدو أنها لاحظت ترددي ذاك فسألت:

- ألديك ما تريد قوله؟

- لا تشغلي بالك - قلت متفاجئًا بمبادرتها - لا شيء مهم.

- ما اسمك؟

- آآآ.. أحمد - صمتُّ قليلًا ثم سألت: وأنتِ؟

- تريد معرفة اسمي الحقيقي أم الذي أضعه على أغلفة كتبي؟

- اسمكِ الحقيقي.

مدّت يدًا في الهواء وقالت:

- شذى جابر.

بقيت يدُها معلّقة في الهواء لبعض الوقت دون أن أمد يدي لمصافحتها..

لقد كانت تلك أول مرة تمد لي فيها امرأة غريبة يدها لمصافحتي..

قلت مُحرجًا:

- آسف ولكن ثمة فتاة تُحبني، وستحزن كثيرًا لو عرفت أني صافحت يد امرأة غريبة..

وبينما كانت يدها لا تزال معلّقة في الهواء، سألت لتختبر ولائي:

- صافح يدي إذًا ولا تخبرها

- سوف تفضحني عينايَ حين أراها..

قالت وهي تَخفض يدها: أنت لطيف فعلًا، وهذا الأمر يجعلني أحترمك أكثر - ثم ابتسمت وأضافت متسائلة: قُل الآن ما الكلام الذي يدور في رأسك، لكنك متردد في قوله؟!

- أريد أن أعرف كيف أطوّر مهاراتي الكتابية.

- أتطمح بأن تُصبح كاتبًا؟!

- أوه لا.. لا أعتقد.. أنا لا أصلح لأن أكون كاتبًا.. كل ما أطمح إليه فقط هو أن أبهر الفتاة التي أُحبها بكتابة الرسائل إليها.

- ما اسمها؟!

- سارة!

قالت من باب الدعابة:

- وهل هي جميلة مثلي؟!

قلت وقد أخذت الأمر على محمل الجد:

- لا، هي أجمل.

- أنت لطيف ولكنك قليل الأدب بعض الشيء.

- أنت لطيف ولكنك قليل الأدب بعض الشيء.

قلتُ مصححًا:

- أعتذر لا أقصد الإهانة.. ربما تكونين جميلة ولكن ليس في عيني فأنا لا أرى فتاة جميلة غيرها، وإلّا لما كنتُ صادقًا في حبي لها، أليس كذلك؟!

سادت بيننا لحظة صمت قصيرة قبل أن أردف لها شارحًا:

- الجمال هو عين الحُب؛ لذلك نحن لا نرى أجمل ممن نحب.

- وأنا أين أرى جمالي؟!

- ترين جمالكِ إذا نظرتِ إلى عينيْ من يُحبك.

- أين قرأت هذا الكلام؟!

- لم أقرأه في مكان، هذا ما أومن به.

- يبدو أنك تتمتع بحسٍّ أدبي عالٍ يا أحمد - قالت ذلك ثم أخرجت من الجيب الخارجي لحقيبتها كرتًا شخصيًا مدته لي وأضافت: هذا رقمي الخاص.. وفي أي وقتٍ تقرر فيه أن تصبح كاتبًا سأكون سعيدة بمد يد العون لك.

وعندما رأت أنّي لم آخذ منها الكرت قالت للتوضيح:

- أنا لا أعمل مع دار للنشر، أنا أقوم بطباعة وتوزيع الكتب بنفسي وأستطيع مساعدتك لاحقًا إن فكرت بأن تصبح كاتبًا في المستقبل، بترويدك ببعض أرقام المطابع والمكتبات التي أتعامل معها..

- ولكن أنا لا أصلح لأن أكون كاتـ..

قاطعتني قبل أن أكمل جملتي:

- نحن لا نعلم ما تُخبئه لنا الأيام القادمة، لذلك لن تخسر شيئًا لو أنك أخذت هذا الكرت، فربما احتجت إليه يومًا..

لقد كانت محقة في كلامها حين قالت بأننا لا نعرف ما تخبئه لنا الأيام، بالإضافة إلى أنّي فعلًا لن أخسر شيئًا لو أخذت معلومات اتصالها، فأخذت الكرت من يدها وخبأته داخل جيبي.. بعد ذلك قالت تجيب عن السؤال الذي سألتها إياه من قبل بخصوص كيفية تحسين قدراتي الكتابية:

- هُناك طرق كثيرة لتحسين قدراتك الكتابية، ولكن أخبرني أولًا، هل تقرأ؟!

- في الحقيقة لا.

- إذًا لن يتحسن مستواك في الكتابة.

- أنا لا أحب القراءة.

- ولكنك تحب تلك الفتاة أليس كذلك؟!

- أكثر من كُل حرف كتبته يدُكِ، أعزز من مُخيلتك الأدبية.

قالت مبتسمة وكأن إجابتي أعجبتها:

- إذًا اقرأ من أجلها.. لأنك لن تستطيع إبهارها في رسائلك القادمة، إليها طالما أنك لا تقرأ.

- وماذا أقرأ؟

مبتسمة قالت:

- لقد أخبرني قبل قليل شخص في غاية اللطف بأنّ لديكم قسمًا في آخر هذا الممر يضم عددًا من الكتب الأدبية.. اذهب إليه واقرأ كل ما تقع عيناك عليه.

كانت ستقول شيئًا آخر ولكن في تلك اللحظة دخل مالك القرطاسية وقطع علينا حديثنا، فانسحبت من هُناك تاركًا لهما المجال للتحدث بحرية، وعدت لعملي وأنا أفكر بكلامها..

في الحقيقة لم أنتظر حتى اليوم التالي، فبعد أن انتهيت من جرد وتوزيع البضاعة التي كانت داخل الكراتين، ذهبت مباشرة نحو قسم الكتب الأدبية الواقع في نهاية الممر، تناولت كتابًا عشوائيًا من على أحد الرفوف وبدأت أقرأ، ومن هُناك بدأ السحر بالتدفق لقلبي.

***

مع مرور الأيام لم تعد القضية مجرد تحسين قدراتٍ كتابية فقط، لقد باتت القراءة شيئًا يُشبه الإدمان، وبدأت روحي تنزلق شيئًا فشيئًا داخل الكتب، حتى بتُّ لاحقًا أخالص كل شيء على عجالة لأتفرغ للقراءة، فلا شيء بات بإمكانه أن يمنحني البهجة أكثر من عُزلة وكتاب..

لقد كان مجرد التفكير في المستقبل كفيلًا بأن يُثير بداخلي زوابع لا تنتهي من الخوف، وكانت اللحظات القليلة التي أستطيع أن أتلَمَّس فيها ملامح الأمان تحدث فقط عندما أقرأ؛ لذلك بتُّ أضاعف ساعات القراءة، وبات الراتب الضئيل الذي كنت أتقاضاه نهاية الشهر يذهب كله في شراء الكتب، إلى أن جاء مالك القرطاسية يومًا وأخبرني بأنّي أستطيع أن أقضي ساعات العمل كلها في القراءة والاطلاع، وبأنّي أستطيع أيضًا أخذ أيّ كتاب أريده معي للبيت..

لقد قال مالك القرطاسية ذلك، دون أن أدري عن السر الغامض الذي كان يقف خلف طيبة قلبه المفاجئة..

7

جدة،

شارع الشُريتلي،

«بعد خمسة أشهر، من لقائي بتلك المرأة الكاتبة»

ذات صباح كنت أقود سيارتي متعجلًا للذهاب للقرطاسية، لكي أسلّمَ للمالك بعض الفواتير التي كان قد أوصاني بإحضارها في طريقي من أحد تجار الجملة..

ثم وبينما أنا في الطريق إذ لمحت من بعيد الضوء الأخضر لإشارة المرور، فزدت من سرعة السيارة، ولكنّي ما أن أقتربت منها حتى تحول ضوؤها للأصفر.. وبدلًا من أن أحاول تهدئة السيارة إلا أنّي ضاعفت سرعتها أكثر، مما جعلني أتجاوز الإشارة بعد أن أصبحت حمراء..

كان ثمّة سيارة مرور بالقرب من هناك ولكنها لحسن الحظ لم تنتبه إليّ – أو هذا ما ظننته في البداية – ولكنّي ما كدت أن أتجاوز الإشارة بما يُقارب النصف كيلومتر حتى صادفتُ أمامي نقطة تفتيش كانت منصوبة قبل دوار الزهرة[1]

---

١ دوار كان يقع بجدة، على تقاطع شارع الشُريتلي مع الأربعين، قبل أن تتم إزالته عام 2013

أخذ الجندي رخصتي، وطلب مني أن أوقف سيارتي وأن أعود إليه، وحين فعلتُ مثلما طلب، تفاجأت بأن رأيته يقوم بفتح الباب الخلفي لسيارة المرور ويأمرني للصعود إليها وهو يقول:

- لقد قطعت إشارة مرور، وستدخل التوقيف لمدة 24 ساعة.

كانت ملامحه الصارمة تشي بأنه لن يدعني أذهب مهما توسلت إليه، لذلك لم يكن أمامي إلا حل واحد فقط وهو: الاتصال بوالدي؛ فمنصبه الرفيع في وزارة الداخلية يضمن لي خروجًا أكيدًا من تلك الورطة.. ثم ولأني لم أكن أملك هاتفًا وقتذاك فإني طلبتُ من الجندي أن يُعيرني هاتفه المحمول مبررًا:

- يجب أن أُهاتف أبي وأخبره أين سأذهب حتى لا يقلق عليّ.

مد لي الجندي هاتفه النقال دون أن يعلّق، فأدخلت رقم والدي الذي كنت أحفظه جيدًا وأجريت الاتصال وما هي إلا ثوانٍ قليلة حتى فتح الخط، وشرحتُ له هامسًا ما حدث بالضبط ثم طلبت منه برجاء أن يتحدث مع الجندي ويقنعه بالعدول عن رأيه..

ما أن ألصق الجندي سماعة الهاتف على أذنه وعرف هوية والدي حتى لمحت الاهتمام باديًا على ملامح وجهه، ثم سمعته يقول بجدية قبل أن يُنهي المكالمة:

- حاضر، سأفعل كما أمرت..

أعتقدت أن المشكلة حُلّت؛ فانسحبتُ عائدًا نحو سيارتي، ولكنّي ما كدتُ أبتعد بضع خطوات حتى قال الجندي: إلى أين أنت ذاهب؟!

- لأواصل طريقي للعمل، فهناك فواتير كثيرة يجب عليّ تسليمها..

- ليس لثلاثة أيام قادمة، لقد طلب والدك أنْ يتم حبسك في التوقيف لمدة 72 ساعة بدلًا من 24.. لتحترم إشارة المرور في المرة القادمة.

***

قسم المرور بحي الصحافة:

كانت غرفة التوقيف صغيرة لا تكاد تتسع لعشرة أشخاص.. ورغم ذلك إلا أنّ المحبوسين بداخلها عندما دلفت إليها كان عددهم يتجاوز العشرين رجلًا، فتحاشرنا هُناك جميعًا حتى بات الواحد منّا في مقدوره الاستماع لما يدور في ذهن الآخر.

ذهبت أجلس في زاوية غرفة التوقيف غاضبًا لأنّ القراءة ستفوتني لمدة ثلاثة أيام قادمة، ولأنّ والدي أيضًا لم يكتفِ فقط بالتخلي عني، بل إنّه أمر الجندي بزيادة مدة حبسي!!

أذكر أنّ الدقيقة هُناك كانت تمضي كما لو أنها لا تنتهي، ولم يكن بحوزتي ما أتحايل به على الوقت لأجعله يمرّ بسرعة، حاولتُ أن أغمض عينَيّ وأفكر بسارة ولكن الروائح الكريهة التي كانت تنبعث من دورة المياه الموجودة داخل غرفة التوقيف والتي لم يكن يفصلنا عنها شيء غير قطعة قماش ساترة، كانت تمنعني من استحضارها في خيالي..

كان البروتوكول في غرفة التوقيف يقتضي أن يأتي أحد الجنود كل ثماني ساعات تقريبًا وفي يده قائمة بأسماء الرجال الذين انتهت مدة حبسهم، ويُدخل بدلًا عنهم دفعة جديدة..

وفي إحدى الدفعات التي كانت قادمة لتوها وصل رجل من جنسية عربية ما زلت لهذه اللحظة أذكر هيئته جيدًا: كان متوسط الطول ذو كرش بارز، يرتدي لباس تأجير أحد محلات السيارات ويعلّق قلمًا في جيب قميصه العلوي لم يُصادره منه شرطيّ الأمانات..

اقتربتُ منه وقلت بأدب:

- هل أستطيع استعارة القلم لو سمحت؟!

سأل متعجبًا:

- لماذا تريد قلمًا في مثل هذا المكان

قلت جادًا:

- أريد أن أرسم به خطة للهروب.

أخذت منه القلم وأخرجت من جيبي كل الفواتير التي كان من المفترض أن أقوم بتسليمها ذلك اليوم لمالك القرطاسية وقلبتها على ظهرها الناصع البياض ثم جعلت أكتب عليها قصة أسلّي بها نفسي حتى أهرب بواسطتها من ذلك الضجر القاتل..

كانت القصة التي كتبتُها آنذاك تتحدث عن:

«فتاة اسمها (جومانا) تتعرض لخطر داهم فيتدخل (بحر) في اللحظة الأخيرة لإنقاذها، ومع الوقت تنشأ بينهما قصة حُب كبيرة تنتهي بزواج (بحر) منها دون أن يعلم بأنّها "جنية"..»

ورغم أني كنت حينذاك محبوسًا في غرفة تكتظ بالكثير من الناس، وكانت هناك أربعة جدران تُحيط بي من كل الجهات، وباب موصد بقفل وسلسلة وحراس، إلا أني بالكتابة كنت قادرًا فعلًا على أن أهرب من كل شيء، متجاوزًا المكان والزمان، مُسافرًا إلى حيث تقع أحداث تلك القصة..

قضيت الأيام الثلاثة تلك وأنا محموم بلذّة الكتابة، وكانت تلك هي أول قصة أكتبها في حياتي، وما كنت أتوقع أبدًا أنّ تلك القصة ستتحول يومًا لعمل أدبي أُطلق عليه فيما بعد اسم: «أبابيل».

لاحقًا وبعد انقضاء 72 ساعة: جاء أحد الجنود يحمل بيده قائمة أسماء المُفرج عنهم، وكان اسمي واحدًا منهم.. ما زلت أذكر كيف أني لم أفرح كثيرًا عندما نطق الجندي اسمي وكيف أني تمنيت دون مبالغة أنْ أبقى في غرفة التوقيف، لأواصل التجول في ذلك العالم الموازي معتطيًا صهوة الكتابة..

لملمتُ أوراق الفواتير التي كتبت عليها القصة وما أن ابتعدت خطوتين من هُناك حتى سمعت أحدًا يهمس من الزاوية:

- ستسقط يومًا من سمائك السابعة، وحينها سأسكنك.

وعندما التفتُّ نحو مصدر الصوت ذاك لم أجد أحدًا، أكملت طريقي معتقدًا بأنّي كنت أتوهم، غير أنّي بعد سنوات طويلة من تلك الحادثة سأكتشف بأنّ ذلك الهمس لم يكن إلا نبوءة شيطانة الكتابة..

في الحقيقة: الله لا يُغلق في وجهنا بابًا إلا ويفتح بدلًا عنه أبوابًا كثيرة، ولكنّ المشكلة هي أننا نظل نُحدق في الباب المُغلق بحسرة تُلهينا عن رؤية بقية الأبواب المفتوحة.. لقد أغلق الله باب الحُرية عني لمدة 72 ساعة، وفتح لي بابًا اسمه الكتابة، وأنا أعترف بأنه لولا حادثة غرفة التوقيف تلك، لكنت رُبما أبدًا لم أجد طريقي للكتابة..

***

باتت حياتي متواضعة جدًا، وبتُّ أخضع لروتين لا يتغير: أذهب للعمل منذ العاشرة صباحًا وأنتهي عند السادسة مساء، ثم أعود للمنزل لأكتب رسالة لسارة، وما أن أنتهي من تسليمها حتى أعود لغرفتي من أجل مواصلة كتابة رواية أبابيل[1]

---

1 لم أكن أكتب لغرض النشر، ولم أتخيل أني سأنشر يومًا، كنت أكتب فقط لأني كنت طوال عمري ضائعًا، وما وجدت نفسي إلا حين وجدت الكتابة..

ورغم الحياة التي قد تبدو مملة بعض الشيء، إلا أني كنت راضيًا بها ركل
كل شيء يسير على ما يرام إلى أن جاء ذلك اليوم الذي عدت فيه من العمل
ووجدت والديّ بانتظاري وقد بدت عليهما أمائر الجدية، جلستُ مقابلاً لهم
كمُتهم يخضع لجلسة تحقيق، قالت أمي بملامح وجهٍ باكية:

- أبوك يريدك أن تسافر يا أحمد.

وأنا أوزع نظري بينهما: أسافر؟!.. لماذا أسافر؟!

أجاب أبي: للابتعاث، ولبدء حياة جديدة.

- ولكنّي لا أريد تغيير حياتي..

لم أكن حينذاك أريد أن أسافر؛ فأنا لا أرغب في الابتعاد عن سارة
وعن أمي وعن الوطن الذي يحمل بين جنباته كل ذكرياتي الجميلة..
قالت أمي بلهفة: أرأيت يا عبد الله.. إنّه لا يريد أن يُسـ..

قاطعها والدي هامسًا:

- ولكن يا مريم بالله عليكِ إلى متى سأظل أعطيه مصروفًا شهريًا؟!

تدخلتُ مندفعًا: أنت لا تعطيني شيئًا، أنا أعمل وأكسب المال بجهدي

قال أبي : هذا لأنني..

قاطعته أمي قبل أن يكمل: ولكننا اتفقنا على أنك لن تخبره!!

أصرّ أبي: ولكنّه يجب أن يعرف..

تساءلتُ بقلق: أعرف ماذا؟!

قال معترفًا: أنا من يدفع لك مرتبك الشهري في القرطاسية.

لم أصدق في البداية كلامه، لكنه قال مُبرهنًا:

- لماذا بظنك إذًا يسمح لك مالك القرطاسية بأنْ تبقى طوال الوقت معتكفًا في قسم الكتب الأدبية تقرأ بدون أن يفتح فمه معك؟!

عرفت حينها السر الذي جعل مالك القرطاسية يصبح فجأة طيب القلب معي، لقد كان يسمح لي بأن أقرأ وآخذ الكتب معي للمنزل دون مقابل لأنّ والدي فقط كان يدفع له ثمن كل شيء..

شعرت بحرج شديد إذ أنّي على امتداد عامين كنت أعتقد بأنّي من يعمل ويكسب المال بجهده وعرق جبينه فأكتشف لاحقًا بأنّي كنت مخدوعًا طوال الوقت، قالت أمي تفسر الأمر:

- لقد جاء مالك القرطاسية لوالدك شاكيًا ذات مرة.. يقول بأنّك تقضي كل الوقت في القراءة، وبأنه في حاجة ليد نشيطة تساعده في العمل وأنه يعتزم فصالك واستئجار عامل آخر غيرك.. فطلب منه والدك أن يستبقيك عنده على أن يدفع له مرتبك الشهري كل نهاية شهر..

نظرت لأبي وسألته:

- ولماذا فعلت هذا؟!

أجاب:

- لأنّي كنتُ أعرف بأنّ القراءة ستغير حياتك بشكل أو بآخر.. وفعلًا حدث كما توقعت، لقد غيرت القراءة فيك ما لم تغيره فيك سنوات الدراسة كُلها، وألف محاضرة كنتُ ألقيها عليك؛ لهذا قررت أنا ووالدتك الآن إعطاءك فرصة ثانية من خلال ابتعاثك للخارج..

- ولكنّي لا أرغب في أن أسافر.
- أحيانًا الرغبة لا تكون شرطًا للقيام بالشيء، هُناك أشياء سوف تصادفها في هذه الحياة لن تكون لديك الرغبة فيها، لكنّك ستكون مضطرًّا للقيام بها.

قلت متذرعًا:

- نسبتي في الثانوية لن تسمح لي بالالتحاق بالبعثة..
- لا بأس، سوف تدرس على حسابي أول الأمر، ثم ستضمك المُلحقية هُناك، فهذا ما يفعله الكثير من الطلاب الذين لا تنطبق عليهم شروط البعثة..

لم أتكلم وهممت بالمغادرة، غير أنّ والدي أوقفني قبل أن أغادر:

- مهلًا، إلى أين تذهب؟!
- أحتاج أن أفكر بالأمر

قلتُ ذلك ثم تسللت خارج المنزل ذاهبًا نحو المكان الذي كنت أعرف جيدًا أني أستطيع الهروب إليه كلما ضاقت بي الدنيا.. لقد ذهبت نحو سارة.

***

تسلقتُ الحائط بعد أن تحققت من أنّ أحدًا لا يراني، ثم هبطت في الارتداد الجانبي لفناء العمارة.. أخذت سلم الحديد وقرّبته لأسفل نافذة الشقة الأرضية ثم طرقت الزجاج طرقًا خفيفًا..

لحظات قليلة ثم فُتح زجاج النافذة وأطلّ وجهها من خلف القضبان الحديدية.. كانت ملامحها تبدو شاحبة على غير العادة، وثمّة ابتسامة زائفة ترتسم على ثغرها.. سألتها:

- ما بكِ؟!

- حزينة منْ أجلك

- هل عرفتِ بأمر السفر؟!

- سمعت والدتك تتحدث لوالدتي..

- لا أعلم ماذا أفعل.. دُليني.

- أظن أنّ عليك أن تذهب؛ فهذه الطريقة الوحيدة التي سوف تضمن لك الشهادة والمستقبل.

- وأنتِ ماذا ستفعلين في غيابي؟

- سأتذكرك، وأكون بخير.

- قد تطول مدة غيابي هُناك.

- لا تقلق لديّ الكثير من رسائلك، سأفتح واحدة كلما اشتقتك

- لا أريد أن أرحل عنكِ.

- ليس أمامك خيار أفضل، يجدر بك أن تسافر لتؤمّن مستقبلك.

قلتُ متشجعًا بعد لحظات من التفكير:

- حسنًا سوف أسافر وأتعلم هُناك، وأعود بشهادة كبيرة وأتزوجكِ، هل تنتظرينني حتى أعود؟!

أذكر أنها آنذاك بدت أمامي مترددة للغاية ومتذبذبة كمؤشر جهاز تخطيط قلب، لقد بدت في تلك اللحظة وكأنها تخفي علي سرًّا خطيرًا لا تريدني أن أعرفه؛ فحدجتُها بنظرة عميقة محاولًا أن أكتشف في عينيها ذلك السر، ولكنّي ولأول مرة مُذ عرفتها لم أستطع قراءة ما يدور في فؤادها، وشعرت وأنا أقف أمامها بأنها فتاة غريبة لا أعرفها:

- أهناك ما تخبئينه عنّي يا سارة؟!

- لا - همست بتردد: سافر وسأنتظرك حتى تعود.

- أتعدينني بذلك؟!

- ...

- لماذا لا تتكلمين؟.. هل تعديني أم لا؟!..

خرجت عن صمتها قائلة:

- لا تورطني مع الزمان أرجوك، نحن لا نعرف ما الذي تخبئه الأقدار لنا.

- ما هذا الكلام الغريب؟!.. لماذا تتكلمين معي بهذه الطريقة؟!

أغمضت عينيها قليلًا، بدا وجهها ذابلًا كوردة داسها المارة فوق الرصيف، كان التردد يُرهقها وبدت أنها كانت تُجاهد لتضبط انفعالاتها، أخذت نفسًا عميقًا ثم همست:

- ربما لأني حزينة لرحيلك..

- لن أذهب إذًا

في تلك اللحظة طلبت سارة أمرًا لم يسبق لها أن طلبته من قبل:

- هل أستطيع أن ألمس يدك؟

مددتُ يدي لها من بين قضبان النافذة الحديدية، فأحسستُ بيدٍ ترجف لفرط الخوف تُمسك يدي بقوة وتعتصرها كما لو أنها كانت تقول لها بلغة الإشارة وداعًا إلى الأبد..

قلت:

- أخبريني إن كان هناك شيء لا أعرفه.

- لا شيء - ردت، ثم أضافت: سافر من أجلي.

- ليس قبل أنْ آخذ منكِ وعدًا بالانتظار.

- أعدك.

همست بذلك ثم أرخت قبضتها على يدي، وانسحبت للداخل دون أن تخبرني بالمؤامرة الكبيرة التي كانت تُحاك خلف ظهري..

أما أنا ورغم الشعور الكبير في قلبي والذي ربما كان قد يصل لمرحلة اليقين بأن هناك شيئًا سيئًا على وشك الوقوع، إلا أني اخترت تكذيب ذلك الشعور وتصديق الوعد الذي قطعته لي سارة؛ فالحب هو الإيمان الكامل بالطرف الآخر.. عدت إلى حيث أبي لأخبره بأني موافق.

***

في صباح اليوم التالي ذهبتُ بمعية والدي لأحد المكاتب المتخصصة بتقديم خدمات إجراءات السفر.. رشَّحَ الموظف لنا عددًا من المدن الأمريكية المناسبة للدراسة، فاختار والدي منها مدينة سانديغو التابعة لولاية كاليفورنيا بحكم أنه قد درس فيها سابقًا..

بعد ذلك استعرض لنا الموظف أسماء معاهد اللغة الإنجليزية ذات السمعة الجيدة هُناك، فاخترنا من بينها معهدًا اسمه «EC»[1] يقع في منطقة هادئة مجاورة للبحر تُدعى «لاهويا»..

ثم أخيرًا قطع الموظف لي موعدًا مع سفارة الولايات المتحدة الأمريكية الواقعة على امتداد شارع فلسطين للحصول على التأشيرة.

***

في السفارة: كاد اللقاء مع موظفة التأشيرات أن يتسبب في حرماني من السفر بشكل نهائي؛ وذلك لأنّ لغتي الإنجليزية آنذاك لم تكن جيدة، وقد أوصاني والدي الذي لم يسمح له حرس بوابة أمن السفارة بالدخول معي بأن أبتسم وأجيب بـ «يس» على أيّ سؤال لا أفهمه.

في البداية استطعت بصعوبة شديدة الإجابة على أول ثلاثة أسئلة طرحتها الموظفة، حيث سألتني عن اسمي وعمري والسبب الذي كنت أريد الحصول على التأشيرة من أجله، ولكنّ السؤال الرابع هو الذي كاد أن يتسبب في منعي من السفر..

---

١ «EC San Diego English Language School»

حيث كان سؤالها:

- سيد أحمد، بعد أن تُنهي دراستك.. هل تعتزم البقاء في الولايات المتحدة الأمريكية كشخص مخالف للقوانين والأنظمة؟!

كان من المفترض أن أُجيبها بـ«نو».. ولكنّي لم أفهم السؤال فتذكرت نصيحة والدي وابتسمتُ مُجيبًا بـ«يس».. أما الموظفة فإنها صمتت قليلًا تحدق في وجهي قبل أن تقول:

- هل فهمت سؤالي؟

- «يس»

- ولكنّي لا أظن أنك فهمت سؤالي جيدًا؟

- «يس»

- سأعيد عليك السؤال مرة ثانية وأريد منك جوابًا نهائيًا

- «يس»

- بعد أن تُنهي دراستك يا سيد أحمد، هل تعتزم البقاء في الولايات المتحدة الأمريكية كشخص مخالف للقوانين والأنظمة؟!

- «يس»

كان وقتذاك أمام الموظفة ختمان: «أحمر، وأخضر اللون».. وكنتُ أدرك غريزيًا أن الأحمر معناه رفض الحصول على التأشيرة، أما الأخضر فمعناه الموافقة؛ لذلك فإنّي ما أنْ رأيتها تُمسك الختم الأحمر بيدها وتستعد لأن تختم به نموذج الحصول على التأشيرة حتى صرخت بكل صوتي قائلًا: «نووو».. مما استدعى التدخل المباشر لحراس أمن السفارة..

قاموا بإدخالي غرفة صغيرة للتحقيق.. حضر فيها كل من الموظفة التي أجرت معي المقابلة، ومترجم ذي أصول عربية، بالإضافة لجهاز يُشبه الراديو لتسجيل كل كلمة تحدث بين ثلاثتنا.

قام المترجم فورًا بترجمة السؤال الرابع الذي سألته لي الموظفة سابقًا، وما أن فهمتُ المقصود منه حتى أجبت قائلًا: لا.. بالطبع أنا لا أنوي البقاء هناك، سأُنهي الدراسة وأعود فورًا للسعودية..

لكنّ موظفة التأشيرات لم تقتنع بجوابي وقالت للمترجم:

- إنّه يكذب.. لقد سألته إن كان قد فهم سؤالي فأجاب بـ نعم.. لقد غير كلامه الآن فقط كي يحصل على التأشيرة، ولكنّ هذا لن يحدث حتى لو تدخل السفير بنفسه!!

أخبرني المترجم بما قالت، ثم نصحني حفاظًا على كرامتي بأن أعتذر لها وأغادر السفارة قائلًا بأنّها لن تضع ختم الموافقة مهما حدث على أنموذج التأشيرة، وكنت فعلًا سأغادر لولا الفكرة التي فقئت فجأة برأسي:

- اسمع.. اسألها إن كانت مرتبطة أم لا.

نظرت الموظفة للمترجم تنتظره أن يُترجم لها، بينما ابتسم المترجم بوجهها وقال مُستأذنًا: «لحظة من فضلك» ثم التفت إليّ وهمس غاضبًا:

- أين تظن نفسك؟!.. أهذا وقت مثل هذه الأمور؟!.. ثم ألم تنظر للفرق الشاسع بين وجهك ووجهها؟!

- أأنت هنا شامتٌ أم مترجم؟

- مترجم ولكنك تطلب أشياء غريبة!!

- أنا أريد أن أعرف فقط إن كانت قد جربت الحب أم لا.. فإن كان جوابها نعم فربما أستطيع إقناعها، وإن كان جوابها لا فسأخرج مطرودًا من باب هذه السفارة.

- أخاف أن أترجم لها سؤالك هذا، فأخرج مطرودًا معك..

- لا تقلق لن يحدث لك شيء، اسألها أنت فقط

سألها المترجم إن كانت مرتبطة أم لا، فسألته غاضبة: «ما دخل هذا السؤال بهذه المشكلة؟!».. فأجابها ليُخرج نفسه من الحرج:

- لقد قلتُ له ذلك ولكنّه مصرّ على معرفة الجواب..

صمتت الموظفة قليلًا ثم تورد خداها وهي تُجيب قائلة:

- نعم أنا حاليًا أعيش قصة حب.. إنّه يُدعى إيليا، وهو حاليًا يعمل في منهاتن.. علاقتي معه تمرُّ بالكثير من التعقيدات والمشاكل، فنحن دائمًا نصل لطرق ذات نهايات مسدودة، لكننا في كل مرة نجد لأنفسنا مخرجًا ننقذ به علاقتنا من النهاية..

وما أن انتهى من ترجمة إجابتها لي، حتى طلبتُ منه أن يسألها: لماذا هما متمسكان ببعضهما طالما أنّ كل هذه المشاكل بينهما.

-

- ما بك لا تتكلم، ترجم لها سؤالي..

- لقد أدخلناك هُنا للتحقيق معك، وليس العكس!!

همستُ له:

- لا عليك لديّ خطة..

- أخبرني ما الخطة أولًا، وإلا فلن أترجم لها..

- دعها تتكلم؛ فلا شيء بإمكانه إطفاء غضب امرأة أكثر من الكلا

- أهذه خطتك؟!.. سأُطرد من عملي بسببك!!

- إنّ المرأة تشعر بكثير من الامتنان لمن يُنصت لها.. دعنا فقط نص

وسترى كيف تصبح طيبة معنا، ثق بي إنها رشوة مضمونة..

التفت إليها المترجم على مضض، وسألها غير مقتنع:

- طالما أنّ كل هذه المشاكل بينكما، فلماذا تتمسكان ببعضكما؟

تنهدت بعد قليل وهي تبوح:

- لأنّ كل واحد منّا يخاف الوحدة، أظن أنّ الكثير من الناس يحافظو

على علاقاتهم غير السعيدة، فقط لأنهم يخافون البقاء في وحدة.

أخبرني المترجم بما قالت، فطلبتُ منه شيئًا أخيرًا: وهو أن يسألها عن مدى شعورها بألم البعد عن حبيبها ذاك، فقالت بأنه رغمًا عن كُل المشاكل التي بينهما إلا أنها لا تتمنى شيئًا في هذه الدنيا أكثر من أن تركض نحوه لمعانقته..

ابتسم شيء بداخلي وعرفت أني حققت الهدف، قلت:

- أنا سأسافر تاركًا هنا فتاة أحبها وتحبني جدًا.. نحن متمسكان ببعضنا ليس لأننا نخاف البقاء في وحدة، بل لأنّ الحياة ستغدو بلا فائدة إن كان أحدنا لن يعيشها مع الآخر - ثم أردفت: عندما سأصبح في أمريكا لن يكون هُناك شيء سأتمناه في هذه الدنيا أكثر من أنْ أنهيَ دراستي وأعود للوطن فورًا لأتزوجها..

بعد أن أخبرها المترجم بكل كلمة قلتها، نظرت الموظفة لعينَيّ وكأنها تفتش فيهما عن حبيبها البعيد، ثم قالت كما لو أنها توجه الكلام إليه:

- مشكلة المرأة هي أنها كُلما وقعت في اختيار الرجل الخطأ، قالت تعزّي نفسها بأنّ الحب أعمى، ولكن في الحقيقة أنتم الرجال غدارون للدرجة أنّ المرأة العمياء نفسها تستطيع أن تتحسس بيديها غدركم..

ثم مدت الموظفة يدًا نحو أحد الأختام، وختمت به نموذج الحصول على التأشيرة، وقالت مبتسمة:

- عمومًا.. أتمنى لك إقامة سعيدة في الولايات المتحدة الأمريكية..

- أتعلمين - قلت وأنا أقف وأرد إليها الابتسامة: إن حدث ذات مرة والتقيت بـ إيليا هُناك فسأخبره بأنّ لديه فتاة رائعة - ثم فتحت باب غرفة التحقيقات، وقلت للمترجم قبل أن أنصرف: لقد أخبرتك بأنّ لدي خطة!!

8

صباح الأحد،

23/ نوفمبر/ 2008

صالة المُغادرين/ مطار جدة الدولي.

في ذلك اليوم أذكر أنّي لم أقم بوداع أحد؛ فأنا لا أحب لحظات الوداع، طلبت سيارة أجرة ثم تسللتُ خارج البيت قبل موعد السفر بخمس ساعات، تاركًا خلفي رسالة كتبتُها لأمي وأبي وخالتي هوازن أبرر لهم فيها سبب رحيلي دون السلام عليهم، وتاركًا في نافذة سارة رسالة قصيرة مكتوبًا فيها:

«سأعود يومًا لأخطفكِ بفستانكِ الأبيض، فانتظريني»

مكثتُ في المطار حتى قاربت الساعة العاشرة والثُلث وأُذيعَ الإعلان في مكبرات الصوت، طالبًا من المسافرين التوجه نحو البوابة استعدادًا لصعود الطائرة..

- ما تأكدت بأني مخلوق من طين

إلا حين أزهر الجبين الذي وضعتِ عليه قُبلتكِ

قال الوحش ذات مرة

8

صباح الأحد،

23/ نوفمبر/ 2008

صالة المُغادرين/ مطار جدة الدولي.

في ذلك اليوم أذكر أنّي لم أقم بوداع أحد؛ فأنا لا أحب لحظات الوداع، طلبت سيارة أجرة ثم تسللتُ خارج البيت قبل موعد السفر بخمس ساعات، تاركًا خلفي رسالة كتبتُها لأمي وأبي وخالتي هوازن أبرر لهم فيها سبب رحيلي دون السلام عليهم، وتاركًا في نافذة سارة رسالة قصيرة مكتوبًا فيها:

«سأعود يومًا لأخطفكِ بفستانكِ الأبيض، فانتظريني»

مكثتُ في المطار حتى قاربت الساعة العاشرة والثُلث وأُذيعَ الإعلان في مكبرات الصوت، طالبًا من المسافرين التوجه نحو البوابة استعدادًا لصعود الطائرة..

- ما تأكدت بأني مخلوق من طين

إلا حين أزهر الجبين الذي وضعتِ عليه قُبلتكِ

قال الوحش ذات مرة

غُربة

كانت ابتسامتكِ تميمة ألوذ بها من الحزن

وضحكتكِ قبيلة أحتمي بها كلما غزتني الكآبة

خمسة وثلاثون ألف قدم فوق سطح البحر

خط سير الرحلة: جدة/ واشنطن/ سانديبغو.

بعد اثنتيْ عشرة ساعة من التحليق المتواصل أعلن كابتن الطائرة أنّ طاقم الضيافة سيقوم بتوزيع أنموذج يطلقون عليه اسم «آي - 94» على الركاب.. وأنّه يجب على كل من لا يحمل الجنسية الأمريكية تعبئته قبل الهبوط..

كانت الأسئلة في الأنموذج مكتوبة باللغة الإنجليزية؛ لهذا بدت على وجهي أمائر الحيرة ولم أكن أعرف ماذا أكتب.. نقر أحدهم كتفي من المقعد الجانبي وحين التفتُّ إليه وجدت شابًّا نحيلًا يُشبه في وسامته عارضي الأزياء يبتسم بلطافة ويقول بصوت مخمليّ:

- يبدو أنّك تواجه صعوبة مع الأنموذج، دعني أساعدك.

- أنت لا تعلم أي معروف ستقدمه لي بخدمتك هذه.

مدّ يده مصافحًا وقال: اسمي معاذ.

مددت يدي مصافحًا وعرّفته باسمي، ثم أعطيته الأنموذج ليقوم بتعبئته بالنيابة عني.. سألني أولًا عن اسمي الرباعي، ثم طلب مني معلومات جواز السفر، والغرض من زيارة أمريكا، والمدينة التي سوف أستقر فيها واسم المعهد الذي سأدرس فيه.

وحين انتهى أعاد تمرير الأنموذج لي وهو يقول مُبتسمًا:

- يبدو أننا سنحظى بالكثير من المرح في ساندييغو.

سألته متفاجئًا:

- أحقًّا.. أنت تُقيم هُناك؟!

- وأدرس في المعهد ذاته الذي تدرس فيه أيضًا - قال ذلك ثم أضاف شارحًا: لقد درستُ فيه لمدة أربعة أشهر فقط، ثم عدت للسعودية من أجل أن أتقدم لخطبة فتاة قريبة لي، وها أنا ذا عائد مرة أخرى لأكمل الدراسة..

- مبارك عليك يا عريس

- أتشمت بي؟!

- لا.. لا أشمت بك، أنا أبارك لك خطبتك

متنهدًا قال:

- كان يجدر بك أن تُعزيني، لا أن تبارك لي.

- لم أفهم قصدك

- إننا ننتهي بطريقتين: إما الموت، أو الزواج.

- غريب..

- ما الغريب؟!

- غريب أنْ نكون في المكان والزمان ذاته، وأمامنا شيء واحد، ولكننا ننظر إليه بكل هذا الاختلاف.

- لماذا، كيف تنظر للزواج أنت؟

- قد لا يُعجبك رأيي يا معاذ.

- لا عليك، فنحن قد نختلف في وجهات النظر، ولكنّ هذا لا يُلغي فكرة أن أستمع لرأيك باحترام..

هززت رأسي مُعجبًا بمنطقه ثم قلت:

- أنا متطرف حين يتعلق الأمر بالزواج، فأنا أرى أنّ الزواج هو الصدق وأنّ كل علاقة حُب لا يسعى طرفاها للوصول إليه لهيّ علاقة كاذبة.

- إذًا أنت ترى أنّ كل علاقة حُب يجب أن تنتهي بالزواج؟

- بل تبدأ به؛ فالزواج بداية جديدة لدورة الحُب.

- أأنت واقع في الحب؟!

- نحن لا نقع في الحب، بل نحلّق به

- وتنوي الزواج بها؟

- نعم

- غريب..

- ما الغريب؟!

- غريب أنك أتيت من مجتمع لا يتزوج فيه الذكور عادة من حبيباتهم، ورغم هذا إلا أنّك تنوي الزواج من حبيبتك.. ولكن عمومًا أنْ تتزوج بفتاة تحبها، أفضل بكثير من أن تهجرها لتختار الزواج من فتاة قد تكون حبيبة غيرك.

ابتسمتُ لسخريته ولم أُعلّق.. سألني بعد مرور بعض الوقت:

- ألم تجرب أن يكون لديك علاقة حُب غير جادة، أي بمعنى أنها علاقة غير مشروطة بالارتباط الأبدي؟!

- جربت، ولكنْ لم يُعجبني الأمر.

- لماذا؟

- إنّ العلاقة غير الجادة يتخللها الكثير من الشك وعدم اليقين، لا شيء أكثر أمانًا من علاقة حُب صادقة تضع الله فيها نُصب عينيك..

بدا أنّه لم يكن مقتنعًا بكلامي، فقلت مُضيفًا:

- أتعلم ما معنى أن يكون لديك شخص تُحبه وتثق به؟! معناه أنّك ستأوي لفراشك ليلًا وأنت في كامل طُمأنينتك، وحين تستيقظ صباحًا ستجد ابتسامة عريضة مرسومة على وجهك؛ لأنّ ثمة من كان يدعو لك طوال الوقت بالخير والسلام.

قال معاذ متحدثًا من زاوية أخرى:

- ولكن هذا معناه أيضًا، أنّك تُراهن بكل ما تملك على صفقة قد تكون خاسرة - وأضاف شارحًا: أن تضع كُل أحلامك في سلّة واحدة، هذا معناه أنْ الدمار سوف يُصيب كل أحلامك، إذا ما أصاب مكروه ما تلك السلة..

- إنّ الحب يُشبه طاولة القمار، حيث ترمي قطعة النرد وأنت تُدرك مسبقًا أنك قد تربح كل شيء، أو تخسر كل شيء؛ لذلك من الأفضل أن تُراهن على قلب تثق به، قبل أن ترمي قطعة نردك..

- أما أنا فإنّي أُفضّل الجولات التي أخوضها دون مُراهنة، دون احتمال كبير للخسارة.. أُفضّل العلاقات العابرة، تلك التي تُغلفها قشرة الصداقة؛ فهكذا تكون طائرًا حرًّا كلما ضاق بك المكان ضربت بجناحيك الهواء وحلقت مبتعدًا..

- أما أنا فعكسك تمامًا يا معاذ.. أنا لا أومن بالصداقات بين الرجال والنساء، لا أومن بفكرة أن أضع قبسًا من النار بقرب فتيل بارود، دون أن أتوقع حدوث انفجار.

قطع حديثنا مرور مضيفة الطيران، وحين ابتعدت قال معاذ:

- وأنا لا أومن بالزواج، لا أومن بفكرة الارتباط الأبدي، فأنا أُحب البحر، ولكن هذا لا يعني أني أحب الغرق فيه.

- لماذا تكره الزواج لهذا الحد؟

- لأنّي أحب الفتيات؛ أحبهن لدرجة أنّي لا أستطيع تقبل فكرة الارتباط بإحداهن؛ فالارتباط بفتاة يعني أن لا يُصبح لديّ الحق في الارتباط بغيرها.

- غريب

- ما الغريب؟!

- غريب أنّ يكون هذا تفكيرك، ورغم ذلك إلا أنّك للتو خاطب.

- لم يكن هذا قراري.. كل ما في الأمر أنّ أبي يظنّ أنّي شاب مصاب بالجنون، وأنّ الزواج هو الطريقة الوحيدة لاستعادة عقلي.

في تلك اللحظة طلب الكابتن من الجميع العودة لمقاعدهم وربط أحزمة الأمان استعدادًا للهبوط، أما أنا فصمتُّ أفكر بما قاله معاذ للتو: «ربما كان مع والده الحق في أنْ يراه مجنونًا، ولكن الأكيد هو أنّ والده لا يملك الحق في أن يعامل ابنة الناس تلك كما لو أنّها دواء لجنون ابنه، **إنّ مجتمعاتنا يتذمرون من كثرة الطلاق وهم لا يعلمون بأنّ الطلاق في الزيجات لا يكثر إلا عندما تُبنى تلك الزيجات على أُسس تافهة**».

***

كانت الخطة التي رسمها لي مكتب السفريات، تقتضي أن أستقر لمدة يومين في واشنطن؛ كي أذهب للملحقية الثقافية السعودية هناك وأتقدم لديهم بطلب الالتحاق بالبعثة.. ثم أستقل بعد ذلك طائرة تابعة للخطوط الداخلية الأمريكية أُسافر بها لوجهتي الأخيرة..

أما معاذ فكان يجدر به الانتظار في المطار لمدة ساعتين ثم يستقل بعدها الطائرة المتجهة لسانديبغو، فقمت بتوديعه بعد أن تبادلنا الأرقام واتفقنا على أن نلتقي لاحقًا في المعهد..

***

أوقفتُ سيارة أجرة عند بوابة المطار، وحين سألني سائقها عن وجهتي أجبته: «أوتيل بليز».. سألني عن اسم الفندق الذي أرغب بالذهاب إليه، فلم أعرف أن أقول له شيئًا غير «يس».. سألني السائق إن كنتُ شخصًا معتوهًا فأجبته: «يس».. أخيرًا وضع السائق سيارته على وضع الانطلاق، ولكنه قبل أن يتحرك جاء صوت من خلفي استوقفه..

قال الصوت بالإنجليزية:

- خذنا لفندق يكون بالقرب من المُلحقية الثقافية السعودية لو سمحت.

التفتُّ للخلف فوجدته معاذ، تساءلتُ بتعجب:

- وماذا بشأن طائرتك التي ستقلع بعد قليل؟!

- لا تقلق فالطائرة ستجد طريقها سواء كنتُ فيها أو لم أكن.. ولكن أنت ستضيع بلا شك في هذه المدينة إن لم أكن معك.

- عد للحاق بطائرتك - قلت مكابرًا - لا عليك سأكون بخير.

- أي خير هذا الذي ستكون فيه؟!.. فلو أنّ السائق أخبرك بأنّه يرغب في اختطافك، لكنتَ ستبتسم وتقول له «يس» وتصعد معه..

ثم أضاف وهو يضع أشياءه في صندوق سيارة الأجرة:

- عمومًا لا تزال الدراسة في المعهد لم تبدأ بعد؛ لذلك لن يضيرني البقاء معك هنا لمدة يومين إضافيين..

- لماذا تُتعب نفسك من أجل شخص للتو التقيته؟

أجاب وهو يفتح الباب الخلفي ويصعد للسيارة:

- اعتبرها عربون صداقة..

بقينا هُناك لمدة يومين أتممتُ فيهما طلب الالتحاق بالبعثة السعودية، ثم التحقنا بعد ذلك بطائرة الخطوط الداخلية الأمريكية التي كانت ستُقلنا لمدينة سانديبغو.

2

الساعة 3:15 مساء

صالة الوصول/ مطار سانديغو الدولي.

حين وصلنا للمطار كان في استقبالي امرأة عجوز تُمسك بين يديها لوحة مكتوب عليها اسمي بخط عريض.. لم أنتبه في بداية الأمر إليها غير أنّ معاذ أشار بيده نحوها وقال:

- انظر.. يبدو أنّها أحد أفراد العائلة التي ستُقيم عندها..

اتضح لاحقًا أنّ معاذ كان محقًّا في تخمينه؛ فالمرأة العجوز تلك كانت تُدعى «مِس جاكلين» وهي المرأة التي سأقيم عندها طوال فترة دراستي، وقد زودها مكتب السفريات في وقت سابق بكامل تفاصيل الرحلة؛ لذلك جاءت لاستقبالي.

***

في صباح اليوم التالي اصطحبتني مِس جاكلين عبر الحافلة لتدُلني على طريق الذهاب للمعهد؛ حتى أُصبح قادرًا في الأيام القادمة على الذهاب إليه دون مساعدة من أحد..

كان معاذ في انتظاري عند البوابة ليأخذني لإدارة المعهد ويُساعدني في إنهاء إجراءات مباشرة الدراسة، وما أن انتهينا من ذلك حتى اقترح عليّ مرافقته لأحد المقاهي الريفية القريبة.. ثم ولأنّه لم يكن لديّ شيء لأفعله طيلة اليوم الأول فقد وافقتُ على الذهاب معه..

***

كان مقهًى ريفيًّا حميم ذا سقوف عالية وأثاث خشبي عتيق، وشبابيك بيضاء طويلة تنسدل عليها ستائر من الدانتيل الخفيف، وكانت تفوح في أرجائه رائحة الخبز الطازج والكعك اللذيذ، وحبات القهوة المطحونة لتوها..

خلف مَصطبة الكاشير كان ثمّة فتاة نحيلة ذات شعر طويل تُدير لنا ظهرها بينما هي تقف أمام مجلى الغسيل، مُنشغلة في غسل بعض الأكواب والصحون..

قال لها معاذ بالإنجليزية:

- صباح الخير غيمة..

كان منظر تلك الفتاة وهي تلتفت إلينا وتبتسم كفيل بأن يُلقي القبض على دهشتي؛ فقد كانت جميلة للحد الذي يعتقد من يراها لأول مرة أنّ جمالها ذاك ليس حقيقيًّا.

أجابت بلغة عربية:

- أهلًا.. صباح الخير معاذ، أرى أنّ معك صديقًا..

- إنّه أحمد.. الذي أخبرتك عنه البارحة

- حقًّا؟! - قالت بدهشة - دعني أجفف يديّ وآتِ إليكما

همستُ لمعاذ قائلًا:

- ماذا قلت لها عني يا ذا اللسان الطويل؟

- لا شيء فقط قصة كلمة «يس» تلك التي كنت تكررها كالمعاتبه لسائق التاكسي أمام بوابة المطار في واشنطن..

- وهل تجد تلك القصة مضحكة لتقولها؟!

- أووووه جدًّا، لقد أخبرت بها أيضًا كل طلاب المعهد، وتخيل ماذا؟!.. لم أخبر بها أحدًا إلا وكاد أن يموت من الضحك!!

قلتُ مستدركًا:

- آآه لذلك كنتُ اليوم كُلما مضيتُ بجوار مجموعة من الطلاب الأجانب سمعتهم يختلسون النظر نحوي، ويرددون كلمة «يس» بشكل مبالغ فيه ويضحكون!!

في تلك اللحظة جاءت غيمة وصافحت معاذ، ثم مدت يدها نحوي وقالت بابتسامة:

- أنا أُدعى غيمة.

لم أصافحها وبقيت يدها معلقة في الهواء.. فلكزني معاذ:

- ما بك؟.. إنها تمد لك يدها، صافحها!!

قلت له هامسًا: لقد أخبرتك بأني لا أصافح النساء.. كان يجدر بك أن تخبرها بهذه المعلومة عنّي بدلًا من حادثة التاكسي أيها الظريف المتحذلق!!

أخفضت غيمة يدها والابتسامة لا تزال مُعلقة بوجهها:

- ما بكما؟.. بماذا تتهامسان؟!

قال معاذ ملتمسًا لي العذر:

- أعتذر إليكِ أن صديقي يده مُتسخة

- لا - قلتُ معترضًا - يدي ليست متسخة..

كنت سأخبرها بالأمر، ولكن معاذ أوقفني هامسًا:

- لا تخبرها بالسبب حتى لا تعتقد بأنك أحمق..

غير أنّي ضاربًا بنصيحته عرض الحائط قلت: كُل ما في الأمر أنّي أُحب فتاة وهي لن تكون سعيدة إن عرفت أنّي صافحت يد فتاة أخرى..

هتفت غيمة مبتهجة: ما أنبله من عذر.. لو كنتُ أحبُّ أحدًا لتمنيت منه أن يتصرف تمامًا بمثل هذه الطريقة..

متسائلًا قال معاذ: حقًّا؟!.. ألا تجدينه عذرًا تافهًا؟

- هل تمزح؟!.. لو كنت أحب أحدًا، فلربما كنت سأقوم بحبسه داخل قنينة عطرٍ صغيرة أُخبئها داخل حقيبة يدي، فلا يراه أحد غيري.

قالت غيمة ذلك ثم التفتت نحوي وسألت: ما اسمها؟

- سارة

أمسكت غيمة ملعقة حديد وكأسًا زجاجية، ثم اعتلت برشاقة فوق إحدى طاولات المقهى، وقرعت الملعقة في الكأس مُحدثة بذلك صوتًا يُشبه رنين جرس.. حدق زبائن المقهى إليها فقالت:

- انتباه لو سمحتم.. سنحتفل هذا الصباح بنخب حُب أحمد وسارة، والإفطار اليوم سيكون مجانًا بهذه المناسبة..

ابتهج الزبائن لذلك الخبر ورفعوا بأيديهم الكؤوس وهتفوا بصوت واحد: «نخب أحمد وسارة».. ثم انبعثت موسيقى هادئة من مكبرات الصوت وبدأ الاحتفال..قالت غيمة لنا وهي تهبط من فوق الطاولة:

- اختارا لكما طاولة، وأنا سأجري بعض التعديلات على الفواتير.. وآتي للانضمام إليكما.

اخترنا طاولة صغيرة دائرية بجوار النافذة جلسنا حولها متقابلين، ثم وبعد قليل من الوقت سألت معاذ غير قادر على كبح فضولي أكثر:

- من تكون هذه الفتاة المجنونة؟

- إنها رائعة أليس كذلك؟!.. إنها في بداية العشرين من عمرها.. تدرس الكيمياء في جامعة كاليفورنيا.. اسمها غيمة.. وهي من عائلة سعودية الأصل، ولكنّهم مُستقرون في أمريكا منذ زمن بعيد.. إنها أروع فتاة قد تقابلها هُنا في أمريكا.

- يبدو أنك معجب بها.

- جدًّا، وكم أتمنى لو أنّي أستطيع التقرّب منها.. فهي ليست جميلة وحسب بل هي ثرية أيضًا؛ فوالدها كان من أشهر المحامين في أمريكا، ولديهم الكثير من الأنشطة التجارية هُنا.. ويعتبر هذا المقهى أحد أملاكهم الخاصة..

- معاذ أنت تُثير اشمئزازي..

- لماذا؟!

- ألست خاطبًا؟!

- شششش، انتبه أن تفتح هذا الموضوع أمامها!!

همستُ له قائلًا: ماذا سوف تستفيد لو أنّك تقرّبت منها.. فأنت مرتبط بقريبتك، وعلاقتك مع هذه الفتاة لا هدف لها..

اعتدل في جلسته وقال:

- أنت تُعطي الأشياء أكبر من حجمها.. أنا فقط أُريد أن أحظى ببعض المرح معها ليس أكثر.. انظر إليها إنها مُمتلئة بالحياة..

جعلت أختلسُ النظر نحو غيمة وهي تقف خلف مَصطبة الكاشير تراجع أوراق الفواتير التي بيدها.. كانت لديها جاذبية مُفرطة في القوة للحد الذي لو أسقط فيه أحدهم كوبًا أو صحنًا أو ملعقة فإنها لن ترتطم بالأرض بل ستنجذب إليها متأثرة بالقوة الهائلة لجاذبيتها..

قال معاذ قاطعًا تأملاتي:

- ولكن مُشكلتها الوحيدة أنّها ذكية.

متعجبًا من تلك الملاحظة قلت:

- ومنذ متى كان الذكاء مشكلة؟

- إنّ الرجل عادة لا يُحب المرأة الذكية..

- ولماذا؟!

- لكي يستطيع الكذب عليها دون أن تكشفه..

ابتسمتُ لصراحته المُطلقة تلك وعدتُ أختلس النظر لـ غيمة التي كانت قد تركت من يدها الفواتير وذهبت تخدم زبائن المحل بنفس رضِيّة، فتضحك وترقص وتلعب معهم كفراشة اكتشفت لتوها بستان توليب..

لقد كانت فتاة مُمتلئة بالحياة للحد الذي كان يكفيها فقط أن تلمس شيئًا جامدًا بيدها لتجعله حيًّا، وكان النور الذي يبعثه وجودها في المكان أشد بريقًا من أشعة الشمس العابرة من نوافذ المقهى المشرّعة..

كانت تُشبه أميرات ديزني: تملك ملامح وجه بريئة وأنف مُستقيم كما الحق، وشعر أسود طويل يُشرق الليل من تحته، ولديها عينان واسعتان بدت أنهما تُخفيان الكثير من الأسرار، والغريب في أمرها هو أنّها كانت تملك ابتسامة تشبه عدوى شديدة الانتقال؛ فما أن يُشاهد أحد ابتسامتها تلك حتى يجد نفسه مُصابًا برغبة في التبَسُّم..

حاولت أكثر من مرة أن أنتزع بصري عنها، ولكنها كانت من ذلك النوع الذي لا تستطيع انتزاع بصرك عنه حين تراه، لذلك ما كان أمامي طريق للخلاص إلا أن أنهض من مكاني وأسير مبتعدًا..

- إلى أين أنت ذاهب - سأل معاذ.

- إلى المنزل - قلتُ ذلك ثم اتجهت نحو باب المقهى.

3

وهكذا أسبوعًا بعد أسبوع وشهرًا يلي الشهر.. بدأت التأقلم على الحياة هُناك: أستيقظ صباحًا وأذهب بالحافلة للمعهد، وما أن ينتهي اليوم الدراسي حتى أعود للمنزل من أجل إنهاء واجباتي واستذكار ما أخذته من الدروس..

وكنتُ أبذل جهدًا مضاعفًا لكسب ثقة المعلمين والمعلمات، وأحاول الاكتفاء بمصادقة الأجانب من الطلاب والابتعاد قدر المُستطاع عن الطلاب العرب؛ معتقدًا أن هذا الأمر من شأنه مساعدتي على اكتساب اللغة الإنجليزية بشكل أسرع..

وكنت أخصص عطلة نهاية الأسبوع للقراءة والكتابة، أما صديقي معاذ فقد كان يحاول دائمًا إقناعي بالذهاب معه ومع أصدقائه للتسكع في شوارع ومقاهي سانديبغو.. ولكنّي كنت أرفض كل طلباته بشدة تحت ذريعة أنّي لا أملك وقتًا لذلك.. مما دعاه ذات مرة لأن يقول متضجرًا:

- أنت لا تزال صغيرًا يا صديقي، استمتع بحياتك

- إذا كنتُ صديقك فعلًا، فقف لجانبي لا ضدي

- أنا لا أقف ضدك، كل ما أُريده هو إعطاؤك بعض المرح

- إنّ دُروبنا مختلفة يا معاذ..

- لماذا مختلفة؟.. إلى أين أنت ذاهب؟

أجبتُ بصوت مهموم:

- إلى الانتهاء من تعلم الإنجليزية في المعهد ثم التقدم لاختبار «التوفل» واحراز النقاط التي أحتاجها فيه؛ كي أستطيع الالتحاق بالجامعة.. أُريد أن أُنهي الدراسة بأسرع وقت، وأعود لأتزوج سارة كما وعدتها..

- لماذا أشعر بأنّ صوتك مختنق؟

- لا تشغل بالك، لا شيء..

- هيي - قال وهو يلكز كتفي - انظر إنه أنا.. صحيح أنّي لا أعرفك منذ سنين، ولكنّ ثلاثة أشهر كافية لأن أعرفك فيها بشكل جيد.. أخبرني ما بك؟!

- مشتاق هذا كل ما فيّ..

- لمن؟!

- لكُل شيء في جدة.. إلى أبي وأمي.. ومنزلنا - ثم أردفتُ بابتسامة حزينة: وإلى الطقس الحار والرطوبة والإشارات المكتظة بأبواق سيارات غاضبة..

قال معاذ مشاركًا وهو يبتسم:

- نعم.. وإلى التحويلات المنتشرة في كل شارع، والحُفر والمطبات المباغتة التي تجعل السيارات تتقافز أمامك كما لو أنّك داخل لعبة فيديو..

قُلت بشجن:

- وإليها أيضًا..

- أنت مصاب بالشوق إذًا؟!

- أكثر مما تتخيل..

- تحدث معها، سيكون صوتها قادرًا على شفائك.

- ليتني أستطيع..

- ما الذي يمنعك؟

- الظروف - ثم قلت شارحًا: نحن عائلة متشددة، ووالدتها لن تسمح لها بامتلاك هاتف إلا بعد أن تتخرج من الجامعة.

- اطلب من والدتك أن تمرر لها الهاتف وتحدث معها..

- ما بك يا معاذ هل أنستك الغربة عاداتنا وتقاليدنا؟!.. صحيح أنّ أمي تعرف بشأن حبي لها.. لكنها لن توافق على هذا الأمر.

فكر معاذ قليلًا ثم قال:

- حسنًا اطلب من والدتك على الأقل أن تنقل إليك أخبارها.. لا أظن أنّ في هذا الأمر عيبًا.. إنها ابنة خالتك وأنت تُريد الاطمئنان عليها فقط.

وجدت في كلامه بصيص نور:

- أتعلم؟!.. سأحادث أمي وأسألها عنها..

نهض معاذ من مكانه وهو يقول:

- حسنًا سأدعك الآن لتُجري اتصالك، أما أنا فإني سأذهب للمقهى عند غيمة - ثم أضاف غامزًا قبل أن يغادر: تمنَّ لي حظًّا موفقًا؛ فالليلة سأحاول دعوتها للخروج معي في أول موعد غراميّ.

***

بعد أن غادر معاذ، فتحت جهاز اللابتوب وأجريت مكالمة فيديو مع والدتي عن طريق برنامج الـ «Skype» تبادلنا التحايا أولًا، وحين سألتني عن أخباري قلت لها كاذبًا إنّي بخير.. ثم سألتُها بشكل مباشر ودون مقدمات:

- أمي كيف حال سارة؟

تغير لون وجهها ولم تقل شيئًا، فسألتها:

- ما بك يا أمي، هل سارة بخير؟

- نعم إنّها.. - ثم صمتت مرة ثانية.

- إنها ماذا؟

وعلى حين غفلة طفحت عيناها بالدموع وبكت؛ فعرفت أنّ هناك شيئًا سيئًا قد وقع، أو أنه على وشك الوقوع:

- تكلمي ما بها سارة؟!.. هل أصابها مكروه؟!

لم تُجب أيضًا.. فأمسكتُ شاشة اللابتوب وهززتُها بقوة كما لو أنّي بتلك الطريقة كنت أحاول استنطاق أمي:

- لماذا تبكين؟! تكلمي!!

قالت:

- **هُناك من تقدم لخطبة سارة، وأبوك موافق.**

شعرت لحظتها بأنّ سهمًا اخترق قلبي:

- وأنا؟!

- أبوك يقول بأنه ما زال أمامك وقت طويل لتُنهي دراستك وتعود.

- وسارة.. ماذا قالت.. ماذا كان رأيها؟!!!!

باعدت أمي بين شفتيها لتقول شيئًا ولكنها غصّت بدموعها، وقررت قطع الاتصال بوجهي وكأنه لم يعد بوسعها رؤية ابنها يتألم دون أن تكون قادرة على تخفيف الوجع عن روحه..

أما أنا فإنّي خرجت كالعاصفة من غرفتي أركض في الشوارع حافي القدمين بفجيعة شيخ عجوز عاد ذات مرة لبيته فوجد أبناءه التسعة كُلهم مُعلقين بحبال من أعناقهم في عمود السقيفة..

واصلتُ الركض متجهًا لمقاعد انتظار الحافلات القريبة من مكان إقامتي للحاق بمعاذ، وحين وصلتُ إلى هُناك لم أجده.. أخرجتُ هاتفي النقال وطلبت رقمه..

جاء صوت معاذ متدفقًا من السماعة بعد قليل:

- هاه، هل نجحت الخطة؟

- معاذ أين أنت؟!!!

- ما بك.. لماذا تصرخ؟!

- لا شيء.. فقط أين أنت؟؟

- أخبرني ما بك يا أحمد..

- سأخبرك حين أراك، فقط أخبرني أين أنت؟!!

- في المقهى المُلاصق لمعهدنا..

- ابقَ مكانك، سأستقل الحافلة وآتي إليك..

***

ما أنْ وصلت الحافلة للمحطة القريبة من المعهد وفُتح بابها حتى قفزتُ للشارع وجعلتُ أركض بكل سرعتي نحو المقهى الريفيّ غير مبالٍ لا بالدموع التي كانت تحجب عن عينّي الرؤية، ولا بالأرصفة الغارقة بالظلام والمطر، ولا بحبات الحصى الصغيرة المُسننة التي كنتُ أطؤها بقدمَيّ الحافيتين وأنا أركض..

فتحت باب المقهى بقوة كانت كفيلة بجذب أنظار الزبائن نحوي، ثم ودون اكتراث بنظراتهم تلك دخلت أمشي فوق البلاط النظيف بملابس تقطر من أعطافها حبات المطر، وقدمين غارقتين بالوحل والدم.. هرع معاذ نحوي من فوق طاولته، قال مفجوعًا: ما الذي حدث؟

لم أتكلم ورميت بثقل جسدي عليه، فأمسكني بصعوبة قبل أن أسقط:

- هل حلّ مكروه بأحد أفراد عائلتك؟!

- بل بقلبي..

- تعال اجلس، وأخبرني..

ولكننّا وقبل أن نتحرك اعترض أحد عمال المقهى طريقنا، وقال موجهًا الحديث لمعاذ:

- سيدي، يجب على صديقك هذا أن يغادر المكان..

- لماذا يُغادر؟

- انظر للبلاط وستعرف - قال العامل وهو يشير بيده لطبعات أقدام طينية فوق بلاط المقهى وإلى بركة وحل صغيرة تكوّنت تحتي ثم أضاف: كما أنّ منظره يُخيف الزبائن، لذلك يجب أن يُغادر الآن..

قال معاذ مُهددًا:

- إذا كان صديقي سيغادر، فسوف أغادر معه.

- لا بأس هذا أفضل، فأنت أيضًا تُخيف زبونات المقهى بنظراتك الطويلة إليهن..

كان معاذ يتأهب للرد عليه ولكنّي همستُ مقاطعًا:

- أرجوك دعنا نغادر بدون مشاكل.

هز معاذ رأسه موافقًا، ثم همّ بمساعدتي للخروج من هناك، ولكننا وقبل أن نتقدم خطوة واحدة، شق المكان صوت أنثوي:

- لن يُغادر أحد منكما.

وحين التفتنا وجدناها غيمة.. تقدمت إلينا وقد كانت ترتدي فستانًا بنفسجيّ اللون يصل لحد ركبتها، طلبت من العامل أن يعتذر منا ففعل دون أن يُجادلها في الأمر، ثم طلبت منّا أن نبقى ولكن معاذ قال لها:

- إنّ العامل معه حق، فقد أحدثنا بعض الدمار في المكـ..

- لن تغادرا المقهى، وإلا فسأشعر بالحزن.

قال معاذ مستسلمًا وهو ينظر نحوي:

- سنبقى إذًا، فيكفينا هنا واحد حزين.

ولأنّه لا شيء أكثر وجعًا للرجل من أن يُظهر ضعفه أمام الغرباء، فإنّي همستُ في أُذنه قائلًا:

- أسندني، لا أستطيع المشي قدمايَ تؤلمانني.

قام معاذ بإسنادي ولكنّه حين حاول أن يخطو بي نحو الطاولة، اكتشف أنّي كنتُ أثقل من أن يستطيع فعل ذلك وحده، فقامت غيمة التي انتبهت للأمر بإسنادي من الجهة الأخرى غير مُكترثة بملابسي المُبتلّة والتي بالتأكيد كانت ستُفسد أناقة ملابسها..

عندما أوصلاني للطاولة، لم تحاول غيمة تجفيف ملابسها أمامي؛ كي لا تُشعرني بالذنب، وكل ما فعلته هو أن قالت بلطف قبل أن تنصرف:

- سأحضر لك كوبًا من الحليب الساخن، يضمن لك بقاءك دافئًا..

مال معاذ نحوي متسائلًا بعد أن ذهبت غيمة:

- ما الذي حدث معك؟

رغم حاجتي الشديدة للكلام إلا أنّي التزمتُ الصمت، خفت من أن أقول شيئًا فأبكي؛ أنا الذي كان الكبرياء يمنعني من البكاء أمام صورتي المنعكسة على المرآة، لن أحتمل فكرة أن أبكي أمام أحد حتى لو أنّه كان صديقي..

عادت غيمة بعد قليل تُمسك بيدها كوبًا تفوح منه رائحة حليب طازج ممتزجة برائحة زنجبيل خفيفة.. وضعت الكوب على الطاولة والتفتت نحو معاذ تسأله:

- ألا تعلم ما به؟

- لا، إنّه يرفض الحديث..

قالت متفهمة:

- لا بأس؛ فقد تكون الفاجعة التي يمر بها تفوق قدرته على الكلام، دعنا نُمهله بعض الوقت حتى يستجمع قوته

ثم نظرت باتجاهي وقالت بلطف:

- متى ما شعرت بأنّك مستعد للكلام سوف نسمعك.

***

مضى وقت طويل لم أنبس فيه بكلمة واحدة، الأمر الذي دفع غيمة لأن تنهض من الطاولة وتذهب لبعض أشغالها..

نظر معاذ نحوي:

- أما مللت الصمت، تكلم ليهدأ ضجيج قلبك.

- من الأفضل أن نصمت عندما نُدرك بأنّ الكلام لن يُفيد.

-أحيانًا يكون الكلام الذي لا نبوح به أشبه بالقنبلة، إما أن نُبطل مفعولها بالثرثرة وإما أن تنفجر في صدورنا؛ لذلك تكلم.

- وأحيانًا البوح بالكلام، يكون أشبه بالسير فوق أرض تقصفها الصواريخ والقنابل؛ لهذا لا أريد أن أتكلم.

قلت ذلك ثم طلبتُ منه أن يأخذني للمنزل ولكننا قبل أن ننهض ونبتعد من هُناك، كانت كهرباء المقهى الريفيّ قد أُطفئت فجأة.. وظهرت غيمة بعد قليل معتذرة لزبائن المحل:

- يبدو أنّ هُناك عطلًا أصاب المولد الكهربائي، عمومًا سيقوم الموظفون بتوزيع الشموع على الطاولات، وسوف نفتح النوافذ من أجل الهواء، وستكون ليلة مميزة.

لم يتسبب انقطاع التيار في مغادرة أحد من زبائن المقهى؛ ذلك أنّ النسيم في تلك الليلة كان باردًا ومُترعًا برائحة المطر، وغدا المكان أكثر سحرًا وجاذبية وذلك بعد أن أصبح مُضاءً بواسطة ألهبة الشموع الخافتة المتراقصة..

اقتربت غيمة من طاولتنا، ثم قالت وهي تنظر نحوي:

- لقد قمتُ بإطفاء الكهرباء من أجلك، تكلم الآن..

مذهولًا تساءل معاذ:

- هل فصلتِ تيار الكهرباء عمدًا عن المقهى؟!

- نعم؛ فيبدو أنّ أحمد كان صامتًا طوال الوقت؛ حتى لا يتكلم فيبكي ويراه الناس.. لقد أطفأتُ الكهرباء من أجله، كي يتحدث دون خوف من أن يرى أحدٌ دموعه - ثم التفتت نحوي وقالت: تكلم فلا شيء أكثر من الكلام للأصدقاء باستطاعته مُساعدة جُروحنا على الشفاء.

باعدت بين شفتَيَّ وقلت: سارة..

سأل معاذ: ما بها، مريضة؟

- لا، هُناك من تقدم لخطبتها.. وأبي موافق.

صمت معاذ لا يعرف ماذا يقول، فتكلمت غيمة قائلة:

- هي تُبادلك الحُب أليس كذلك؟

هززت رأسي وأنا أنظر إليها، فقالت:

- إذًا لن توافق عليه

- هل تعتقدين؟

- حين تقول لك فتاة بأنّها تحبك ثق بأنّها لن تخذلك..

قلت خائفًا: ولكن ربما يجبرونها على الزواج؟!

- اطمئن لا توجد قوة قد تجبر فتاة على الزواج من شخص لا تحبه - ثم أردفت قائلة: ولكن يجب أن تكون معها في هذه اللحظة، يجب أن تسافر لها وتساندها، فلا بد من أنّها الآن في حاجة إليك..

بتردد قلت: ولكن أبي لن يرضى أن أُسافر..

- ليس مهمًّا أن يرضى..

كان مصروفي هُناك بالكاد يكفي حاجتي اليومية:

- ومن سيبتاع لي تذكرة الطائرة؟ إنها مُكلفة وأنا لا أمتلك ثمنها.

تدخل معاذ: لا عليك سنفكر بطريقة.

قالت غيمة مُقترحة: سنجمع لك تبرعات من طلاب المعهد

مُلتفتًا إليها: هل تطلبين مني أن أتسول منهم؟

- لا - قالت - أنا سأتسول بدلًا عنك..

- ما هذا الكلام؟.. أنا غير موافق!!

قالت: يجب أن تحارب كالرجال لتربح قضيتك، حتى لا تقضي بقية حياتك تبكي كالنساء على خسارتها..

مؤيدًا قال معاذ: معها حق، أنا أضم صوتي لصوتها..

- هذا جنون، فلن ننال قرشًا واحدًا من طلاب المعهد.

أكدت غيمة: ثق بنا، سنبتاع لك التذكرة.

لم أكن واثقًا بتلك الخطة ولكنّي لم أكن أملك حلًّا آخر، بقيتُ صامتًا لمدة طويلة والقلق ينهش أطرافي، وأفكار تأخذني وأخرى تقذفني للبعيد، حتى تكلم معاذ مواسيًا:

- إنّي أشعر بخيبة أملك يا أحمد، فقد مررت ذات مرة بتجربة مماثلة، وأفهم مدى صعوبة ما تشعر به الآن..

التفتُّ إليه متسائلًا: لم تخبرني من قبل بهذا الأمر..

قال معاذ: كنت أحاول أن أنسى..

تعلّقت أبصارنا به في محاولة لحثه على الكلام، فقال يحكي قصته:

- لقد كان هذا منذ زمن بعيد.. تعرفت عليها في أحد المُنتديات الكتابية، وأحببتها لمدة ثلاثة أعوام.. صحيح أنّي لم أرها أبدًا ولكنّي كنت أحلم بها طوال الوقت، لقد كنّا مناسبيْن لبعضنا، وفكرت بأنّها ستكون المرأة المثالية التي أُكمل معها بقية عمري، فحدثت عائلتي بشأنها وأخبرتهم بأنّي أريد الاقتران بها.. وطبعًا رفضوا في البداية لكنني حاربت الجميع من أجلها حتى اضطروا أخيرًا للموافقة.. ولكن حين اتصلت عليها لأخبرها بالأمر وأحسّت هي بمدى جديتي تجاه علاقتنا.. اعترفت لي بأنّها..

تساءلت غيمة حين توقف معاذ عن الحديث فجأة:

- اعترفت لك بأنها ماذا؟!

- بأنها ولد..

صمتنا أنا وغيمة قليلًا نحدق ببعضنا قبل أن ننفجر بالضحك على حكاية معاذ.. ثم توالت بعد ذلك القصص المُضحكة تباعًا، وقد نجح الاثنان في انتشالي ولو قليلًا من وحل الكآبة الذي كنت غارقًا فيه، وأنساني الحزن لبعض الوقت.

في الحقيقة اكتشفت في تلك الليلة أنّه من الأفضل دائمًا التفتيش عن الأصدقاء قبل التورط في أيّ علاقة حُب، فلا أحد غير الأصدقاء باستطاعته التخفيف عنا حين يُهدينا الحب صفعته الأولى..

***

في صباح اليوم التالي وبينما كان أغلب الطلبة يقضون فترة الاستراحة في منتصف باحة المعهد الخارجية المكشوفة، إذ ظهرت غيمة وقد كانت تعتمر فوق رأسها قبعة من الصوف بنفسجية اللون تاركة شعرها الطويل يتدلى فوق كتفها الأيمن كذيل حصان..

طلبت انتباه الجميع وحين أعطاها الطلاب انتباههم قالت تحدثهم بالإنجليزية:

- مرحبًا.. اسمي غيمة، وأظنّ أن أغلبكم يعرفني من خلال المقهى الريفيّ المجاور للمعهد.. لن أُطيل عليكم الحديث أعلم بأنكم تريدون قضاء وقت ممتع في فترة الاستراحة، لذلك اسمحوا لي بالدخول مباشرة في الموضوع.. صديقنا أحمد الواقف هُناك - قالت ذلك وهي تُشير بيدها نحوي - إنّه بحاجة لشراء تذكرة سفر من أجل إنقاذ حُب حياته..

صمتت قليلًا لتضمن أنّ الجملة التالية ستُلامس قلوبهم، بأكبر قدر ممكن.. ثم قالت مُستأنفة حديثها:

- دعونا نساعده في شراء التذكرة، دعونا نفعل شيئًا من أجل الحُب، علَّ الحب يعرف حينها كم نحن لطفاء؛ فيرفق بأحوالنا في قادم الأيام ولا يأخذ منا أحبَّتنَا، أو يمسهم بضر ولا سوء..

كان الكلام الذي قالته غيمة بسيط للغاية، ولكنّه حرَّكَ مشاعر الطلاب، فقالوا بصوت واحد وهُم ينظرون نحوي:

- **يييسسس!!!!**

نزعت غيمة من فوق رأسها قُبعة الصوف البنفسجية اللون ووضعتها عند قدميها، ثم أخرجت من جيبها أوراقًا نقدية دستها في تجويف القبعة وهتفت: «**من أجل الحُب!!**»

اقترب معاذ من بعدها ووضع بدوره أوراقًا نقدية داخل تجويف القبعة وهتف مرددًا: «**من أجل الحُب!!**».. قام بعد ذلك الجميع بالتدافع نحو القبعة ليضعوا في تجويفها ما تيسر لهم من المال، وهُم يصرخون تباعًا كما لو أنّ مسًّا من الجنون أصابهم: «**من أجل الحُب!**»

***

في ذلك اليوم لم ننتظر أنا ومعاذ انتهاء اليوم الدراسي، وذهبنا مسرعيْن نحو المقهى الريفيّ.. وما أنْ رأتنا غيمة حتى ركضت نحونا بحماس شديد تهتف وتلوح لنا بالمال في وجهينا:

- لقد فعلناها.. لقد نجحنا!!

4

بعد عدت أيام: استيقظتُ صباحًا، لملمتُ ما تبقى من الغيارات الضرورية ووضعتها داخل الحقيبة.. وحين قاربت الساعة الثانية ظهرًا اتصلتُ بوالدتي لأخبرها بأنني قادم، ولكنها لم تُجب فأرسلتُ لها رسالة نصية أُخطرها بقدومي.

بعد نصف ساعة من ذلك كان معاذ وغيمة ينتظرانني في سيارة الأجرة ليرافقاني نحو المطار.. وطوال الطريق كان الاثنان يحاولان طمأنتي وإخباري بأنّ كل شيء سيكون على ما يرام..

***

في المطار:

ذهبنا مباشرة نحو كاونتر الخطوط السعودية لقطع تذكرة الصعود للطائرة، وهُناك عانقت معاذ بشدة وهمستُ له في أُذنه بأنّي لن أنسى له صنيعه هذا.. فاستغل اقترابه مني وهمس لي قائلًا:

- للمسافر دعوة لا تُرد - ثم أضاف: وأنا لم أتمكن تلك الليلة من دعوة غيمة للخروج معي في موعد غرامِيّ بسببك، ولكنّي سأفعل الليلة، فلا تنسَ أن تدعو لي بالتوفيق طوال مدة رحلتك..

قلتُ متمتمًا وأنا أبتعد عنه:

- سأدعو الله أن يُعيد لك عقلك، فهذا أفضل!!

التفتُّ نحو غيمة بكثير من الامتنان، ومددتُ إليها يدي مصافحًا، فنظرت ليدي الممتدة بكثير من الدهشة وسألت:

- ألن تغضب منك سارة، لو عرفت أنك صافحت يد فتاة غريبة؟!

- أظن أنّها لن تغضب بعد أن أخبرها بما فعلتِه من أجلنا..

لفرط سعادتها لم تُصافحني بل فاجأتني بعناق مُباغت لم أتوقع حدوثه.. فقلت لها متجمدًا من فرط الحياء بينما كانت لا تزال تطوقني:

- ولكنّي أظن أنها سوف تقتلني لو عرفت بهذا الأمر!!

أفلتتني غيمة بعد أن انتبهت إلى أنّها تجاوزت حدها، ونظرت نحوي بشيء من الندم فهربنا للضحك؛ لنخرج من حياء الموقف..

ودعتهما بعد ذلك ثم أتجهتُ نحو بوابة السفر.. ولكننا ما كدنا أن نفترق بقليل حتى جاءني ذلك الاتصال الذي كان من شأنه أن يقلب كل الموازين رأسًا على عقب..

***

فما أنِ اقتربتُ من نقطة تفتيش المطار حتى سمعتُ هاتفي يرن.. أخرجتُ الهاتف من جيبي وإذ بالمتصل أمي.. أجبتها على عجل قائلًا:

- أمي سأعاود الاتصال بكِ بعد أن أجتاز نقطة التفتيش

- إنّها موافقة يا أحمد..

- من الموافقة؟!

- سارة، إنها موافقة على العريس الذي تقدم لخطبتها.

صمتُّ قليلًا ثم قلت غير مصدق:

- لن تنجح هذه الكذبة في منعي من السفر يا أمي.

فقالت ونبرة البكاء تتسلق حبالها الصوتية كعريشة عنب:

- أنا لا أكذب.. إنها موافقة..

لقد كنت أُحسن الظن بقلبها للحد الذي لا يجعلني أُصدق خبرًا مثل ذاك الخبر بسهولة:

- مستحيل، لا بد بأنكم ضغطتم عليها، لا بد أنكم أجبرتموها على الموافقة، فهيَ لن تفضل عليّ أحدًا مهما كان..

- لم يُجبرها أحد يا ولدي

- أنتِ تكذبين!!

قالت أمي التي لا تحلف بالله كذبًا:

- والله لا أكذب عليك.. والله لا أكذب.. لقد وافقت سارة دون أن يُجبرها أحد.. إنها تقول بأنّ مستقبلك غير مضمون، وبأنّها ليست مستعدة لأن تغامر بحياتها ومستقبلها معك.

قلت بصوت يرتجف لشدة الخوف:

- أنتِ لا تعلمين كم يقتلني كلامكِ هذا.. أتوسل إليكِ إن كان ما تقولينه كذبًا فتوقفي عن الكذب.. وإن كان حقيقة فاكذبي عليّ وقولي بأنّها لم توافق..

صمتت أمي قليلًا، لقد كان في صدرها كلام ولكنها لا تدري أتطلقه أم تُبقيه حبيسًا هُناك، قالت بعد تردد:

- هذا ليس كل شيء، يجب أن تعرف الحقيقة كاملة..

قلت معاندًا ولم أُدرك ما أنا بصدد سماعه بعد قليل:

- الحقيقة هي أنّي سآتي وسأمنع حدوث هذه الزيجة..

- لا تستطيع منعها..

- ولماذا لا أستطيع؟!

قالت كمن يضغط الزناد ويُطلق النار:

- لأنّ البارحة قد تم عقد قِران سارة وانتهى الأمر.. إنّها الآن فتاة متزوجة بالشرع والقانون..

ما أن عرفتُ ذلك حتى سقط الهاتف تلقائيًا من يدي، وبقت أمي تتكلم بلهفة وخوف عليّ، ورغم ضوضاء صالة المطار إلا أنّي كنت أستطيع سماع صوتها المُتدفق عبر سماعة الهاتف المُلقى أرضًا، قالت لا تحزن يا قلب أمك، أكمل دراستك هناك وانسَها للأبد، ثم دعت لي بأن يصرف الله عني كُل شر ويسخر لي كُل خير..

وكان ذلك الدعاء هو آخر ما سمعته منها، قبل أن تبدأ الأصوات والأشياء بالدوران داخل عقلي بشكل مجنون، وأفقد السيطرة على توازني وأسقط متمددًا بجوار هاتفي..

5

أمام بوابة الخروج لمطار ساندييغو: أوقف معاذ سيارة أجرة، وفتح الباب الخلفي، ثم انحنى بحركة درامية وقال يدعو غيمة للدخول: «النساء أولًا».. ابتسمت غيمة للطافته ثم لمّت فستانها القصير بيدها ودلفت لداخل السيارة..

كان معاذ مسبقًا قد فكر بالكلمات التي سوف يدعو بها غيمة للخروج معه في أول موعد غرامي بينهما، ولم يتبقَّ عليه فقط إلا أن يفتح فمه ويبدأ خطابه..

ولكن قبل أن يبدأ خطابه، وقبل أن تبتعد سيارة الأجرة من هناك كثيرًا، لمحت غيمة من خلال المرآة المتدلية من السقف، سيارة إسعاف تتوقف عند بوابة المطار، فهتفت كما لو أنّ قلبها أنبأها بالأمر:

- أحمد في خطر..

انزعج معاذ من قلقها الزائد عليّ، أو ربما شعر بالغيرة:

- لماذا تعتقدين ذلك؟!

- قلبي يُخبرني - ثم قالت للسائق: توقف لو سمحت.

- آسف يا سيدتي لا يُسمح لي بإنزال الركاب في هذه المنطقة، سوف أُنزلكِ خارج المطار لو أردتِ.

التفتت غيمة تنظر من خلال الزجاج الخلفيّ لسيارة الأجرة وحين تحققت من أنه ليس ثمّة سيارة أُخرى تسير خلفهم، فإنها قامت بكل قوتها بشد مكابح اليد مما جعل سيارة الأجرة تتوقف في منتصف الطريق، ثم فتحت الباب وراحت تركض نحو المطار.. فلم يكن أمام معاذ إلا أن يفتح بابه ويهرول خلفها ضجرًا..

***

عندما وصلت غيمة ومعاذ للنقطة التي كانا قد تركاني فيها وجدا سياجًا دائريًا تم نصبه حديثًا، يلتفّ حوله مجموعة من الناس المُشرئبة أعناقهم بفضول، حين اقتربا من هُناك أكثر شاهداني وقد كنت فاقدًا للوعي وممددًا فوق سرير طبي متنقل، سأل معاذ أحد رجال الإسعاف:

- لقد تركناه قبل قليل وقد كان بخير، ما الذي حدث له؟

- لا نعلم، ولكن ضغط الدم لديه مرتفع جدًا، ربما يكون قد تعرض لصدمة عصبية أفقدته وعيه.

نقلوني بعد ذلك نحو سيارة الإسعاف، وقد سمحوا لغيمة ومعاذ بالصعود لداخل الكبينة ومرافقتي حتى المشفى.

***

عند الساعة التاسعة ليلًا:

فتحت عينَيّ، ووجدت نفسي وحيدًا داخل غرفة باردة في أحد المستشفيات وثمة أسلاك كهربائية وأنبوب للتغذية موصول بذراعي.. ثم ومن غير أن أنتبه جاء صوت لطيف من أقصى اليسار يقول:

- أأنت بخير؟!

التفتُّ نحو مصدر الصوت فوجدتها غيمة وقد بدا أنّها كانت طيلة الوقت تمكث إلى جانبي، سألتُها:

- لماذا أنتِ هُنا؟

- لأنّك هُنا.

- وأين معاذ؟!

- كان يُريد البقاء معي إلى جانبك، ولكن إدارة المشفى أخطرتنا بأنه يجب على واحد منّا فقط أن يبقى مرافقًا لك، ثم ولأنّ معاذ لديه معهد غدًا صباحًا فقد طلبتُ منه أن يذهب..

- لماذا تتعبين نفسكِ معي؟!

- لأنّي أنتمي لحزب أولئك الذين لا يتخلون عن أصدقائهم - ثم سألت بتوجس: ألستُ صديقتك؟!

كان لا يزال بداخلي ولاء كامل لسارة يمنعني من الاعتراف بغيمة صديقة لي؛ لذلك صمت ولم أجاوب، فقالت لتُخرج نفسها من الحرج:

- ما الذي حدث لك في المطار بعد أن غادرنا؟!

أخذتُ نفسًا عميقًا وقلت:

- لقد طُعنت في ظهري ممن كنتُ أظنّ بأنّه أشد الحلفاء ولاءً

- إذًا سارة موافقة على الزواج من الشاب الذي تقدم لها؟

- بل وأصبحت زوجته - ثم تذكرت الحديث الأخير الذي جمعني معها أمام نافذة غرفتها وهمست أُكلم نفسي قائلًا: الآن فقط فهمت ماذا كانت تعني بكلامها ذاك..

صمتُّ قليلًا لأتمكن من كبح رغبة جامحة في البكاء، وعرفت حينها أن لا شيء يُشبه وجع معرفتك بأنّ هُناك من كان يُغافلك، في الوقت الذي كنت أنت مستعدًّا فيه لأن تُكذّب عينيك وسمعك وكل حواسك من أجله..

اقتربت غيمة مني وهمست بحنو:

- لماذا سكت؟!.. أكمل..

- لا أريد، أرجوكِ دعينا ننتقل لموضوع آخر.

فقالت بوجه جاد:

- إن كانت الظُّلمة هي ما ستدفعك للكلام، فسأقطع من أجلك تيار كهرباء المشفى..

لم أكن في مزاج جيد ولكنّي ابتسمت للطافتها، فقالت:

- أنا لا أمزح سأفعل ذلك من أجلك.. ولكنّك ستتحمل وحدك ذنب كُل أولئك المرضى الذين سيلقون حتفهم بسبب انقطاع التيار

باعدتُ بين شفتيّ وقلت:

- لقد طلبتُ منها أن تُعطيني وعدًا بالانتظار ريثما أُنهي دراستي وأعود.. لكنها قالت: «لا تورطني مع الزمان أرجوك، نحن لا نعرف ما الذي تُخبئه الأقدار لنا».. كنت أشعر بأنّ ثمّة أمرًا سيئًا يُحاك في الخفاء، ولكنـ..

- ولكنك آمنت بكلامها وسافرت؟

- نعم؛ لقد أخذتُ منها وعدًا؛ لذلك كذَّبْت شعوري وآمنت بها
- كان من المفترض أن لا تُكذّب شعورك..
- ولكنّ الحُب يا غيمة، الحُب يعني الإيمان الكامل بالآخر..
- ولكنّ الإيمان الكامل لا يعني أن تُغمض عينيك وتذهب إلى حيث يقودك قلبك، كان يجدر بك أن تُعير شعورك انتباهًا، أن تُصغي لصوت عقلك عندما يقول لك بأنّه ليس مُطمئنًا لما يحدث..
- ما كنت لأكذب عليها، لذلك ظننت أنّها لن تكذب عليّ.

- أتعلم ما هي مشكلة الصادقين؟!.. مشكلتهم هي أنهم يعتقدون بأنّ الآخرين يشابهونهم، مشكلتهم تكمن في طهارة قلوبهم.. إنهم بحاجة لأن يتخففوا قليلًا من نقائهم حتى يفهموا كيف يُفكر بقية الناس، ويوفروا على قلوبهم الكثير من خيبات الأمل..
- معكِ حق، إننا نحسن الظن بقلوب الذين نحبهم أكثر مما ينبغي؛ لذلك لا أحد بإمكانه تحطيمنا أكثر منهم..
- لا عليك، أنت الآن بخير.
- لستُ بخير؛ فكُل شيء بداخلي قد تحطم.
- لا بأس، فما لا يقتلك يجعل منك أقوى
- ما الذي يجعلكِ تعتقدين بأني لم أُقتل؟!
- لأنَّكَ ما زلتَ تتنفس
- ليس بالضرورة أنّ كُل من يتنفس يكون حيًّا؛ هناك الكثير ممن هُم حولنا يتنفسون، ولكن أضواء الحياة قد أُطفئت بداخلهم..

ولأنّ غيمة كانت تؤمن بأن الكلام قد يُساعد الآخرين على تخفيف آلامهم، فإنها طلبت مني أن أشرح لها حقيقة ما أشعر به، فقلت لها:

- إنّي أشعر بفاجعة شخص اكتشف متأخرًا أنّه كان خيالًا في رأس شخص مريض.. إنّه أمر فظيع أن يقتلنا ذاك الذي كنّا مستعدين لنقايض حياتنا كلها من أجل مشاهدة الابتسامة على وجهه..

قالت: تماسك.

أجبت: كيف وقد تناثرت أحلامي؟!

- لا بأس.. ستصنع من النُّثارة بدلًا عنها.
- ثمّة أحلام لا يمكن تعويضها..
- انسَها إذًا واصنع غيرها.
- وكيف أنسى؟
- الوقت سيقودك للنسيان..
- الوقت يقودنا للتعايش مع ما خسِرنَاه، وليس للنسيان.
- إذًا اسمح للوقت بأن يُعلِّمكَ كيف تتعايش مع خسارتك
- هذا ليس عدلًا، لماذا أتعذب هُنا وهي تبقى بخير هُناك؟!.. لماذا لا نتقاسم العذاب مناصفة؟!
- لا تقلق؛ فكل الأشياء السيئة التي يفعلونها معنا اليوم لن تختفي، كما تظن بل ستعود إليهم في المستقبل حين تُكمل الأرض دورتها الكاملة لترتطم في وجوههم وتحطمهم نهائيًا.

متجاهلًا ما قالته، تمتمت غاضبًا:

- كان يجب عليّ أن أعرف مسبقًا..

- تعرف ماذا؟

- أنّ كل الذين نُحبهم اليوم بصدق، سيؤذوننا غدًا بإخلاص

كانت ستقول شيئًا، لكني قلتُ هائجًا قاطعًا عليها فرصة الحديث:

- لن أستسلم..

- ماذا ستفعل؟!

- سوف أسافر، وسأفعل كُل ما أستطيع فعله لإبطال هذه الزيجة.. حتى لو اضطررت لارتكاب جريمة بحقها أو بحق المعتوه الكريه الغبي الذي أخذها..

- لماذا كُل هذا العناد؟

- لماذا كل هذا العناد؟!.. أنتِ التي تسأليني هذا السؤال يا غيمة؟!.. ألم تكوني أنتِ التي قلتِ بأنّه يجب عليّ أن أكون معها، وأن أقف بجانبها؟!.. ألم تقولي بأنّي يجب أن أسافر لها؟!

- كان ذلك قبل أن أعرف أنّها موافقة على الزواج.. أما الآن فيجب عليك أن تتجاوزها كما لو أنّها فخٌّ انتبهت إليه في الطريق فقفزتَ من فوقه..

- والحُب الذي أُكنّه لها؟

- انزعه من قلبك؛ فمن تخلّى عنك تجاوزه حتى لو كانت فاتورة تجاوزك له تعني البكاء عليه طيلة عمرك..

- لا.. بل سأقاتل من أجلها..

- لا تُطلق رصاصة من أجل شخص لا يُحبك

- ولكنها كانت تقول بأنّها تحبني

- كل كلام الناس كذب، إلى أن تُثبتَ الأفعال صدقه..

قلت بعناد:

- إنها تُحبني..

- لو أحبتك لما تخلّت عنك؛ إنّ الحب لا يعرف لغة التخلّي.

- سوف أتحدث معها وأُقنعها بأنّ تغير رأيها..

- وهل تطمح بأنْ تشيخ بجوار قلبٍ باعك ذات مرة؟!

- جميعنا نُخطئ، وجميعنا نستحق المغفرة..

- المغفرة شيء، والثقة شيء آخر.. قد نغفرُ لهم أخطاءهم كُلها، لكننا لا نثق بيدٍ أفلتت عمدًا يدنا!!

كان ثمة شيء بداخلي يعرف أنّ كلامها صحيح، ولكنّي لم أكن وقتذاك أريد الاقتناع به.. قلت بغضب مدفون:

- ما الذي تريدينه يا غيمة؟!

- أُريد إعطاءك عينًا ترى بها الطريق

- لا أريد، لديّ عينان أستطيع أن أرى بهما طريقي جيدًا

- لديك عينان، ولكنّ الحُب قد سلب منهما الرؤية

- أنا أستطيع تدبر أموري بنفسي، شكرًا..

- وأنا أريد مساعدتك

صرخت بوجهها:

- وأنا لا أريد هذه المساعدة..

متجاهلة صراخي قالت بهدوء:

- إياك أن تركض خلف شخص يحاول الهرب منك..

أشرت بيدي نحو الباب، ثم قلت وقد طفح الكيل:

- اغربي عن وجهي يا غيمة..

قالت محاولة تهدئتي:

- اهدأ.. لا بد بأنّك منفعل، خذ نفسًا واهدأ.

- لا، أنا جاد فيما أقول.. اغربي عن وجهي، أنا لا أُريد رؤيتك هُنا

حين رأت أنّي جاد، قالت بغضب يشبه ذلك الغضب الذي يسبق البكاء: «غبي.. أحمق».. ثم بدأت بجمع حاجياتها من فوق الكنبة، وحين انتهت وقفت أمام باب الغرفة وقالت كما لو أنّها كانت تريد مني أن أتراجع في كلامي وأطلب منها البقاء:

- أن غادرت من هذا الباب، فإنك لن ترى وجهي هذا مرة ثانية

- أحسن!!

ثم أغمضتُ عينَيّ وصرخت بعناد في وجهها قائلًا:

- اغربي عن وجهي، لا أريد رؤيتكِ مرة ثانية!!

كانت غيمة وقتذاك تُمسك في يدها عُلبة مناديل.. فاستغلّت الفرصة التي كنتُ أُغمض فيها عينَيّ وحذفتني بها بكل قوتها، فوقع حرف العلبة على جبيني.. صرختُ متألّمًا:

- ما الذي فعلتِه، لماذا ضربتني؟!.. أفقدتِ عقلكِ؟!

- أنا لا أضربك.. أنا أصنع لك معروفًا؛ فهذه المناديل ستحتاجها حين أغادر الغرفة، وتظل وحدك تبكي كالأطفال على فتاتك الغبية!!

- هيه أنتِ أيتها الفتاة الساقطة.. لا تقولي عنها غبية!!

لم أكن أقصد إهانتها.. والله لم أكن أقصد.. ولكنّ الكلمة خرجت من تلقاء نفسها.. لم أقصد أن أُبكيها؛ لكنّها بكت:

- لا، أرجوكِ لا تبكي..

لم تُصغِ لرجائي واستمرت في البكاء كطفلة صرخ أحدهم في وجهها، مما جعلني أفصل كل الأجهزة الموصولة في يدي، وأترجل من السرير لمصالحتها:

- أنا آسف، لم أكن أقصد.. أرجوكِ سامحيني!!

قالت وهي تكاد لا تستطيع إغلاق فمها لفرط البكاء:

- أنا آسفة لم أكن أقصد أن أقول عنها بأنّها غبية.. ولكن هذا لا يُبرر لك أن تنعتني بالساقطة.. لقد آلمتني في قلبي.. أنا لستُ فتاة ساقطة!!

- لم أكن أقصد، لقد خرجت الكلمة من تلقاء نفسها..

حاولت تهدئتها لأكثر من مرة ولكنها كانت قد تلقت ضربة في كرامتها، مما جعلها أقل استعدادًا من أن تستمع لاعتذاراتي..

دخلت الممرضة في تلك اللحظة بعد أن تسبب فصل الأجهزة الموصولة بيدي، في إطلاق إنذار لدى كاونتر الممرضات:

- سيدي - قالت الممرضة - يجب عليك ألَّا تغادر سريرك..

استغلت غيمة لحظة دخول الممرضة، واستطاعت أن تغادر الغرفة دون أن تكترث لي وأنا أصرخ عليها محاولًا استبقاءها:

- لحظة لا تذهبي!!

حاولتُ اللحاق بها غير أنّ الممرضة كانت قد أمسكتني من ذراعي وقالت بحزم:

- سيدي هذا خطر على صحتك، يجب أن تعود للسرير!!

نظرتُ مرة أخيرة لغيمة التي كانت قد ابتعدت كثيرًا، والتي كنتُ واثقًا من أنها لن تُسامحني ولن تُريني وجهها مرة ثانية بعد الذي قلته في حقها:

- والله لم أكن أقصد.. سامحيني.

هذا ما تمتمتُ به بيني وبين نفسي، قبل أن أعود لأتمدد فوق السرير سامحًا للممرضة بإعادة توصيل الأجهزة الطبية لذراعي.

6

بقيتُ وحدي في غرفة المشفى الباردة، أمضغُ الندم وأشتم الحظّ العاثر وألعن سرًّا قلبي الضعيف.. كان ثمّة جزء بداخلي يُريد السفر من أجل استعادة سارة.. وآخر يعلم بأنّ غيمة كانت مُحقة في كلامها..

نعم أنا أُدرك أنّ الركض خلف شخص يحاول الهرب لهو عبث لا طائل منه، أُدرك أنّي لستُ رخيصًا لأُقنع أحدًا بالبقاء معي، أُدرك أنّ سارة أصبحت رسميًّا زوجة شخص آخر، وأنّ انفصالها عنه سيكون مهمة صعبة التحقيق.. ولكنْ رغم كُل تلك الأشياء التي كنتُ أُدركها إلا أنّي لن أستطيع البقاء مكتوف اليديْن بينما كل أحلامي أراها تحترق؛ لذلك كان يجب عليّ أن أسافر لفعل شيء يوقف تلك الحرائق:

- **قاتل الله كُل حُب يجعل صاحبه ذليلًا..**

همستُ بذلك لنفسي ثم غفوت..

***

الساعة الحادية عشرة ليلًا:

حين استيقظتُ بعد ساعتين وجدت نفسي وقد كنتُ مُتدثرًا بلحاف ثقيل لا أذكر أنّه كان موجودًا قبل أن أغفو؛ فاعتقدتُ في بداية الأمر أنّ الممرضة دثرتني به حين دخلت الغرفة لاحقًا ووجدتني أرجف لفرط البرد، ولكنّي حين التفتُّ لليسار كانت المفاجأة كبيرة حين وجدت غيمة غافية فوق الكنبة؛ فعرفت أنّها من قامت بفعل ذلك..

الله وحده يعلم أي بهجة غمرت قلبي حين رأيتها آنذاك، كان وجودها بالقرب منّي كفيلًا بأن يهبني الأمان؛ لقد كانت فتاة يسكنها السلام، حتى إنّ نجوم السماء حين تخاف كانت تهبط لنافذتها، تطرقها طرق الأيتام تبحث في عينيها عن الفرح تفتش فيهما عن الملاذ.

كبستُ زر نداء الممرضة، وحين جاءت طلبتُ منها أن تنزع عني الأجهزة الطبية ففعلت، وقالت هامسة قبل أن تنسحب:

- حين تنتهي قُم باستدعائي، لأعيد وصل الأجهزة لذراعك..

اقتربتُ من غيمة أُريد تغطيتها باللحاف كي لا تبرد.. ولكن يبدو أنّها ما أن أحسّتْ باللحاف يلامسُ جلدها حتى استيقظت من نومها، فابتعدتُ عنها خوفًا من أن أكون قد تسببت في إزعاجها، ولكنّها أمسكت يدي قبل أن أبتعد وقالت:

- ما كان يجب عليّ أن أتركك وأنت بتلك الحالة، إذا كنتَ تريد أن تُسافر من أجلها فسوف أُساعدك في ذلك.

كانت بغريزتها تعلم أنّ الشخص عندما يكون في قمة يأسه، فإنه بحاجة للشعور بالمُساندة أكثر من حاجته لتلقّي العتاب..

قلتُ لها:

- لقد ظننت أنّي لن أراكِ مرة ثانية..

قالت وشعاع برق يلمع من ثغرها:

- أنا أنتمي لحزب أولئك الذين لا يتخلون عن أصدقائهم.

حين شعرتُ بالتحسن بعد قليل ذهبتُ لدورة المياه، لأتوضأ وأصلي جميع الصلوات التي فاتتني منذ دخولي المشفى، وحين انتهيت من أداء الصلوات كُلها، قالت غيمة مُتحسرة:

- أتمنى لو أنّي كنت أستطيع الصلاة مثلك..

- ولماذا لا تستطيعين؟!

- لأنّي أشعر بأنّ الله غاضب مني؛ فأنا لم أُصلِّ في حياتي قط.

ثم قالت مستدركة كمن تدفع عن نفسها تُهمة:

- أنا لستُ فتاة سيئة، ولكنّ والديّ انفصلا وأنا في السابعة.. وأخي الكبير لا دينيّ[1]؛ لذلك لم أُصلِّ في حياتي قط..

كان في قلبي يقين كامل بأنّ الله لن يغضب منها بسبب ذنب لم تتعمد اقترافه، قلتُ مرتجلًا:

- اطلبي من الله أن يغفر لكِ وسيفعل؛ فليسَ ثمة يد تمتد إلى الله إلا وعادت ممتلئة برغباتها.

- أتعتقد؟

هززتُ رأسي وقلت: إنّ كل يوم تستيقظين فيه، لهو بمثابة فرصة جديدة يُناولها الله لكِ كي تعودي إليه؛ لذلك طالما أنّكِ لا تزالين على قيد الحياة، فثمّة فرصة..

---

١ اللاديني: هو شخص لا يؤمن بوجود أو عدم وجود الخالق، بمعنى آخر هو بين الإيمان والإلحاد، وهناك من يعرف اللاديني كـ الملحد ضعيف.

أغمضت عينيها وضمت يديها متخذة بهما هيئة دعاء، كانت تطلب من الله في دعائها أن يغفر لها.. كانت تفعل ذلك ببراءة وهي لا تعلم بأنّ هناك شمسًا كانت تُشرق في وجهها، حتى غدا وجهها بعد مرور بعض الوقت مُضيئًا كالساعات الأولى من الصباح..

عدتُ للسرير وضغطتُ زر استدعاء الممرضة لكي تأتي وتُعيد توصيل الأجهزة الطبية لذراعي، ولكنّها حين جاءت كان معها الطبيب المسؤول عن حالتي والذي قال بعد أن أجرى عليّ بعض الفحوصات أنّي أستطيع المغادرة..

***

كان الجو ماطرًا في الخارج فأعطتنا إدارة المشفى مظلّتَين نحتمي بهما من البلل، قلتُ بينما كنا نسير متجهيْن نحو أقرب محطة للحافلات:

- بالمناسبة.. لقد أخبرني معاذ بأنّكِ من عائلة سعودية الأصل، ولكنّك لا تبدين كذلك، فأنتِ أقرب لأنْ تكوني فتاة أجنبية..

- أنا من عائلة سعودية الأصل، ولكنّ جدي من جهة أبي جاء بعائلته لساندييغو منذ زمن بعيد واستقرّ بهم فيها، ومنذ ذلك الحين لم يغادروا من هُنا..

- ولماذا جاء جدكِ بعائلته واستقرّ بهم هُنا؟!

- إنّ جدي مؤلف وناقد وعاشق للموسيقى والسينما.. ويُقال بأنّه كان يواجه صعوبة شديدة في مزاولة أنشطته تلك بحرية في السعودية آنذاك؛ لهذا جاء بعائلته واستقرّ بهم هنا..

- ووالداكِ أين هُما الآن؟!

- والدايَ قصتهما تصلح أن تُجسد كفلم سينمائيّ..

صمتنا قليلًا ونحن نقف فوق الرصيف ننتظر خلو الشارع من السيارات، حتى يتسنّى لنا العبور للضفة الأخرى.. وما أن عبرنا الطريق بسلام حتى قلتُ لها بفضول ونحن نكملُ سيرنا:

- احكِي لي قصة التقاء والدك بوالدتك..

- بدأت القصة حين قرر جدي السفر للسعودية ليحضر حفل زفاف أخيه الأصغر.. كان أبي حينها شابًّا لم يسبق له أن غادر أمريكا منذ أن كان طفلًا، فاقترح على والده أن يصطحبه معه للسعودية ليحضر حفل الزفاف وليتعرف على أفراد عائلته.. وافق جدي فورًا على اصطحاب ابنه دون أن يدري بأنّه في طريق العودة لساندييغو لن يكون هو وابنه فقط..

- ماذا تعنين بأنّه في طريق العودة لن يكون هو وابنه فقط؟!

قالت بحنين:

- لقد عادت معهما فتاة جميلة، تلك الفتاة كانت أمي - ثم أكملت: فقد أُعجب والدي بابنة عمّه هُناك، وأصرّ أن يتزوجها رغم اختلاف الثقافات الشاسع بينهما، ومع ذلك الإصرار لم يكن أمام جدي حينها إلا أن يخطبها له من والدها، وهكذا تزوجا.

- ولماذا انفصلَا لاحقًا، بعد هذه القصة الرائعة؟!

تنهدت وهي تُجيب: كان أبي طيلة حياته يعمل كمحامٍ بسيط يكسب قوت يومه من خلال القضايا الصغيرة التي تُوكل إليه، ورغم أننا كنا عائلة ميسورة الحال، إلا أننا كنا سعداء.. ولكن ذات يوم أُوكلت لوالدي قضية حساسة من أحد رجال الأعمال، وقد وعده ذلك الرجل أن يُعطيه أجرًا عاليًا في حال أنه كسب القضية.. اعتكفَ والدي لدراسة الملف لمدة شهرين متواصلين، وحين جاء موعد المرافعة أبهر والدي الجميع بدفاعه عن موكله، واستطاع إسكات محامي دفاع الخصم، وكسب القضية..

- وهل نفَّذَ رجل الأعمال ذاك ما وعده به؟!

- نعم ولقد أعطاه مبلغًا لم يكن والدي يحلم به حتى في أكثر أحلامه تفاؤلًا، وبدأت بعد ذلك القضايا تتوافد عليه قضية بعد أُخرى، وأصبح فجأة من أكثر المحامين شهرة في سانديبغو..

- ما زلتُ لا أفهم سبب انفصال والديكِ؟!

قالت غيمة موضحة: أحسّت أمي بأنّها فقدت أبي؛ فبعد أن أصبح مشهورًا، لم يعد لديه وقتٌ كافٍ لنا، وأصبحنا بالكاد نراه في كل شهر مرة واحدة، وحتى عندما نراه لا نشعر بأنّه يرانا لفرط انشغاله.. ضاقت أمي ذرعًا بهذا الأمر، ورفعت عليه قضية طلاق وطالبت بحق حضانتي أنا وأخي..

- طيب، وماذا حدث؟

- كسبت والدتي دعوى الطلاق، ولكنّها لم تكسب حق الحضانة، وغادرت أمريكا عائدة لعائلتها في السعودية..

وصلنا لمحطة الحافلات أخيرًا، وكان يفصلنا عن موعد وصول أقرب حافلة زُهاء الثُلث ساعة، جلسنا فوق مقاعد الانتظار ثم سألتها وأنا أُغلق المظلة:

- وماذا حدث له بعد أن هجرته؟!

- كانت مشكلته أنّه لم يسبق له أن عرف غيرها؛ لذلك اعتقد أنّ بإمكانه المضي قدمًا والالتقاء بنساء أخريات يُنسينه إياها، إلا أنّه دون أن يعلم كان يفتش عنها في كل امرأة يلتقيها..

أكملت كلامها:

- إنّ الرجال بطبيعتهم يعتقدون بأنّ كل شيء قابل للاستبدال، غير أنّهم لاحقًا يكتشفون فداحة خطئهم، ولكنّ المشكلة أنّهم لا يكتشفون ذلك إلا متأخرًا..

أخذت نفسًا عميقًا ثم قالت وبخار الجو البارد يخرج من فمها:

- كان قلبه المُنهك مشتاق إليها، وكانت أنظاره دومًا معلّقة في تلابيب السماء؛ ينتظر هطول حبيبته مع كل غيمة مطر قادمة، ولكن الغيوم كلها مرّت ولم تهطل حبيبته أبدًا.

واصلت بحزن: بعد عامين ونصف العام من محاولاته اليائسة لنسيانها، اكتشف أنه لا يستطيع العيش بدونها، فذهب ليستعيدها، ولكنّها كانت قد غادرت مقعد انتظاره منذ مدة طويلة..

- ماذا تقصدين؟!

- اكتشف أنّها قد تزوجت من شخص آخر.

- وماذا فعل؟!.. بالتأكيد قرر أن يعتزل المحاماة.

- بل الحياة، فبعد ستة أشهر من تلقيه خبر زواجها من شخص آخر، فارق والدي الحياة بعد أن أدرك بأنّه خسر قضيته الأهم..

بسبب الليل الحالك الظُّلمة كان من السهل علينا تمييز إضاءة الحافلة وهي تقترب من المحطة، قلت لها معتذرًا وأنا أنهض وأُعيد فتح المظلة:

- يبدو أنّي بدون قصد، حركت بركة حزن كانت راكدة بداخلك

- لا بأس هذا أفضل؛ فالبرك الراكدة قد تُصيبنا باللوثة، إن لم نقم بتحريكها من وقت لآخر..

***

طوال الطريق بقيتُ صامتًا وأنا أجلس بجوار غيمة؛ أُفكر في طريقة ما لشراء تذكرة سفر جديدة، وتوصلت لفكرة أنّي سأبيع هاتف البلاك بيري بولد الذي اشتراه لي والدي قُبيل السفر.. كنتُ أعلم بأنّ الثمن الذي سأتلقاه مقابل بيع الهاتف لن يُوفر لي شراء قيمة التذكرة ولكن ربما لو أنّي اقترضتُ مبلغًا بسيطًا من معاذ فإني سأستطيع توفير ثمنها..

بعد خمس وأربعين دقيقة: نهضت غيمة من جواري، لأن الحافلة كانت قد وصلت للمحطة القريبة من منزلها، ولكنها قبل أن تغادر قالت وكأنها كانت طوال الطريق تسترق السمع لما يدور داخل عقلي: "لا تقلق، أنا سأتدبر لك قيمة التذكرة".. ثم غادرت الحافلة بعد أن تمنّت لي ليلة سعيدة.

صباح الجمعة،

المعهد.

كنتُ طوال الوقت عابسًا وأنا في المعهد، كبومة محبوسة داخل قفص في حديقة الحيوان، لا تبتسم مهما حاول الزبائن إضحاكها..

قال معاذ مقترحًا:

- ما رأيك أن تنال بعضَ المرح الليلة؟!.. إنها نهاية الأسبوع وبالتأكيد ستشعر بالكثير من التحسن لو أنّك جئت معي.

- أين؟

- حفلة خاصة.. سوف أستعير اليوم سيارة أحد أصدقائي، وآتي لاصطحابك عند الساعة التاسعة، ما رأيك؟!..

ثم ولأني كنت أريد أن أخرج من جو الكآبة ذاك بأي طريقة، فإني وافقت بسرعة ومن غير تردد..

***

عند الساعة التاسعة وعشر دقائق مساء: جاء معاذ لاصطحابي بسيارة مكشوفة من طراز بورش 911 كاريرا.. وما أن رأى لباسي - وقد كنت أرتدي لباسًا رياضيًّا فضفاضًا - حتى قال مستاءً:

- ما هذه الملابس التي ترتديها؟

- ما بها ملابسي؟!.. أليست مناسبة؟!

- ربما لخوض مباراة كُرة قدم، ولكن ليست للذهاب لحفلة خاصة.. ما رأيك أن ترتدي لباسًا رسميًا فبالتأكيد سيبدو عليك رائعًا، ألا تملك واحدًا؟!

- في الحقيقة.. لا

أخذني معاذ آنذاك لأحد محلات الأزياء المعروض على زجاجها الخارجي لافتة كبيرة مكتوب عليها بالأحمر «تخفيضات».. انتقى لي بدلة توكسيدو سوداء كاملة: «قميص أبيض وجاكيت وربطة عُنق وبنطال».. قلت وأنا أتفحص بطاقة السعر: إنها باهظة الثمن يا معاذ!!

- لا عليك أنا من سيدفع، هيّا بدل ملابسك.

وهكذا ارتديت البدلة في غرفة تبديل الملابس ثم انطلقنا.

***

كانت الحفلة مُقامة في منزل ذي ثلاثة طوابق مُصمم هيكله الخارجي بشكل أنيق.. أوقفنا السيارة في المواقف الخلفية، ثم ترجلنا ذاهبين مشيًا إلى الحفلة..

انتبهتُ حينذاك ونحن نمشي لقارورة سوداء زجاجية ذات غطاء ضاغط كان معاذ يُمسكها بيده قلتُ مستنكرًا:

- لماذا تجلب معك مشروبًا كحوليًا؟!

- أكنت تُريد مني الذهاب للحفلة بكرتون برتقال مثلًا؟!

- ما نوع هذه الحفلة يا معاذ؟

- حفلة بها الكثير من النساء.

- ولكنّك لم تُخبرني بذلك!!

- هل كنت تظن أنّها حفلة تخرج لدفعة من الطلاب حين طلبتُ منك القدوم معي لحفلة خاصة؟!

- لم أفكر بالأمر، كنت أريد أن أنال بعض المرح فقط.

- لا تقلق ستحظى بالكثير منه في الداخل!!

- ولكن سارة..

فاطعني متسائلًا:

- أبعد الذي فعلته بك لا تزال تفكر بها؟

- لم ينتهِ الأمر بعد سأسافر لإقناعها بالانفصال عنه..

- لا بأس يا حبيبي سافر - قال وكأنّه يُجاري طفلًا - ولكنْ قبل أن تُسافر يجب عليك أن تردّ لها صفعتها لك، قليل من المرح الليلة سيجعلك متعادلًا معها.. أليس كذلك؟!

في الظروف العادية لم أكن لأقبل بالدخول لتلك الحفلة، ولكنّ الرغبة الشديدة بداخلي للانتقام مما فعلته بي سارة.. جعلتني أوافق..

كان الوضع في الداخل أشبه بنادٍ ليلي، حيث الجميع في حالة سُكر ورقص ومجون، وكانت مُكبرات الصوت تَبثُّ أغانِيَّ فيها الكثير من الصخب، وكان الظلام يطغى على المكان إلا من إضاءات ليزرية تتحرك بشكل جنوني على الأسقف والأرضية والجُدران.

لاحظ معاذ امتعاضي بادئ الأمر، فأحضر لي من البار مشروبًا في كأسٍ بلاستيكية، كان قد أسقطَ لي فيها من غير أن أنتبه كبسولة ما، ثم قال وهو يمد لي الكأس:

- اشرب.. وستجد نفسك بعد قليل وقد تأقلمت على المكان.

قلت وأنا أُبعد الكأس عني:

- أريد أن أعود للمنزل، أنا لا أُحب هذه الأجواء.

- لم آتِ بك إلى هُنا كي تُفسد مُتعتي.

- لا بأس ابقَ أنت هنا مع متعتك، وسأنتظرك في السيارة..

قال وهو يمد لي الكأس للمرة الثانية:

- أنت مشوش لأنّك ما زلت تُفكر بها - ثم أضاف: اشرب لتنساها..

كانت كلمة «النسيان» تلك هي المفتاح السري الذي كسر حاجز الرفض بداخلي؛ فأخذتُ من يده الكأس وأفرغته في جوفي دفعة واحدة:

- يااااخ.. ما هذا الشيء الذي جعلتني أشربه؟! - سألته بوجه متقرف وأنا أمسح فمي بكُم بدلة التوكسيدو: إنّه أشبه بعُصارة كيس قُمامة.

ضحك معاذ على ردة فعلي، ثم قال وهو يُشير بإصبعه نحو حلبة الرقص: عُصارة كيس القمامة هذه التي شربتها، هي من ستجعلك بعد قليل ترقص هُناك كالقرد.

بعد مرور عشر دقائق: انتبهتُ لشعاع ضوء ينبعث من شاشة الهاتف داخل جيب بنطالي، ولكن يبدو أنّ الشراب كان قد بدأ يُعطي مفعوله داخل رأسي؛ فقلت وأنا أُشير لجيب البنطال:

- أووه، معاذ انظر.. جيب بنطالي يُضيء

قال معلقًا:

- إنه الهاتف، يبدو أنّ هناك من يتصل عليك

- ومن يتصل بظنّك؟!

- وما أدراني أنا؟!.. أخرج هاتفك وانظر بنفسك!!

أخرجت الهاتف وأجبت دون أن أنظر لهوية المتصل.. جاءني صوت غيمة يتدفق بلذّة عبر سماعة الهاتف:

- أحمد أين أنت، وما كل هذا الضجيج حولك؟! لقد حاولت الاتصال عليك أكثر من مرة..

كنت بحاجة للهدوء كي أستمع إليها بشكل جيد، وكان القرار السليم هو أن أذهب للخارج وأُكمل حديثي معها، لكنّ عقلي لم يكن حاضرًا بالشكل الكافي لاتخاذ قرارات سليمة، لذلك ذهبت نحو السماعات التي كانت تبث الأغاني الصاخبة، وقمتُ بفصل أسلاكها الكهربائية من فيش الحائط، مما أطفأ موسيقى الحفل..

حدق الجميع نحوي بدهشة، وقد بدت أشكالهم سخيفة في حضرة الصمت.. ثم ودون اكتراث لشيء وضعت الهاتف عند أذني وقلت أحادثها:

- المعذرة لم أنتبه..

- لماذا يبدو صوتك خاملًا هكذا؟!

- ربما بسبب عُصارة القمامة التي شربتها قبل قليل

- وما الذي يدفعك لأنْ تشرب عُصارة قمامة؟!

قلت وأنا أُشير نحو حلبة الرقص، وأردد بصوتٍ عالٍ ما قاله معاذ قبل قليل:

- معاذ أخبرني بأن أشرب عُصارة القمامة، لكي أستطيع أن أرقص هُناك كالقرد.

ثم ومن غير أن أستمع لردها، قمتُ بإغلاق الخط وأعدتُ وصل الأسلاك الكهربائية لفيش الحائط، فانبعثت الموسيقى الصاخبة مجددًا ورحت أركض بخطوات تائهة نحو حلبة الرقص..

***

في الحقيقة لم أكن راضِيًا عن نفسي، كنت أشعر بأنّي في مكان لا يليق بأن أكون فيه؛ ولكنّ الرغبة في الانتقام كانت هي التي تُحرك أطرافي المتراقصة بحركات غير متناسقة فيبدو منظري سخيفًا، كمنظر دمية هزلية ترقص على خشبة مسرح..

حين قاربت الساعة الثانية عشرة ليلًا، فعل معاذ شيئًا لم أتوقع منه أن يفعله، حيث أرسل لي فتاة أمسكتني من ربطة عنقي وقادتني لإحدى غرف الفيلا..

كنت مغيّب العقل للحد الذي لم أستطع فيه منع نفسي من السير خلفها، وحين أصبحنا داخل الغرفة أغلقت الباب علينا وقالت بصوت لعوب وهي تقترب:

- أخبرني معاذ بأنك في حاجة للنسيان

- من أنتِ؟!

همست وهي تضحك: أنا النسيان.

كنت أريد مغادرة الغرفة ولكنّ قدميَّ كانتا أضعف من أن تحملاني، كنت أريد الصراخ بوجهها ولكن صوتي خانني، كنت أريد دفعها، ركلها، إبعادها، لكنّ الخدر كان متفشيًا في أطرافي..

ثم وقبل أن تضع تلك الفتاة يدها على جسدي.. سمعت خطوات متعجلة لشخص كان يقترب من الغرفة التي كنا فيها، ظننت بأنّي كنت أتوهم ولكن لا.. لقد فُتح الباب بقوة ودخل شخص غريب.. أمسكني من يدي وغادر بي المكان..

كان الظلام يبتلع أروقة المنزل؛ لذلك لم أتمكن من تمييز ملامح الشخص الذي كان يقودني من يدي للخارج.. ثم وقبل أن نُغادر بوابة الفيلا، اعترض معاذ فجأة طريقنا وقال يُحادث ذلك الشخص:

- إلى أين تأخذينه يا غيمة؟!

شعرتُ بالكثير من الأمان عندما عرفت أنّ ذلك الملاك الحارس الذي هبّ لإنقاذي لم يكن سوى غيمة.. قالت بحدة:

- سأخرجه من هنا.

- دعيه يُقرر وحده إن كان سيذهب معكِ، أو أنه يريد البقاء.

قالت وهي تُشير نحوي:

- انظر إليه.. هل تعتقد أنّه يستطيع أن يقرر وهو بهذه الحالة؟!.. لماذا فعلت هذا به يا معاذ.. إنه صديقك..

- كنت أُريده أن ينسى..

- بقذفك إياه في هذا المكان الخبيث؟!

- لم أكن أقصد أنْ..

- أن ماذا؟!.. أن تُصبح كالحيوان؟!.. أو لم تكن تقصد أن تجعل من صديقك يبدو كالحيوان؟!

منفعلًا رد عليها:

- اظهري لنا بعض الاحترام نحن لسنا حيوانات!!

- نعم آسفة لقد أخطأت.. لقد أخطأت في حق الحيوانات أعتذر.. فهي على الأقل لم يكن لديها حق الاختيار منذ البداية، بينما أنت قد ميزك الله عنهم بالعقل، ورغم هذا إلا أنك تختار بإرادتك أن تُلغي هذا العقل وتصبح مثلهم!!

صمتَ معاذ قليلًا قبل أن يهمس بانكسار:

- لقد جئتُ إلى هنا كي أنسى أنا أيضًا..

ثم أردف معترفًا كمن يُدحرج قنبلة يدوية:

- غيمة أنا أحبكِ.. أحبكِ منذ اللحظة الأولى التي رأيتكِ فيها، لقد فعلتُ كل شيء من أجل أن أُلمِّح لكِ بحقيقة هذا الشعور.. ولكنكِ كنتِ طوال الوقت تتجاهلين شعوري تجاهكِ.. لهذا أريد أن أنسى..

ترك ذلك الاعتراف شيئًا من الصمت بين ثلاثتنا، لم يكن باستطاعتي رؤية ملامح وجه غيمة بسبب العتمة، غير أنّ الصوت الخافت لهدير أنفاسها كان يشي بأنّها تسيطر على أعصابها بشكل جيد، قالت:

- من حقك أن تُحبني كيفما تشاء، ولكن ليس من حقك أن تُحاسبني على هذا الحُب حين لا أبادلك إياه..

- أعطِيني فرصة كي أُريكِ الحُب الكبير الذي أحمله لكِ..

- وفر هذه الفرصة للشخص الذي يستحقها

- أنتِ من يستحقها

قالت كمن تلتقط القنبلة المُتدحرجة ثم تُعيد توجيه مسارها:

- لستُ أنا من يستحقها، بل خطيبتك..

نظر معاذ نحوي بحقد لأنّي أفشيتُ لـ غيمة السر.. بينما قامت غيمة بسحبي بقوة نحو بوابة الخروج، فلوحتُ لمعاذ مودعًا:

- إلى اللقاء أيها الحيوان..

8

بعد أن غادرنا الفيلا توقفنا عند أحد مقاهي ستاربكس، ابتاعت لي غيمة كوب قهوة عالية الكافيين؛ لتُساعدني على إزالة تأثير الكحول من عقلي ولو قليلًا.. أكملنا بعد ذلك المشي وقد كانت ليلة شديدة البرودة، فنزعتُ عن جسدي جاكيت بدلة التوكسيدو ووضعته فوق كتفيها، وأكملنا المشي بخطوات متباطئة:

- كيف عرفتِ مكاني؟!

- اتصلتُ على معاذ، كذبتُ عليه وأخبرته بأنّي أريد الانضمام إليه في الحفل، لم يصدق لفرط السعادة وقام بمشاركة الموقع معي..

- وكيف عرفتِ بقصة خطبته، أنا لم أخبركِ بتلك القصة..

- هو من أخبرني ذات مرة - قالت ثم أضافت تشرح: إنّ لسانه يُصبح طويلًا جدًّا حين يُسرف في الشراب، ويُصبح لا يعي أو يتذكر ما يقول..

- لكنّه يعتقد أنّي أنا الذي أخبرتكِ..

- لا تهتم؛ فأنت مسؤول فقط عن الكلام الذي يخرج من بين شفتيك، ولستَ مسؤولًا عن ما يعتقده فيك الآخرون..

أدخلتُ يديّ في جيب بنطالي للحصول على بعض الدفء:

- والآن.. إلى أين سنذهب؟!

أجابت:

- منزلي يقع بالقرب من هُنا، سنواصل إليه مشيًا، ثم سأطلب لك من هُناك سيارة أُجرة تقلّك لمنزلك.

واصلنا السير فوق أرصفة الشوارع الساكنة بصمت يفضح غضبها مني ويشي بحيائي الشديد منها.. ثم وبينما نحن في طريقنا لمنزلها إذ مررنا بمحاذاة منتزه عام ذي إطلالة خلابة على البحر.. كان بعض العامة هناك يُطلقون عليه اسم: «إيلين بارك».. اختصارًا لاسمه الحقيقي الطويل: «إيلين براوننج سكريبس بارك»[1].. كان منظره الفاتن ليلاً يُغري بالجلوس قليلًا فوق أحد كراسيه المنتشرة..

قلت مقترحًا:

- أشعر بالتعب، ما رأيك أن نرتاح قليلًا هُنا؟!

***

لم يكن هُناك إضاءة تُنير المكان غير شُعاع القمر القريب من فوق رؤوسنا.. جلسنا فوق أحد الكراسي العامة وامتد صمتنا لوقت طويل.. لم يكن الصمت سببه أننا لا نملك ما نقوله؛ بل لأننا كنّا غارقيْن في الاستماع للأغاني المنسية القادمة من المحيطات والتي كانت أمواج البحر آنذاك في كل مد وجزر تحملها إلينا..

---

١ الاسم بالإنجليزية: "Ellen Browning Scripps park"

قلتُ قاطعًا لحظات الصمت:

- تبًّا، أنا فاشل في كل شيء.

- أنت صديق جيد، وهذا يكفي.

- عندما تذهبين للتقدم إلى وظيفة، لن يسألونكِ هناك عن ما إذا كنتِ صديقة جيدة أم لا، سوف يسألونكِ عن شهاداتك..

- ما الذي تريد قوله؟!

- ألا تعتقدين أنّ سارة كان معها حق في أن تتخلى عني؟!

- لماذا تقول هذا؟!

- لأن.. أعني.. ما الذي يدفعها لانتظار شخص لا مستقبل له؟!

ثم أردفتُ شارحًا لها وجهة نظري:

- أنا فاشل في الدراسة، ومستقبلي هُنا غير مضمون، ربما كان من الأفضل لها أن تؤمِّنَ مستقبلها مع شخص آخر.. أليس كذلك؟!

- كان الحُب يكفيها أمانًا.. كان الحُب كفيلًا بأنْ يجعلها في انتظارك مدى العمر.. لا تختلق الأعذار؛ فلا شيء يشفع لقلب رحل عنّا بإرادته.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت:

- أتعلمين؟!.. إنّي نادم على كُل حرف كتبتُه لها.. نادم على كُل ليلة كنت أُطيل فيها السهر لأُفكر بالكلمات والاستعارات التي سأضعها لها في رسالتي القادمة إليها.

تساءلت بذهول طفلة تُشاهد ساحرًا يُخرج من قبعته حمامة:

- أتجيد الكتابة؟!

- لديّ شغف كبير، ولكن لا أستطيع الجزم بأنّي أجيد الكتابة..

- أتمنى لو أنّك تُصبح كاتبًا في يوم ما، مثل جدي..

- ولكنّي أخاف..

- من ماذا تخاف؟!

- من أن لا يقرأ لي أحد.. إنّ المكتبات تغصُّ بالكثير من الكتب.. ما الذي سيدفع الناس لقراءة كاتب مثلي؟!

نهضَتْ غيمة من جواري وذهبت باتجاه السياج الحديدي الذي كان يفصل منتزه «إيلين بارك» عن البحر، وقامت بتسلقه للجهة الأخرى.. أما أنا فإني رحت أتبعها لأرى ماذا هي فاعلة:

- غيمة ماذا تفعلين؟!

كانت تهبط برشاقة للأسفل متجاوزة الصخور الكبيرة المُظلمة متجهة نحو الشاطئ الثائر الأمواج:

- إلى أين أنتِ ذاهبة؟!

- سأعود لموطني - قالت مازحة - فأنا حورية يُصبح لديها قدمان حين تُلامس اليابسة، ثم تتحول تلك القدمان لزعنفة كبيرة حين تلامس ماء البحر مجددًا.

ابتسمتُ لخيالها الواسع وقلت:

- يبدو أنني لستُ الوحيد الذي يجب عليه أن يُصبح كاتبًا

- من يدري - ردت وهي تضحك - ربما نُصبح كاتبيْن في المستقبل، ونتشارك في كتابة رواية واحدة!!

رأيتها تأخذ حفنة من تراب الشاطئ الناعم بيدها وتعود لتسلق الصخور صعودًا للأعلى، وحين عادت قلت لها معاتبًا:

- هل تكبدتِ كل هذا التعب من أجل حفنة التراب هذه؟!

- هذا ليس ترابًا عاديًا - قالت ذلك ثم قامت بوضع حفنة التراب تلك في يدي وأضافت: ضعه عند قلبك..

- يبدو أنّه أنا الذي شربتُ من ذلك الكحول وأنتِ التي فقدتِ عقلك.. لماذا قد أضع حفنة من التراب عند قلـ...

أغلقت فمي بيدها وقالت:

- ضعه عند قلبك.. وتمنَّ أن تصبح كاتبًا؛ فإن رمال شاطئ إيلين بارك معروفة بقدرتها على تحقيق الأمنيات..

- هلسبقلكأنتمنيتمنقبل؟!

أبعدت يدها من عند فمي ليصبح كلامي مفهومًا، وسألت:

- ماذا قلت؟!

- هل سبق لكِ وأنْ تمنيتِ من قبل؟!

- ثلاث مرات، وكُلها تحققت إلا الأخيرة لم تتحقق بعد..

- وما هي هذه الأمنية الأخيرة؟!

- أعدك بأن أُخبرك بها لاحقًا، ولكن الآن نفذ ما طلبته منك.

لم أكن مقتنعًا بكلامها ذاك، لكنّي أدخلتُ يدي من فتحة قميصي، ووضعت حفنة التراب تلك عند قلبي مثل ما طلبت مني غيمة.. ثم تمنيتُ من الله أن أُصبح كاتبًا في المستقبل، وحين انتهيت من التمني قالت غيمة وابتسامة تعلو وجهها:

- والآن انفث التراب من يدك باتجاه البحر..

أخرجتُ يدي من مكانها، ونفثتُ التراب باتجاه البحر؛ فتطاير الغبار مبتعدًا مع تيار الهواء.. سألتني قائلة:

- أتعلم أين سيذهب الغُبار؟

- لا أملك أدنى فكرة.

- سيذهب لتحقيق أُمنيتك، مبروك أنت ستصبح كاتبًا في المستقبل.

كانت تتحدث آنذاك بثقة وكأنها تعلم ماذا سيحدث غدًا:

- كيف تملكين كُل هذا الإيمان بداخلك؟!

- انظر إلى عينيّ..

نظرتُ لعينيها، ثم قالت:

- كُن مؤمنًا بنفسك، وسيركع لك العالم كُله.

قلت أمازحها ولم أكن أعلم بأنّ القدر كان يجلس قريبًا منا تلك الليلة يختلس السمع على كلامنا، ويُسجل ما نقوله في مُفكرته الصغيرة:

- حسنًا سأصبح كاتبًا، وسأكتب كتابًا اسمه مدينة الحُب..

قالت:

- لا يسكنها العقلاء - ثم أضافت وكأن الإلهام كان يهمس في أذنها:

ستكتب كتابًا وتُسميه: مدينة الحب لا يسكنها العقلاء!!!

أردت أن أقول لها شيئًا، لكنها قاطعتني بحماس:

- عدني بأنّك إن أصبحت كاتبًا في يوم ما فإنّ كتابك الأول سيكون اسمه مدينة الحب لا يسكنها العقلاء..

ضحكتُ من أجل حماسها المبالغ فيه، وقلت قاطعًا لها الوعد:

- حسنًا أعدك بذلك!!

في تلك الليلة قضيتُ مع غيمة مدة طويلة داخل منتزه إيلين بارك، تحدثنا عن مواضيع جادة وأُخرى في غاية السُّخف، ضحكنَا من قلبنا كطفلتيْن يختبران ضحكتيهما لأول مرة.. غنيتُ لها أغانِيَّ عربية، وحين جاء دورها غنّت لي أغانِيَّ أجنبية، ورغم أنّ صوتينا كانَا في منتهى النشاز والقُبح إلا أنه لم يسبق لنا في حياتنا أن طُربنا أكثر من تلك المرة..

كان بقاؤنا هُناك سيمتد طويلًا لولا أننّا لاحظنا شخصًا ما يخرج فجأة من البحر، أذكر أنّا تجمدنا للحظات حينها من شدة الخوف ونحن ننظر إليه، ثم وما أنْ سمعناه يُنادي علينا حتى ركضنا مبتعدين عن المكان.

ما أنْ وصلنا لمنزلها القريب من هُناك حتى رحنا نتلفتُ خلفنَا لنتحقق مما إذا كان ذلك الرجل المخيف قد تبعنا أم لا.. قالت غيمة ببراءة وهي تفتح الباب:

- تعال ادخل..

ربما كان مفعول الكحول لا يزال يعمل بشكل خفيف داخل رأسي، ولكن ليس لدرجة أن أوافق على دخول منزل فتاة وحيدة.. أما غيمة التي كانت تُحادثني من منطلق الثقافة الغربية الأكثر تحررًا من قيود الحياء والعيب، فإنها قالت بعد أن لاحظت ترددي:

- ادخل ريثما نتحقق من أننا أصبحنا في مأمن من ذلك الرجل، ثم سأطلب لك سيارة الأُجرة.

- ادخلي واطلبيها، وسأنتظرك هُنا.

قالت وقد فهمت سبب تمنعي:

- لا تقلق لن نكون وحيديْن في المنزل؛ إنّ سام في الداخل.

- ولكنّي أخاف الكلاب

- سام ليس كلبًا إنّه أخي سامي، ولكنّي أدعوه سام..

- أخوكِ الذي لا يؤمن بالأديان؟!.. إنّ هذا الأمر يُخيفني أكثر.. تُرى ماذا عساه سيفعل حين يراني داخل المنزل؟!

- لا تقلق إنّه نائم ولن يراك.

- ولو.. أنا لن أدخل.

ثم وفي تلك اللحظة سمعتُ أصوات أقدام في الشارع تقترب، فأحسستُ بخوف شديد إذ أنّي اعتقدت أنّها أصوات خطوات ذلك الرجل؛ فدخلتُ المنزل بسرعة مغلقًا الباب خلفي تاركًا إياها وحيدة في الشارع قبل أن أتذكر ذلك الأمر بعد لحظات وأفتح لها.

***

كان منزلها مكونًا من طابقيْن وهو يشبه لحد بعيد طراز المقهى الريفيّ الذي تعمل فيه حيث الشبابيك الطويلة والأثاث المصنوع غالبه من الخشب الطبيعي..

قادتني لغرفة معيشة واسعة تتنصفها ثلاث كنبات جلدية مصوبة نحو شاشة تلفاز ضخمة، وفي نهاية الغرفة كان ثمّة مدفأة رُخامية فاخرة بداخلها بعض حبات الحطب الجاهزة للاشتعال، وكان يعتلي تلك المدفأة مُجسم كبير مُثبت في الحائط لرأس حيوان الأيل ذي القرون المتشعبة..

أشارت غيمة نحو الكنب قائلة:

- اجلس، واعتبر نفسك في منزلك.

- للتأكيد فقط أخوكِ سام نائم أليس كذلك؟! - ثم أشرت لها نحو مجسم رأس حيوان الأيل المُثبت فوق المدفأة وأضفت: لأني بصراحة لا أرغب في أن ينتهي بي الحال ورأسي مقطوع ومُثبتٌ هُناك.

- لا تخف من شيء - أجابت مُبتسمة - سوف أُعد لك بعض الطعام وبعدها سأطلب لك سيارة الأُجرة.

قلت خائفًا من أن أمكث لمدة أطول مما قد يُعرض أمري للاكتشاف:

-لا أشعر بالجوع، أشعر برغبة في الرحيل فقط.

- حقًا لا تشعر بالجوع؟!.. إذًا صوت معدة من ذاك الذي كنتُ أستمع إليه طوال الوقت أثناء مدة جلوسنا في المنتزه؟!

بحياء أجبت:

- حسنًا أنا جائع ولكنّي خائـ..

فاطعتني: قلتُ لك لا تخف من شيء - ثم مدت لي جهاز التحكم وأضافت: اشعل التلفاز وتابع شيئًا ريثما أنتهي من إعداد وجبة الطعام وآتي بها إليك.

وما أن ذهبَتْ غيمة حتى فكرتُ بأنّي لن أخسر شيئًا لو أنّي مكثتُ قليلًا هُناك، بالإضافة إلى أنّي فعلًا كنت أشعر بجوع شديد..

أمسكتُ جهاز التحكم وكبستُ زر الفتح - ويا ليتني لم أفعل - فما كاد التلفاز أن يُفتح حتى انبعثت منه أغنية تُشبه في صوتها العالي، تلك الأغاني التي كانت تُبث داخل الحفلة الخاصة..

حاولت إغلاق التلفاز بسرعة غير أنّي لفرط التوتر أسقطت من يدي جهاز التحكم أرضًا فخرجت بطارياته من الخلف..

أعدتُ تركيب البطاريات على عجل ثم أطفأتُ التلفاز.. ولكنّه ما أن أُطفئ وعمّ الصمت المكان حتى جاء صوت ذكوري خشن من الطابق العلويّ قائلًا: غيمة أهذه أنتِ؟!

عرفت أنّه صوت أخيها سام فالتزمت الصمت آملًا أن يعود من حيث جاء.. قال للمرة الثانية: «غيمة أهذه أنتِ؟!».. وعندما لم يجب عليه أحد، قرر أن ينزل ليتفقد الأمر بنفسه!!

***

حين دخل سام غرفة المعيشة لم يجد فيها أحدًا.. ليس لأني استطعت الهروب من هُناك قبل أن يصل، بل لأنّي تكومت مثل فأر داخل فتحة المدفأة الرخامية الفاخرة الموجودة في نهاية الغرفة.

وأثناء اختبائي هُناك أصدرت معدتي صوت قرقرة خوف، فأمسكتُ بطني بكلتا يديّ كما لو أنّي أُغلق فمها فلا تفضح أمري.. غير أنّ أخاها انتبه للصوت فقال وهو يتلفّت حوله:

- من هُناك؟! - ولكنه لم يكتشف المصدر.

بعد قليل سمعتُ أصوات خطوات أقدام أخرى تقترب فعرفت أنّها غيمة.. وما أن دخلت غرفة المعيشة وشاهدت أخاها واقفًا أمامها حتى قالت:

- سام؟!.. غريب أن أراك مستيقظًا في مثل هذا الوقت.. ثم لماذا أراك تحمل في يدك مسدسك؟!

ما أنْ سمعتها تلفظ كلمة «مسدس» حتى شعرت بأن كُل عضو في جسدي آخذ بالانكماش.. قال لها وهو يجلس فوق كنبة الجلد:

- لا شيء سمعت صوتًا في الأسفل فاعتقدت أنّ هناك لصًّا

- لا ليس لصًّا، يبدو أنّه أحمد..

- أحمد؟!.. من أحمد؟!.. أووه تقصدين صديقكِ ذاك الذي ضحيتِ براتبك لهذا الشهر من أجل أن تشتري له تذكرة سفر يذهب بها لبلاده؟!

- شش سام، لا أُريده أن يعرف بأنّي فعلت ذلك من أجله، نعم هو أحمد الذي قصصت لك حكايته، بالمناسبة أين هو هل رأيته؟!

- لا فقد كانت غرفة المعيشة خالية حين هبطتُ إليها.

أخرجت غيمة هاتفها النقال وأجرت اتصالًا عليّ.. فرنّ الهاتف في جيبي وأنا مُختبئ داخل فتحة المدفأة الرُّخامية الفاخرة:

- لقد انتهيت - همستُ لنفسي.

***

علّق سام: أسمع رنين هاتف ينبعث من داخل المدفأة؟

أجابت غيمة: أحمد أأنت داخل المدفأة؟!

لم أُجب فقال سام وهو يفك زرّ أمان المسدس ويجعله جاهزًا للإطلاق: يبدو "بأنه اللص" .. أما أنا فما أن سمعت طقّة الزر تلك حتى قلت بصوت باكٍ:

- لستُ لصًّا أنا أحمد..

ألقت غيمة نظرة إلى داخل المدفأة وحين رأتني سألت:

- ما الذي تفعله هُنا؟!

همستُ غاضبًا: ما الذي يفعله أخوكِ هُنا ألم تقولي بأنّه نائم؟!

أطلّ أخوها سام أيضًا برأسه داخل المدفأة وقد كان وجهه قبيحًا ومرعبًا للغاية، كما لو أنّه عندما غادر رحم والدته قد أخذ معه كُل القبح من هُناك، وترك لأخته من بعده الجمال كُله.

***

خرجتُ من المدفأة وكُلي أمل بأن أفتح عيني بعد قليل وأجد أنّ ذلك الموقف لا يعدو كونه أكثر من مجرد حُلم سخيف أراه أثناء قيلولة الظهر..

عرّفتني غيمة على أخيها سام الذي كان في مُنتهى اللطف معي، ثم عادت للمطبخ من أجل استئناف عملية تحضير الطعام..

جعلتُ أنا وسام نتحدث في الأمور التي عادة ما يتحدث بها شخصان يلتقيان لأول مرة، ثم فجأة انعطف بحديثه نحو غيمة، فقال:

- إنها صديقة رائعة أليس كذلك؟!

- إنها من أولئك الأصدقاء الذين لا يكررهم الزمان مرتين.

- معك حق.. علاوة على ذلك أنّ بداخلها مبادئ لا يمكن لها أن تتجاوزها، فتخيل رغم الثراء الذي نحن فيه إلا أنّها تُصر على العمل وكسب المال بعرق جبينها..

عرفت آنذاك لماذا كانت حياة غيمة بسيطة للغاية، حتى أنها في أحايين كثيرة تكاد تصل لمرحلة التصوف، في الوقت الذي كان يجدر بفتاة في مثل ثرائها أن تتمتع بترف وضعها الاجتماعي..

ولكنْ ثمّة شيء لا أفهمه وهو كيف لذلك الأخ أن يكون متصالحًا كل هذا الحد مع صديق أخته، لقد ظننت بأنه قد يفصل رأسي عن جسدي ما أن يراني معها..

قلتُ متجرئًا:

- في الحقيقة أنّ لطافتك هذه معي، كانت آخر شيء أتوقعه منك.

كان سام يعرف الخلفية الثقافية التي جئت منها، لذلك قال:

- أتفهّم طريقة تفكيرك هذه، ولكنّ أسلوب الحياة هُنا يختلف تمامًا عن أسلوب الحياة التي جئت منها؛ فهُنا بعد أنْ تبلغُ الفتاة سن الثامنة عشرة يضمن لها القانون حُرية كاملة، وكُل ما نستطيع فعله معها كعائلة هو تقديم النصيحة لها فقط..

أكمل مستطردًا:

- وأنت يبدو بأنّك لستَ فتًى سيئًا في نهاية المطاف، إنها دائمًا تُحدثني عنك وعن أفكارك وطموحاتك، وهي تعتقد أنّك صديق جيد لها.

وأخيرًا أضاف قبل أن ينصرف:

- غيمة تقضي وقتًا طويلًا بصحبتك لذلك، اعتنِ بها جيدًا..

- أعدك بأنْ أفعل.

***

حين جاءت غيمة بعد قليل بطبق الطعام قلتُ لها معاتبًا:

- ما قصة تنازلكِ عن مرتبك لهذا الشهر من أجل شراء تذكرة السفر؟

مدت يدها إلى جيب حقيبتها وأخرجت تذكرتيْ سفر، وضعتهما بجوار طبق الطعام وقالت:

- اتصلتُ عليك اليوم لأكثر من مرة، حتى أُخبرك بأنّي تدبرت لك أمر التذكرة، لقد ابتعتُ لك تذكرة ذهاب وعودة.. وسفرك سيكون بعد يوم الغد..

- أنتِ لا تُجيبين عن سؤالي، لماذا تنازلتِ عن مرتبك الشهري من أجل شراء تذكرة السفر..

- أنت صديقي.. وأن تكون صديقي معناه أنّي سوف أضحي بأي شيء حتى أراك سعيدًا - ثم أضافت: لم أكن أُريدك أن تعلم بأنّي تنازلت عن مُرتبي لهذا الشهر من أجل شراء التذكرة لك، ولكنْ يبدو أنّ أخي سام قد أفسد الأمر عن غير قصد.

- غيمة أنا لا أعرف ماذا أقول لكِ.

- لا تقل شيئًا؛ فأنا لا أنتظر منك كلامًا لتقوله.

صمتُّ قليلًا ثم قلت:

- غيمة أنا.. آآب...

- انسَ الأمر، قلت لك أنا لا أنتظر منك كلامـً..

- لا ليس هذا.. أنا.. آآب.. أشعر بالغثيان!!

وضعت يدها على جبيني تستشعر حرارة جسدي، ثم قالت:

- حرارتك طبيعية.. ولكن يبدو أنّه «هانج أوفر»

- رانج روفر؟!

- لا.. «هانج أوفر».. إنها حالة من الغثيان تُصيب الشخص الذي يُفرط في شُرب الكحوليات.. يبدو أنّ معدتك لم تتقبل الشراب الذي أعطاك إياه معاذ، لذلك يريد جسدك التخلص منه..

أذكر أني حينها ذهبتُ لدورة المياه، وبقيت بداخلها لوقت طويل حتى أخرجتُ كل ما في معدتي، وعندما انتهيت كنتُ أشعر بالخمول والوهن الشديد، وكانت تفوح من ملابسي رائحة القيء والعرق، فطلبت من غيمة أن تستدعي لي سيارة أجرة، غير أنّها بعد أن شاهدت حالتي الصعبة، قررت أن توصلني بنفسها للسكن فلفّت لي الطعام لأتناوله لاحقًا حين أستعيد شهيتي، ثم استعارت من أخيها مفتاح سيارته لتقلّني بها..

9

يوم السفر،

الساعة 11:30 صباحًا

جاءت غيمة لمنزلي بسيارة أُجرة لترافقني للمطار.. كان صمتنا طوال الطريق يُثير قلق وارتياب السائق، الأمر الذي حدا به ليختلس النظر إلينا من خلال المرآة المتدلية من السقف كل خمس دقائق، كما ليتحقق مما إذا كنا لا نزال نجلس هُناك، أم أننا غادرنا سيارته..

***

في المطار:

ما أن انتهينا من قطع تذكرة صعود الطائرة، حتى اتجهنا نحو بوابة المغادرة، وهناك قلت لها قبل أن نفترق:

- أنا آسف على كل شيء فعلتُه معكِ.

- لا تعتذر؛ فالأصدقاء ليسوا بحاجة للاعتذار.

قلتُ مبهورًا بمدى روعة الجملة:

- أتعلمين؟!.. عندما أُصبح كاتبًا، سأُخلّد جملتك هذه في كتاب..

- وأنا لن أخبر أحدًا بأنك سرقتها مني - ثم قالت قبل أن نفترق: اعتنِ بقلبك جيدًا.. وداعًا.

توقفتُ قليلًا لإجراءات تفتيش المطار الأمنية، ثم أكملت طريقي منجهًا لبوابة صعود الطائرة، دون أن أعلم حقيقة ما كان ينتظرني هُناك..

***

فوق أحد المقاعد الفارغة كنت جالسًا بشرود، أنظر بصمت نحو مدرج الإقلاع والهبوط، كان ثمّة حولي الكثير من المسافرين المُتحلّقة أبصارهم نحو البوابة بانتظار فتحها ليصعدوا للطائرة..

ولكن الشيء الغريب وغير المتوقع هو أنّي لم أكن لحظتذاك أشعر باللهفة للسفر لسارة كما المرة الماضية، وتمنّيت من كل قلبي لو أنّهم يُعلنون تأجيل الرحلة لوقت آخر..

لقد شعرت بأنّ طريق العودة إليها بات وعرًا وأنّ المُضيّ فيه لم يعد يُغريني كما كان يحدث دومًا.. حاولت أن أتلمّس ملامح وجهها المُثبتة على حائط قلبي لكنّ صورتها كانت قد اختفت من البرواز كما لو أنّها سقطت سهوًا.. ثم وبدلًا من أن أتفقد الأمكنة حولي لأستعيد الصورة، تمنيت لو أنها تعلق في ممسحة عامل النظافة فيُلقي بها في سلة المهملات حيث المكان الذي ينتمي إليه كُل من قطع لنا ذات يوم وعدًا بالبقاء، ولكنه رحل عنا بإرادته..

قاطع أحد ملّاحي الطائرة أفكاري بأنْ قال:

- سيدي أأنت على متن الطائرة المتجهة نحو السعودية؟

- هاه؟!.. آآ نعم، لماذا؟!

- لقد صعد كل الركاب، ولم يتبقَّ غيرك..

التفتُّ يمينًا وشمالًا.. ووجدت الصالة التي كانت قبل قليل ممتلئة وقد خلت من الناس، نهضت متجهًا نحو الممر المُفضي للطائرة، ولكنّي توقفتُ قليلًا قبل أن أعبره.. لقد كنت مترددًا للغاية ولا أعرف ماذا أفعل جزء مني يرغب في المواصلة، وجزء هائل يرغب في الانسحاب.. وبين هذا وذاك كان يجب عليّ أن أتخذ قرارًا سريعًا..

10

أمام البوابة الخارجية للمطار: كانت غيمة تقتعد أحد الكراسي العامة، مشغلة بالتحديق نحو السماء كما لو أنّها تريد إلقاء نظرة أخيرة على الطائر المعدنيّ وهو يحملني للبعيد..

وبينما هي كذلك إذ امتدت إليها يد شخص مجهول تلكزُ كتفها بلطف، التفتت لترى ذلك الشخص ولكنها ما أن رأته حتى احتاجت لبعض الوقت؛ كي تستوعب بأنّ ما تراه أمامها كان حقيقة وليس خيالًا، قلتُ لها:

- معكِ حق، أظن أنه يجب علينا التوقف عن محاولة التشبث باليد التي أفلتت يدنا عمدًا.

أمام صمتها الواشي بدهشتها لرؤيتي، أردفتُ قائلًا:

- أنا لا أريد أن أشيخ بجوار قلب باعني يومًا.

***

أوقفنا سيارة أُجرة وطلبنا من سائقها أن يُقلّنَا لمنطقة «لاهويا» التي كانت تقع على بعد عشرين دقيقة تقريبًا من موقعنا.. ثم وبينما نحن في الطريق إذ قالت بعد أن أفاقت من تأثير المفاجأة:

- كنتَ ستركض خلفها وكانت ستهرب منك، لن تنجح في إمساك شخص قرر الابتعاد عنك، وحين سيمضي عليك الكثير من الزمن وتُدرك بنفسك هذه الحقيقة، ستكون قد فاتتك كُل الفرص التي كان بإمكانك استغلالها لبناء علاقة تتكئ عليها طوال العمر..

هززت رأسي بشرود ولم أعلّق بشيء، فقالت لتفتح حديثًا:

- والآن قلي، ما هي خطتك في الحياة؟!

- سوف أُقاطع الحب من أجل صحتي..

- أنت تهوّل الأمور، إنها خيبتك الأولى..

- لقد قطعتُ وعدًا لقلبي بأن لا أعرضه لخيبة أمل ثانية..

- أن يخذلك قلب واحد لا يعني أن جميع القلوب سيئة..

ربما يكون كلامها صحيحًا، ولكن أن نُحسن الظن في قلوب الآخرين هو آخر شيء قد نفعله بعد علاقة حُب فاشلة..

***

حين أوصلتنا سيارة الأجرة أخيرًا لوُجهتنا ملتُ نحوها هامسًا:

- أنا من سيدفع الأجرة.

- جيد؛ لقد كنتُ خائفة أن تقول بأنّك لا تملك المال؛ فقد صرفتُ كل ما أملكه من المال لهذا الشهر ولم أعد أملك فلسًا واحدًا..

قلتُ معترفًا:

- أظن أنّه يجب عليكِ أن تخافي إذًا؛ فأنا أيضًا لا أملك فلسًا واحدًا..

- ولماذا قلت للتو بأنّك من سيدفع الأُجرة..

- إنها حيلة قديمة، وهي أن أقول لكِ بأنّي أنا الذي سيدفع، فتقولين أنتِ: لا دع الحساب لي، فأدعه لكِ وتدفعين..

همست غيمة بتواطؤ:

- طيب.. أنا لديّ حيلة قديمة ولكنّي أضمن لك فعاليتها..

هامسًا سألت:

- وما هي؟!

أمسكت غيمة مقبض باب سيارة الأجرة وأجابت بصوت خفيض:

- عند العد لثلاثة سنفتح الباب ونهرب..

- أنتِ لستِ جادة فيما تقولين!!

رفعت غيمة هاتفها بوجهي وهمست:

- هدئ من روع ضميرك.. لقد سجلتُ الرقم التسلسلي لهذه السيارة، وسوف أجعل أخي سام يتواصل مع شركة الأُجرة لاحقًا ويدفع لهم قيمة الرحلة..

- مهلًا ولكن..

غير أنّها لم تدع لي مجالًا لأقول شيئًا، فقد بدأت العد: «واحد، اثنان».. وما أن قالت ثلاثة حتى فتحت غيمة بابها وانطلقت تركض مبتعدة..

أما أنا فإني لم أستطع البقاء هُناك وحدي؛ ففتحت الباب وجعلت أركض وراءها نُسابق الريح.. تُلاحقنا أنظار المارّةِ وشتائم السائق الذي لم يستطع ترك سيارته في ذلك المكان واللحاق بنا.

دخلنا منزلها قُبيلَ غروب الشمس.. جلسنا قليلًا نرتاح من الجهد المبذول؛ واكتشفتُ يومذاك أن لا شيء أكثر تعبًا من مواصلة الركض بالثوان بينما يكاد الواحد منّا يسقط أرضًا لفرط الضحك..

حين اكتست السماء بوشاحها الرماديّ آذنة للشمس بالغروب، ذهبت غيمة لدورة المياه وحين عادت كان جسدها يقطر ماء كما لو أنّها غطست في مسبح.. ثم فجأة ومن غير مقدمات يمَّمَت وجهها نحو إحدى زوايا البيت وبدأت تُصلي.. قلت مقاطعًا صلاتها:

- غيمة.. غيمة - غير أنّها لم تُجب فصرختُ عليها: **غيمة!!**

التفتت نحوي متسائلة بوجه مُعاتب:

- ما بك؟!.. ألا ترَى أنّي أُصلي؟!!

- منذ متى وأنتِ تُصلين؟!

- ألم يكن بإمكانك تأجيل سؤالك ريثما أنتهي من الصلاة؟!

قلت موضحًا لها:

- أولًا المرأة لا تُصلي وهي ترتدي فستانًا يصل أسفل ركبتها.. ثانيًا أنتِ لا تختارين القِبلة كيفما يحلو لكِ، إنما توجهين نفسكِ باتجاه الكعبة.. ثالثًا هُناك آيات قُرآنية يجب عليك حفظها وقراءتها أثناء الصلاة.. لا أن تُحركِي فمكِ وتتمتمي بكلام غير مفهوم!!

ألقت بنفسها فوق الكنبة، وقالت عاقدة حاجبيها باستياء:

- يبدو أنّ الأمر أعقد مما كنت أظن..

- ليس معقدًا، إنّه أمر في منتهى البساطة.

قلتُ ذلك ثم أخذتُ أعلمها كُل شيء يخص الصلاة، ابتداء من طريقة الوضوء وانتهاء بعدد ركعات الفروض وكيفية أدائها..

وحين انتهينا كان لا يزال أمامنا وقت طويل، فجعلتُ أقص عليها نصص الأنبياء، بادئًا بقصة آدم عليه السلام، وحين وصلتُ للنقطة التي قلتُ لها فيها:

- **وقد آنسَ الله أبونا آدم عليه السلام في الجنة بأنْ خلق له أُمنا حواء..**

قاطعتني قائلة:

- إذا كان الله قد آنسَ أبونا آدم في الجنة بأن خلق له أُمنا حواء؛ فهذا يعني أنّ الرجل منكم لا يُسمى إنسانًا من غير أن تكون لديه حواؤه.

كنت أعرف أنّها لا تقول ذلك إلا لكي ترد على كلامي السابق حين قلت لها بأنّي أنوي مقاطعة الحُب:

- لا تقاطعيني مرة أخرى - قلتُ لها مُهددًا ثم أكملتُ القصة:

«وقد خلق الله أُمنا حواء من أحد أضلع القفص الصدري لأبونا آدم، بينما كان نائمًا»

وهُنا رفعت يدها طالبة الإذن بالكلام، وحين سمحتُ لها قالت:

- خُلقت حواء من أحد أضلع القفص الصدري لأبونا آدم كي تحرس له قلبه؛ فمن دوننا نحن النساء لا حارس لقلوبكم أنتم الرجال

- ولكنكِ يا حواء خُلقتِ من ضلع أعوج.. ألا يزعجكِ هذا؟!

- لا بأس فالاعوجاج هو شرط سلامة الضلع؛ فلو أنّه كان مستقيمًا لأصبح ضلعًا فاسدًا لا يخدم الشيء الذي خُلق من أجله..

- معكِ حق، لم أفكر بهذا الأمر من قبل..

- أخبرني يا آدم، لماذا سُميتَ بهذا الاسم؟!

قلت وقد أعجبتني اللعبة: لأني خُلقتُ من أدمة الأرض، أيْ من تُرابها.. ثم سألتها: وأنتِ يا حواء لماذا سُميتِ بهذا الاسم؟!

أجابت وهي تُعدد بأصابعها الأسباب:

- أولًا لأنّي خُلقتُ من شيء حي.. ثانيًا لأنّ مهمتي هي أن أحتويك.. وثالثًا لأنّي كُل الحياة..

- ولماذا خلقكِ الله من ضلعي يا حواء؟!

- كي أحميَ قلبك..

- ولماذا خُلقتِ وأنا نائم؟!

- لأنك تكره حين تتألم؛ فخلقني الله منك وأنت نائم لكي لا أتسبب لك بالألم؛ فتكرهني طيلة عمرك..

- ولماذا تلدين أطفالكِ بينما أنتِ مستيقظة؟!.. ألا تكرهين أنتِ أيضًا حين تتألمين؟!

- حواء لا تكره يا آدم؛ فالكره حيلة الضعيف..

في تلك الليلة بالذات عرفت حقيقة ربما لم أكن لأعرفها لولا غيمة وهي: أنّ العلاقة الجميلة ليس شرطًا فيها الحُب؛ فثمّة علاقات أحيانًا قد لا تتبع تصنيفًا محددًا، ولكنّها تتيح لك الاستناد عليها وأنت في كامل يقينك بأنّها علاقة ثابتة لا تهتز لا بتشقق أرض ولا بتصدّع جبال.. علاقة تمد جذورها فينا، لا تغيرها الفصول ولا يمحيها الزمان.

ثمّة خيبات تقتلنا وأُخرى تبعثُ فينا الأمل، لقد هُجرت لأنّي كنت فاشلًا ولا مستقبل لي؛ لذلك أصبح بداخلي شغف كبير لأتفوق وأنجح، فعدتُ للمعهد بدافع يفوق الدافع الذي كنتُ أذهب إليه من قبل، وباتت الدراسة بالنسبة لي تكاد تكون أقرب للهوس، حتى إنّي كنتُ أُصاب أحيانًا بالأرق الشديد فلا أستطيع النوم بسهولة مما يضطرني في بعض الأيام للذهاب مواصلًا للمعهد..

أما معاذ فإنّي أعدت إليه بدلة التوكسيدو السوداء التي ابتاعها لي.. ثم انصرفت من أمامه دون أن أتبادل معه كلمة واحدة، وبعدها كنا طوال الوقت نتعمد تجاهل بعضنا بعضًا كما لو أنّ أحدنا لم يكن للآخر في يوم ما صديقًا مقربًا..

بعد عام لاحق تقدمتُ لاختبار «التوفل».. واستطعت أن أُحرز فيه النقاط التي تؤهلني لإنهاء الدراسة في المعهد وتقديم شهاداتي للجامعة..

***

تطورت علاقتي بغيمة شيئًا فشيئًا، وأصبحنا نقضي أكثر أوقاتنا معًا، وغدوتُ كل صباح يوم جديد أنقرُ نافذتها كعصفور تائه يبحث داخل عينيها عن عشّه الأول، ولكنّي في الوقت ذاته كنتُ حريصًا على أن أترك بين قلبينا مسافة آمنة تفصلهما عن الحُب..

12

سانديبغو

9:55 مساء

أمام المقهى الريفيّ

في أثناء انتظار الرد من الجامعة بالقبول أو الرفض، ذهبت كعادتي ذات مرة للمقهى الريفي قبل انتهاء موعد انصراف غيمة بخمس دقائق.. ولكنها حين خرجت كانت تبدو حزينة ومهمومة:

- ما بكِ؟!

- أشتاق لأمي، أُريد الذهاب لرؤيتها..

- ولماذا لا تُسافرين لرؤيتها؟!.. أنا أفكر بالسفر للسعودية، فقد مضى وقت طويل لم أرَ فيه عائلتي، سافري معي أن أردتِ..

- أخي سام سيغضب مني..

- لماذا سيغضب؟!

أجابت وهي تدفن يديها في جيب معطفها:

- لأنه يعتقد أن أمي كانت السبب في موت أبي، إنه يكرهها ويقول بأنّها لم تعد أُمنا منذ اللحظة التي تخلّت فيها عنّا ونحن صغيران..

- هل تتواصلين معها؟!

- نعم من وقت لآخر، إنها أُمي في نهاية المطاف.

ابتسمتُ كاسرًا هيبة الموقف، فسألتني عن سبب تبسّمي فقلتُ أمازحها: لا شيء، ولكن بالحديث عن احتمال ذهابك للسعودية لرؤية والدتك، تخيلت كم سيبدو وجهكِ لطيفًا داخل حجاب العباءة..

- أتريد مني أن أُغطي شعري؟!

- هذا الأمر يحتاج لرغبة داخلية، ولكن لو اقتنعتِ يومًا بتغطية شعرك فإني سأكون سعيدًا من أجلك - ثم أضفت قائلًا: ولكن أتعلمين ما الذي سيجعلني سعيدًا الآن؟

- ماذا؟

- لو أنّك تصنعين معروفًا وتتبسمين..

ولكنها كانت أتعس من أن تبتسم، فقلت محاولًا إقناعها:

- ابتسمي، لأنّ الأرض بحاجة لابتسامتك.

وما أن سمعتني أقول ذلك حتى انهار جليد الحزن، وأشرقت شمس ابتسامتها.. مشينا بعد ذلك بخطوات بطيئة نحو منتزه إلين بارك..

***

لم يكن ثمّة قمر في سماء تلك الليلة، وكانت النجوم متوهجة بشكل غريب، قالت بدهشة الأطفال وهي تجلس فوق أحد كراسي المنتزه:

- انظر للنجوم كم هي مُشعّة في سماء الليلة..

- أنصتي، إنها تتحدث إليكِ.

- ماذا تعتقد أنّها تقول؟!

- تقول لكِ لا تنطفئي..

اعتلَت وجنتيها حُمرة خفيفة، استطعت رؤيتها رُغم خفوت إضاءة المكان.. باعدت غيمة بين شفتيها لتُطلق سراح سؤال حبيس:

- ماذا أعني بالنسبة لك؟!

صمت وجعلت أحدق في ظُلمة البحر أطلب منه أن يُمرر لي الإجابة الصحيحة، كطالب بليد في مدرسة الحُب صادف في الامتحان سؤالًا لم يتوقع مجيئه..

لم تكن المشكلة فيها، لقد كانت فتاة تستحق أن تُتلى عليها تراتيل الحُب آناء الليل وأطراف النهار ولكن المشكلة كانت فيَّ أنا.. أنا الذي كان جرح واحد يكفيه، ولم يعد قلبه يتسع لاحتمال طعنة جديدة..

قلت لأتهرب من الإجابة على سؤالها:

- أنتِ كل أشيائي الجميلة.

13

مساء اليوم التالي تلقيتُ اتصالًا من غيمة تقترح عليّ فيه أن نُسافر معًا ليوم واحد في رحلة قصيرة لمدينة لوس آنجلس التي لم تكن تبعد عنّا كثيرًا..

كنتُ وقتذاك منشغلًا بالتخطيط للسفر من أجل رؤية عائلتي التي لم أرها منذ أكثر من سنة، وكنتُ سأطلب من غيمة تأجيل الرحلة لبعد عودتي من السفر.. لكنّي ترددتُ قليلًا إذ أنّي تذكرت حالة الكآبة التي كانت تعاني منها مؤخرًا بسبب حنينها لوالدتها، ووجدت أنّ تلك الرحلة ربما قد تساهم في الترويح عنها بعض الشيء، فقلت لها:

- حسنًا، سنذهب للوس آنجلس.

لفرط سعادتها أغلقت الخط بوجهي دون أن تُودعني، وذهبت لتحزم حقيبتها، وتطلب من أخيها سام أن يُعيرها سيارته من أجل رحلة يوم الغد..

***

عند العاشرة صباحًا في اليوم التالي:

كنتُ أجلس بجوار غيمة التي انطلقت بسيارة أخيها الموستنج سالكة الخط السريع باتجاه مدينة لوس آنجلس والتي كانت تبعد عنا قرابة الساعتين ونصف..

ما أنْ وصلنا هُناك حتى اقتفينا اللوحات الإرشادية على الطريق إلى أن قادتنا نحو منطقة هوليود.. أوقفنا السيارة في المواقف العامة الملاصقة لمسرح «فوندا»[1].. ثم ذهبنا مشيًا على الأقدام نشوط المكان جيئة وذهاب، وكانت غيمة كُلما مضت بجوار دكان توقفت عنده قليلًا لتُشاهد الملابس والمجوهرات المعروضة على واجهته الزجاجية..

وفي الحقيقة كنتُ وقتذاك محرجًا للغاية؛ لأنّ أغلب اللائي يمشين هُناك كنّ يُمسكن في أياديهن الكثير من المشتريات، في الوقت الذي لم يكن لديّ ترف شراء ولو هدية بسيطة لها..

ثم وبينما نحن نواصل سيرنا إذ توقفت غيمة أمام أحد معارض المجوهرات وشاهدت على واجهته عقدًا ذهبيًا ناعمًا ينتهي بلؤلؤة طبيعية صغيرة منحوت بداخلها رسمة قلب.. فأخرجت هاتفها النقّال والتقطت للعقد صورة لتضعها في حساب الفيس بوك الخاص بها:

- إنّ هذا العقد جميل جدًا، أليس كذلك؟!

قلت بانزعاج: ما رأيكِ أن نعود لسانديغو؟

تساءلت بعدم فهم:

- ما بك؟!.. ألم تُعجبك لوس آنجلس؟!

- أعجبتني ولكن.. لا يُعجبني أنني لا أستطيع شراء شيء واحد لكِ على الأقل من بين كُل هذه الأشياء التي تتوقفين كل دقيقة عندها.

١ مسرح فوندا: هو مكان شهير لإقامة الحفلات، ويقع في منطقة هوليود بلوس آنجلس

ابتسمت غيمة حينذاك وقالت شيئًا لا أزال حتى هذه اللحظة أتذكره:

- لا يُهمني شراء شيء من كل هذه الأشياء؛ **فأنتَ كُل أشيائي الجميلة.**

***

عند نهاية المساء وحين قاربت الشمس على المغيب، قالت غيمة بأنها ترغب في البقاء لمدة يوم إضافي، لتزور فيه مدينة ديزني لاند.. صحيح بأنّ الميزانية لم تكن تسمح لمثل ذلك الاقتراح ولكني أمام إلحاحها المتواصل وافقت، عاقدًا العزم على تعويض خسارتي المالية بسياسة شد الحزام في الأيام التالية..

اخترنا المكوث في فندق جميل يُدعى: «شانغريلا» وقد كان ذا واجهة بيضاء يقع مقابلًا لبحر «سانتا مونيكا».. قامت موظفة الاستقبال ذات الأصول الهندية بسؤالنا عما إذا كنّا نُفضل النزول في غرفة ذات سرير كبير أم غرفة ذات سريرين مُنفصليْن، قلتُ بحزم:

- نُفضل البقاء في غرفتين مُنفصلتين لو سمحتِ..

تعجبت موظفة الاستقبال؛ فقد كان من الطبيعي هُناك أن يُفضّل كل شاب وفتاة ينزلان في الفندق المكوث في غرفة واحدة، فلم أملك أمام تعجبها ذاك إلا أنْ أقول كاذبًا:

- نحن هُنا في مُهمة عمل.

أعطتنا موظفة الاستقبال كرتين ممغنطيْن لفتح بابيِ الغرفتين، ثم ودعتنا بابتسامة على وجهها متمنية لنا قضاء أوقات ممتعة..

في المصعد: كان وجه غيمة ليس على ما يرام، بالرغم من محاولاتها العديدة لإخفاء استيائها عليّ.. وعندما لم تطق مع الصمت صبرًا قالت:

- هل أنا أُثير اشمئزازك؟!..

ربما إقامتي في الولايات المتحدة الأمريكية كانت تجعلني قادرًا على فهم العقلية التي كانت غيمة تُفكر بها؛ فقد امتدت علاقتنا تلك لمدة تزيد على عام كامل من البراءة اللامتناهية.. البراءة التي كانت تمنعني حتى من مشابكة يدي بيدها بينما نحن نقطع الطريق..

وكان هذا الشيء ربما يجعل أيّ فتاة هُناك تعتقد بأنّها تُثير اشمئزاز الشاب الذي بصحبتها.. وكان قراري في ذلك اليوم على عدم اقتسام غرفة واحدة معها دليلًا قاطعًا يؤكد لها ظنونها..

بينما الحقيقة ليست كذلك قطعًا، فكُل ما في الأمر هو أنّي لفرط ما كنتُ أُحبها سرًّا، كنت أخاف من أن أقترف ذنبًا معها فيحرمني الله منها..

ما أن فُتح باب المصعد حتى خرجت منه غيمة غاضبة تتجه بخطوات متعجلة نحو غرفتها.. ركضتُ خلفها وأوقفتها قبل أن تدخل وتُغلق الباب بوجهي:

- أنتِ تفهمين الأمر بطريقة غير صحيحة.

- هل هذا كُله من أجل سارة؟!

- ما دخل سارة بالأمر؟

- لا أعلم.. فربما كنت لا تزال تُحبها وتشعـ..

أغلقتُ فمها بيدي قبل أن تُكمل، ثم نظرت بعمق لعينيها وقلت:

- كل ما في الأمر هو أنّي أخاف عليكِ..

لم تتكلم؛ لأنّي كنت لا أزال أُغلق فمها بيدي، ولكنّ عينيها قالتا: «من ماذا تخاف».. فأجبتها وقد زلّ لساني دون أن أنتبه:

- الرجل لا يعبث بفتاة يُحبها؛ لإنّه يخاف من أن يرتكب ذنبًا معها فيحرمه الله منها؛ لهذا لا أُريد أن أُشاطركِ الغرفة ذاتها.

أبعدت غيمة يدي من عند فمها وقالت مدهوشة:

- أنت تُحبني؟!

- لا، لم أقل ذلك!!

- بلى قلت!!

- لا لم أقل، نحن مجرد صديقين.

- لقد قلت للتو بأنّ الرجل لا يعبث بفتاة يحبها؛ لأنّه يخاف من أن يرتكب معها ذنبًا فيحرمه الله منها..

شعرتُ لحظتها بكثير من الخوف جراء بوحي بذلك الاعتراف، فقلت محاولًا استدراك الأمر:

- أتعلمين؟!.. سأُشاطركِ الغرفة، ولن أُبالي إن حُرمت منكِ أم لا.. لأثبت لكِ بأنني لا أحبكِ.. وبأنني لا أهتم لأمرك.. أن رحلتِ.

- ولكنّي لا أريدك أن تُشاطرني ذات الغرفة، أتعلم لماذا؟!

- لماذا؟!

- لأن المرأة حين تُحب رجلًا تخاف أن تقترف معه ذنبًا، فيحرمها الله منها

قالت ذلك ثم دخلت غرفتها وأغلقت الباب بوجهي، فقمتُ بوضع فمي عند زاوية الباب المُغلق وسألتها:

- أتقصدين أنكِ تُحبينني؟!

جاء صوتها من داخل الغرفة ماكرًا:

- لا لم أقل، نحن مجرد صديقين.

***

في اليوم التالي: أذكر أنّي استيقظتُ باكرًا، وفكرت في أن أصطحبها لردهة الفندق من أجل تناول الإفطار، ولكنّي حين فتحت باب غرفتي وجدت رسالة مُلقاة على الأرض:

«صباح الخير.. لقد استيقظتُ منذ ساعة ونصف، سأذهب لأبتاع لباسًا للسباحة، وسأنزل قليلًا إلى البحر

غيمة»

أخذتُ فوطة من دورة مياه الفندق وخرجت كالإعصار متجهًا نحو الشاطئ، وما أن وصلتُ إلى هناك حتى وجدتها بلباس للسباحة كان يكشف من جسدها أكثر مما يستر، وقد كانت تتحدث وتضحك مع شاب غريب.. احتلني غضب عارم وصرخت عليها بصوت يشبه خوار جمل هائج، جعل جميع من هناك ينظر نحوي بغرابة..

لم تكن غيمة تعلم سبب غضبي ذاك، فبالنسبة إليها كان أمرًا عاديًا جدًا أن ترتدي لباسًا غير ساتر للسباحة، وتنزل إلى البحر وتتحدث وتضحك بلطافة مع الغرباء..

سألت ببراءة وهي تراني أقترب:

- مابك تبدو غاضبًا؟!

حذفتُ الفوطة في وجهها وقلت لها بصوت خرج من تحت أسناني:

- استري بها نفسك واتبعيني، سنغادر الفندق الآن..

كانت الحدة في نبرة صوتي أكبر من أن تجعلها تتردد أو تكرر سؤالها، تبعتني للفندق وجمعنا أغراضنا من الغرفة ثم غادرنا عائدين نحو سانديغو بصمت مُخيف لم يقطعه غير سؤالها في السيارة حين قالت:

- هل شعرت بالغيرة؟!.. أنا آسفة لم أكن أعلم بأنّ هذا الأمر سيُثير غيرتك لهذه الدرجة.. لو كنت أعرف لما فعلت..

الغيرة هي أن تشتعل فيك النار، والكبرياء هو أن تبتسم بينما تلك النار تحرق جسدك شبرًا شبرًا:

- أنا لا أغار.. ومن ماذا أغار؟.. ولماذا أغار؟

- مابك إذًا؟!

- لا شيء، ولكنكِ بدأتِ تُثيرين اشمئزازي فعلًا!!

بلعت غيمة تلك الإهانة بصمت، وحاولت جاهدة أن تُحافظ على دموعها مُخبأة داخل مآقيها، ثم قالت بصوت فيه رجفة:

- سنصل سانديغو بعد ساعة تقريبًا، ما رأيك أن نتناول بعض الطعام حين نصل ثم نذهب لمشاهدة الغروب في منتزه إيلين بارك؟!

- اذهبي وحدكِ - أجبت بقسوة - ليكون في مقدورك مشاهدة الغروب والتحدث مع الشبان بكامل حريتك هناك..

كنت أنظر للأمام ولكنّي في الوقت ذاته، كنت أستطيع من زاوية عيني أن ألمح أنفها المتورد ودموعها التي سقطت على خديها.. وما أن أوصلتني للمنزل حتى ترجلتُ من السيارة مغادرًا بعد أن أغلقت باب الراكب بكل قوتي..

***

قررت وقتها أن أقطع علاقتي بغيمة وبشكل نهائي، ليس لأنها ارتدت لباسًا غير محتشم عند الشاطئ، ولا بسبب حديثها العابر مع ذلك الشاب، بل لأني حين راجعت نفسي أحسست بالخوف، فتلك الغيرة التي شعرت بها تجاهها لم تكن عادية أبدًا، لقد كانت من ذلك النوع الذي يدفعك لأن تقتل من أجلها وضميرك مرتاح للغاية..

ونحن عادة لا نصل لهذا الحد من الجنون إلا حين تكون أقدامنا قد غاصت بأكملها في الرمال المتحركة للحُب؛ لهذا قررت وقتذاك أن أقطع علاقتي بها..

ولكني اكتشفت أنّي منذ اللحظة الأولى فشلت.. فبعد دقائق قليلة وصلتني رسالة واردة على البريد الإلكتروني.. وحين فتحت الرسالة وجدتها عبارة عن خطاب من الجامعة يُفيد بقبولهم لي فيها..

أذكر أنّي أحسست وقتها بالكثير من الحزن؛ فقد تمنيتُ لو أنّ غيمة كانت معي لتُشاركني الفرحة، فما فائدة الأخبار الحلوة إن لم يكن لديك شخص قريب لقلبك تفرح بها معه؟!

بعد أسبوع كامل من قرار المقاطعة ذاك، وبينما كنتُ جالسًا ذات مرة في غرفتي أقرأ كتابًا، إذ طرقت مِس جاكلين باب الغرفة وقد جاءت لتقول:

- هناك فتاة محجبة تنتظرك في الخارج..

- فتاة مُحجبة؟!.. لا بد أنّها أخطأت العنوان

- لا، لقد طلبتك بالاسم..

ذهبت برفقة مِس جاكلين لأرى من تلك الفتاة المُحجبة التي جاءت تطلبني بالاسم.. ولكنّي ما أن رأيتها حتى عقدت الدهشة لساني، سألتني مِس جاكلين:

- هل تعرفها؟

- آآ.. إنها.. آآ.. إنها غيمة..

قالت مِس جاكلين وهي تصافحها بحرارة وتدعوها للدخول:

- تفضلي بالدخول، لقد حكَى لي أحمد عنكِ كثيرًا في الأيام الماضية.. أظن أنّه مُعجبٌ بكِ جدًّا، وأظن أيضًا أنّه آآآ..

خلال الأيام الماضية كنت أحكي لها عن غيمة فعلًا، حدث ذلك عندما كان قلبي قاب قوسين أو أدنى من الموت مختنقًا بالكلام المتراكم بداخله.. ولكنّي لم أحسب للقائهما ذاك حسابًا، لذلك كان يجب عليّ أن أقاطعها قبل أن تفضحني:

- آآآ مِس جاكلين ما رأيكِ أن تعدي لضيفتنا بعض الطعام؟!

وفعلًا نجحت الخطة حيث قادتنا مِس جاكلين نحو غرفة المعيشة ثم ذهبت للمطبخ بعد أن أخبرتنا بأنّها ستعاود الانضمام إلينا عقب الانتهاء من إعداد شيء خفيف لنتناوله..

نظرتُ لغيمة فوجدتها بالكاد تُمسك ضحكاتها.. قلتُ لها محذرًا:

- إياكِ أن تضحكي..

فما استطاعت كبح ضحكاتها أكثر، واندفعت تضحك بكل قوتها على منظر وجهي الذي أصبح يُشبه البندورة الحمراء لفرط الخجل، وحين انتهت قالت:

- لم أكن أعلم بأنّك معجب بي لهذه الدرجة.. أخبرني ما الذي كنت تحكيه لها عني؟!

ولكن ولكي أُنقذ نفسي من الحرج، قلت مُعلقًا على الحجاب الذي كانت تضعه حول شعرها:

- ما هذا الذي تضعينه فوق رأسك؟!

- لقد قررت أن أتحجب، ما رأيك؟

كانت وقتذاك تلفُّ شعرها بحجاب أبيض اللون، فلا يظهر من رأسها غير وجهها المستدير داخل الحجاب، إلا أنّها في الوقت ذاته كانت ترتدي فستانًا يصل طوله لمنتصف ساقها:

- حجابكِ جميل، ولكن لباسكِ؟!

- سأرتدي لباسًا يليق بالحجاب، إن كان هذا يُرضيك

- غيمة أنا لا أُحب أن أتحكم بحياة أحد؛ فثمّة أشياء يجب أن يكون قرارها نابعًا من الداخل، أنا لا أريدكِ أن تفعلي هذا الأمر من أجلي.

- وأنا قررت أن أضعه من تلقاء نفسي، إنها رغبة مُنبعثة من داخلي، ومنذ يوم الغد سأبحث عن موقع لبيع العبا..

- حسنًا لا تتحمسي كثيرًا - قاطعتها - الحجاب يكفي، أما العباءة فإنها ستلفتُ الأنظار إليكِ هُنا أكثر من أن تصرفها عنكِ.. تستطيعين بدلًا من العباءة أن ترتدي لباسًا يستر جسدك.

سألت بفرح: أحقًّا أنت تغار عليّ؟!

نُكرًا أجبت: لا.. من أوحى لكِ بهذه الفكرة السخيفة؟!

- لماذا إذًا غضبت في ذلك اليوم، أن لم تكن الغيرة هي السبب؟!

لم تكن لديّ إجابة على سؤالها، فقلت في محاولة لتشتيت انتباهها:

- لقد تم قبولي بجامعة كاليفورنيا..

لقد نجح ذلك الخبر فعلًا في تشتيت انتباهها، فقد نهضت غيمة من مكانها وقررت كتعبير عن فرحتها بأن تُقيم في المقهى الريفيّ تلك الليلة احتفالًا صغيرًا بهذه المناسبة، وأضافت قائلة بأنها ستُذيع ذلك الخبر عبر حساب الفيس بوك الخاص بها وتدعو للحفل كل أصدقائنا المشتركين..

ثم وقبل أن تغادر ذهبت للمطبخ وقامت بدعوة مِس جاكلين للاحتفال معنا وأخذت منها رقم هاتفها لكي تشارك معها موقع المقهى الريفيّ لاحقًا..

في تلك الليلة حضر الكثير من أصدقاء المعهد للمقهى الريفي لمشاركتنا الفرحة.. ثم وأثناء الاحتفال وصل زائر لم أتوقع زيارته: إنّه «معاذ».

كان مجرد حضوره كفيلًا بأن يُمزق سوء الخلاف بيننا، استقبلته بلقاء يليق بمكانته في قلبي، وبارك لي قبولي في الجامعة.. ثم بعد لحظات سأل وقد أثار تعجبه منظر ما:

- منذ متى وغيمة تتحجب؟

- منذ البارحة.

- هل قامت بفعل ذلك من أجلك؟

- بل من أجل نفسها.

- أتحبها؟

- لا.. لقد أقلعتُ عن الحب؛ إنّه مضر للصحة كالسجائر التي دائمًا ما ينصحنا الأطباء بالإقلاع عنها، لكننا لا نفعل إلا بعد الوقوع في أول أزمَة قلبية..

- تحت أي تصنيف تضع علاقتك معها بعد كل هذا الوقت إذًا؟!

- لا تصنيف محدد، نحن فقط نقضي معًا أوقاتًا ممتعة.

- غريب.

- ما الغريب؟

- غريب أنك كنتَ دائمًا ما تقف ضدي كلما أخبرتك بأني أريد تقضية بعض الوقت الممتع معها، واليوم أراك تفعل الشيء نفسه..

لقد حاصرني تعليقه ذاك في الزاوية، قلت:

- نحن صديقان لا أكثر.

رد ساخرًا:

- لقد قال لي أحدهم ذات مرة في الطائرة، بأنّه لا يؤمن بالصداقات بين الرجل والمرأة، قال إنّه لا يؤمن بفكرة أن يضع نارًا بالقرب من فتيل بارود، دون أن يتوقع حدوث انفجار.

- نحن نتغير يا معاذ، ويتغير معنا تفكيرنا.

علّق بشيء من عدم القبول:

- إننا دائمًا ما نجد لأنفسنا الأعذار التي نبرر بها أنانيتنا.. عمومًا لا تُزعج نفسك بالتبرير لشخص ساذج مثلي..

هل ما زال في نفسه شيء لـ غيمة؟! هل ما زال يُفكر بها ويتمناها مثل ما كان يفعل؟!.. قلت له متسائلًا:

- هل ما زلت تفكر بها؟!

- لا.. لقد تجاوزتها منذ مدة طويلة، والتقيتُ بفتاة رائعة وأنا حاليًا أقضي معها وقتًا ممتعًا.. بالمناسبة لقد دعوتها لحضور الحفل ولكنّها لم تأتِ بعد وأنا لا أعلم ما الذي أخرها لهذا الحد - ثم أخرج هاتفه ليتصل بها، ولكنّ هاتفه كان مغلقًا فقال يستأذنني: هل أستطيع استعارة هاتفك لأجري اتصالًا بها وأرى ما الذي أخرها؟!

- نعم.. أكيد، تفضل - قلت وأنا أُناوله الهاتف.

في تلك اللحظة هتفت غيمة تُناديني فذهبتُ ملبيًا النداء، وما هي إلا لحظات قليلة حتى لحق بي معاذ، وقال وهو يُعيد لي الهاتف وأمائر الحرج واضحة على وجهه:

- يبدو أنّها لن تأتي فقد طرأ عليها ظرف خاص.

استدار لينصرف، فأوقفته وطلبت منه البقاء معنا، إلا أنّه أصرّ على الانصراف متذرعًا ببعض الأعمال التي يجب عليه القيام بها، والحقيقة أني لم أكن مرتاحًا لوجوده معنا تلك الليلة؛ لهذا لم أتمسك به وتركته يذهب..

***

حين انتهى الحفل وتفرق الحضور، ذهبتُ أنا وغيمة مشيًا لمنتزه إيلين بارك للمكوث فيه قليلًا قبل أن يذهب كل واحد منا لمنزله..

بقينا تلك الليلة نحدق في البحر كعادتنا بصمت، نستمع بإصغاء لأغاني المحيطات المنسية القديمة الآتية إلينا عبر المد والجزر.. قالت:

- أشعر بكلام في صمتك تريد البوح به.

لم أكن أريد منها أن تُضيع وقتًا مع شخص مثلي، أنا الذي كنت مُحطمًا وهشًا وكئيبًا من الداخل كمظلة مهجورة في زاوية الغرفة يعلو سطحها الغبار، تستمع من خلف الشبابيك لزخات المطر لكنها لا تستطيع التمدد تحته:

- أنتِ تضيعين وقتكِ معي؛ فأنا شخص ما عاد قلبه يصلح لشيء.
- لا تهمني القطارات التي تمضي، ولا الفرص التي تفوت، كُل ما يهم أن أكون معك..

قلت وأنا لا أزال أُحدق صوب البحر:

- المشكلة هي أنّ الأشخاص الصح دائمًا ما يصلون متأخرين، عندما نكون قد قررنا إغلاق أبواب قلوبنا وأقسمنا بالله أن لا نفتحها مهما كان إلحاح الطارقين قويًا..

ردت:

- مثلي ليس بحاجة لباب أو نافذة، أنا آتيك مع الهواء، أتسلقك من أسفل وسادتك، أتسرب إلى قلبك من شقوق الذاكرة..

- لماذا كُل هذا العناد!؟

- لأن - ثم صمتت قليلًا وقالت: انظر إلى عينيّ أولًا..

حين نظرت وجدت في عينيها فضاء حالك السواد يضم في سمائه أفلاكًا وكواكب ونجومًا متلألئة.. قالت ببحة تُشبه عزف ناي يحن صوته لحقول أعواد قصب السكر:

- **لأني أُحبك.**

كيف أشرح لها أنّ الخوف يغتالني، وأنّي أشعر به ينهشني قضمة قضمة كميت في ظُلمة القبر يشعر بلدغات الدود وهو ينهش أطرافه؟!.. كيف أشرح لها أنّي أصبحتُ أخاف الحُب، أخاف التعلّق، أخاف التأرجح، أخاف الانكسار أخاف ألم السقوط مُجددًا؟!

انتبهت غيمة لذلك التوتر الذي أصاب ملامح وجهي فشدَّتْ على يدي وقالت وكأنها تبرر شعورها:

- كنت أظن نفسي كاملة قبل أن ألقاك، وحين ألتقيتك أدركت كم أنا ناقصة بدونك، لقد وجدت فيك ما يشدني للحياة.

كنت أبحث عن كلام لأقوله، لكنني ما وجدتُ شيئًا غير الصمت، فقالت لتُخفف عني الحرج:

- لستَ مضطرًّا لتقول شيء، إنّي لا أقول لك هذا الكلام لتُبادلني إياه.. إنّه شعور بداخلي وأردت مشاركته معك ليس أكثر؛ فنحن لا نعلم متى ينتهي وقتنا، وأخاف أن أرحل يومًا وفي خاطري شيء لم أبح لك به.

ثم أضافت قبل أن تنهض من مكانها مغادرة:

- في الحقيقة لم أكن أعتقد أنّي سأُحب أحدًا بهذا العمق.. أنا غارقة بتفاصيلك أكثر مما ينبغي ومشكلتي أنّي لا أُجيدُ العوم، إياك أن تتركني بعد كل هذا الحُب.

بعد أن غادرت شعرتُ بأنّي وحيد وأعزل.. نهضت من مكاني وتقدمت نحو السياج الحديدي، وجعلت أحدق بشرود في البحر:

«لا تكن جبانًا» همس الموج.

الاثنين،

9:00 صباحًا،

«قبل السفر للسعودية بأسبوعين»

استيقظتُ من النوم باكرًا ذلك اليوم وشعرتُ برغبة شديدة في تقضية الوقت بالقراءة وترتيب حقيبتي استعدادًا للسفر الذي اقترب موعده؛ فتناولتُ هاتفي وبعثتُ رسالة لـ غيمة أُخبرها فيها بأنّي سأكون منشغلًا عن رؤيتها اليوم:

«صباح الخير غيمة، أشعر اليوم بأنّي أُريد البقاء في المنزل للقراءة وترتيب حقيبة السفر، عمومًا الجو رائع هذا الصباح، ابتسمي ليهطل المطر»

جاءني ردُّها بعد قليل:

«أتمنى لك قضاء وقت ممتع، ولكنْ ثمّة شيء لا أفهمه بينك وبين هذه الكتب، فأنت تواعدها كعاشق يُواعد حبيبته، وتحادثها وكأنها تفهم كلامك، وتنصتُ إليها كما لو أنّها تتحدث إليك فعلًا»

بعثتُ لها رسالة أقول فيها:

«الكتب عائلة من لا ملاذ له، إنّها أصدقائي العقلاء في هذا العالم المجنون؛ لذلك حين أنتهي من قراءة كتاب جيد، أُحب التحدث إليه.. هل تعلمين بأنّ الكتب هي من تختار قُراءها وليس العكس؟!»

«وكيف للكتب أن تختار قراءها وليس العكس؟!»

«إنّ الكتب مخلوقات حية تتنفس، إنّها تحتفظ بأرواح مؤلفيها، جربي أن تقفي ذات مرة أمام رف الكتب بهدوء، تأمليها كما لو أنّكِ تتأملين وردة تتفتح، وفقط عندما يشعر كتاب ما بالأمان نحوكِ، سيطلب منكِ أن تأخذيه»

«لقد حمستني للقراءة»

«اقرئي يا غيمة فإنّ القراءة تغتال الحزن، وتُطهر القلب، وتُنقي الروح، اقرئي فإنّ القراءة تُلغي الجاذبية الأرضية؛ فمن يقرأ يُصبح قادرًا على الطيران، ومن يطير يُصبح بإمكانه أن ينظر لوجه الحقيقة.. اقرئي لكي ينجلي الظلام ويُشرق النور، فالقراءة لا تجعلنا في انتظار من يُنير لنا عَتمتنا؛ إنها تمتص بُقعنا المظلمة وتجعل لنا أرواحًا مُضيئة، إنها دائمًا ما تجد طريقها نحو قلوبنا المُكبلة بأحزانها وعقدها النفسية، ترسم لها بالطبشور ابتسامة وأجنحة ثم تُطلقها كحمامة نحو الحُرية»

«حديثك هذا يذكرني بجدي إنك تُشابهه كثيراً بطريقة تفكيرك، وقد جاءتني فكرة رائعة.. أنا سأقابل جدي بعد قليل، ما رأيك أن أطلب منه مُساعدتك في تحقيق حُلمك بأن تُصبح كاتبًا؟!.. إنّه يحبني جدًّا ولن يرفض لي هذا الطلب!!»

«لا تفعلي أرجوكِ»

«لماذا؟!»

«إني لا أحب أن أكون ثقيلًا على أحد، وأخاف أن أكون مصدر إزعاج له لا أكثر؛ فجدك يا غيمة قد يرى أنّي لا أصلح لأن أكون كاتبًا، ولكنه يضطر لمجاملتي من أجلكِ»

جاءني ردها متأخرًا بعض الشيء:

« حسنًا كما تشاء.. سأغادر الآن المنزل فجدي ينتظرني بفارغ الصبر، وحين أنتهي من زيارته سأذهب للمقهى.. آآه تخيل كدتُ أنسى.. في حال قررتَ أن تخرج من المنزل أنصحك بأن تصطحب معك مظلة تقيك من المطر؛ لأن رسائلك هذه جعلتني أبتسم..»

***

ذهبتُ للمطبخ لأُعد لنفسي بعض الإفطار، وبينما أنا منشغل بذلك إذ سمعتُ باب المنزل يُفتح ثم يُغلق، ظننت أنّها مِس جاكلين، فقلت:

- أهلًا مِس جاكلين، سأُعد لكِ بعضَ الفطور معي.

لم تُجب فاعتقدتُ أنّها كعادتها كانت تضع السماعات في أُذنها؛ لذلك لم تستمع لما قلته لها.. ولم يأتِ في بالي أبدًا أنّي كنت مخطئًا في اعتقادي، وأنّ هناك مصيبة على وشك الوقوع بعد قليل..

فبعد نصف ساعة حين كنت قد انتهيتُ من إعداد الإفطار وقمتُ بوضعه على طاولة الطعام، سمعت باب المنزل يُفتح للمرة الثانية ثم يُغلق وحين نظرت باتجاه الباب وجدتها مِس جاكلين، فتعجبت حين رأيتها وتساءلت في نفسي: **إذا كانت مِس جاكلين لتوها قد عادت من الخارج، فمن ذاك الذي فتح الباب أول مرة ودخل للمنزل؟!**

قالت حين رأت علامات الحيرة على وجهي:

- ما بك؟!

- لقد سمعت الباب يُفتح قبل نصف ساعة، فظننت بأنه أنتِ..

- لا لم يكن أنا.. فأنا للتو قد عدت من الخارج..

كنت سأقول شيئًا ولكنّي قبل أن أتكلم كان هناك صوت نسائي غريب يُنادي باسمي من داخل غرفتي.. فتساءلت مِس جاكلين وهي تُقطب جبينها:

- هل بصحبتك أحد؟!

- لا ليس بصحبتي أحد..

- إذًا من هذه الفتاة التي تنادي باسمك؟!

قلت صادقًا: لا أعلم..

ذهبنا لنرى من تكون صاحبة ذلك الصوت، وحين فتحنا باب غرفتي وجدناها فتاة شعرها أشقر اللون وذات ملامح لطيفة، تجلس فوق سريري مرتدية لباسًا خليع، وقد عرفتُ بأنّها كانت ذلك الشخص الذي دخل قبل نصف ساعة للمنزل بينما كنت في المطبخ أُعد الإفطار..

فالت تلك الفتاة حين رأتني كما لو أنّها كانت تعرفني من قبل:

- ما بك تأخرت يا أحمد، هل الإفطار جاهز؟!

أمام دهشتي سألتني مِس جاكلين:

- من هذه الفتاة يا أحمد؟!

- آآ.. لا أعرف.. أنا لا أعرفها!!

قالت الفتاة وهي تنهض من مكانها بخفة وتقترب من مِس جاكلين، وتمد يدها لمصافحتها:

- أُدعى «آشلي».. لا بد أنّك مِس جاكلين، لقد حدثني عنكِ أحمد كثيرًا..

سألتها مِس جاكلين:

- ومن تكونين يا آشلي ؟!

أجابت وهي تنظر باتجاهي باسمة، وتعض شفتها السُفلى:

- أنا حبيبته، وقد أتيت إلى هُنا اليوم بناء على طلبه.

- طلبي أنا - قلتُ متسائلًا - هييي.. أنا لا أعرفكِ.

قالت آشلي وقد بدا أنها توشك على البكاء:

- أنت تُصر دائمًا على أن تُنكرني أمام الناس يا أحمد!!

قلتُ محتجًا:

- ولكنّي فعلًا لا أعرفك..

وهُنا بكت تلك الفتاة التي تدعي أنّها تعرفني، ويبدو أنّها ببكائها ذاك استطاعت كسب تعاطف مِس جاكلين التي قالت لها:

- توقفي عن البكاء يا عزيزتي آشلي.

- ولكنّه دائمًا يُنكرني أمام الناس، لا أدري متى سيتوقف عن هذه العادة السيئة، لماذا لا يبتعد عني ويتركني وشأني إن كنت أتسبب له بكل هذا الحرج؟!

سألتها مِس جاكلين:

- لقد قلتِ بأنّك جئتِ إلى هنا بناء على طلبه أليس كذلك؟!

هزت آشلي رأسها بعلامة «نعم»، فقالت لها مِس جاكلين:

- أنا أثق بأحمد لأني عشت معه قُرابة العام ونصف، ولكن أنا لا أعرفكِ قبل هذه اللحظة، فهل لديكِ دليل يُثبت صحة كلامك؟!

قلتُ سعيدًا بذلك الانتصار:

- نعم هل لديك ما يُثبت صحة كلامك هذا؟!

- نعم أملك دليلًا

قالت آشلي ثم أخرجت هاتفها النقال من جيبها، وأعطته لـ مِس جاكلين وهي تقول:

- انظري.. هذه رسالة أرسلها لي البارحة ليلًا يطلب مني فيها أن آتي للمنزل اليوم.

تناولت مِس جاكلين الهاتف وقرأت الرسالة:

«اشتقت إليكِ آشلي، تعالي لزيارتي غدًا صباحًا.. فـ مِس جاكلين لن تكون في البيت وسوف نستطيع أخذ راحتنا هُناك.. أحبكِ».

نظرت مِس جاكلين نحوي وقالت:

- إنها مُرسلة من رقم هاتفك..

نظرت لها بعينين مذعورتين وقلت:

- ولكنّي لا أعرفها صدقيني.. ولا أعرف كيف حدث هذا!!

قالت مِس جاكلين بنبرة وعيد:

- لا عليك أنا سأعرف..

ثم أخرجت هاتفها النقال وطلبت رقمًا ما.. في البداية لم أكن أعرف على من كانت تتصل بالتحديد ولكنّي عرفت حين سمعتها تقول:

- ألو.. أين أنتِ يا غيمة؟!

همستُ لها برجاء:

- غيمة لا!!.. لا تخبريها أرجوكِ!!

ولكنها أكملت متجاهلة رجائي:

- اتركي أي شيء من يدك مهما كان في غاية الأهمية وتعالي فورًا لمنزلي.. لقد كُنتِ مخدوعة طوال الوقت يا عزيزتي والآن انكشف الأمر..

لم يمضِ الكثير من الوقت حتى جاءت غيمة للمنزل مذعورة لا تعرف ما الذي كانت مِس جاكلين تعنيه حين قالت لها: «لقد كُنتِ مخدوعة طوال الوقت والآن انكشف الأمر».. ما أن دخلت غيمة حتى قالت وهي تنظر باتجاهنا:

- ماذا هُناك - ثم وهي تنتبه لوجود آشلي: ومن هذه الفتاة، ولماذا ترتدي هذا اللباس الخليع؟!

قالت مِس جاكلين:

- من الأفضل أن تسألي أحمد..

قلت مدافعًا عن نفسي:

- أخبرتكِ بأنّي لا أعرفها..

ردت مِس جاكلين:

- أنت كاذب..

أحسّت غيمة أنّ قدميها لم تعودا قادرتيْن على الوقوف، فاقتعدت الكنبة وقالت:

- فليشرح لي أحدكم ما الأمر..

قالت مِس جاكلين تشرح لها:

- إنّ هذه الفتاة تُدعى آشلي، ويبدو أنّ أحمد على علاقة معها.. لقد كان يكذب عليكِ طوال الوقت، ويوهمكِ أنكِ الوحيدة في حياته ولكن أمره كُشف أخيرًا..

ثم أخذت مِس جاكلين هاتف آشلي وأعطته غيمة وطلبت منها أن تقرأ الرسالة.. في البداية لم تُصدق غيمة تلك الرسالة فدخلت للمعلومات الخاصة بها لتتحقق بنفسها.. كان كُل شيء واضحًا بالنسبة لها، فالرسالة فعلًا قد أُرسلت ليلة البارحة من هاتفي.. نظرت باتجاهي وسألت بوجه مخذول:

- هل من أجل هذه الفتاة، قلت بأنّك لا تريد رؤيتي اليوم، وأنّك تريد تزجية الوقت بالقراءة وحزم حقائب السفر؟!

- غيمة صدقيني أنا والله لا أعرفها، ولم يسبق أن رأيتها من قبل.

كانت غيمة على وشك أن تُصدقني، لكنّ آشلي في اللحظة الأخيرة وبحركة درامية مُفتعلة كشفت عن عقدٍ ذهبي كان معلقًا في عُنقها.. وقد أثار ذلك العقد انتباه غيمة فقالت:

- مهلًا، دعيني أرى هذا العقد المُعلّق على رقبتك..

أخرجت آشلي العقد من عنقها وقالت وهي تمده لغيمة:

- إنّه هدية من أحمد، لقد جلبه لي من لوس آنجلس قبل عدة أسابيع..

لقد كان عقدًا ذهبيًا ينتهي بلؤلؤة منحوت بداخلها رسمة قلب، إنّه ذلك العقد ذاته الذي كانت غيمة قد شاهدته في واجهة عرض أحد محلات المجوهرات حين كُنّا معًا في لوس آنجلس..

توردت أرنبة أنفها، وامتلأت عيناها بالدموع، وغادرت دون أنْ تقول شيئًا؛ ذلك أنّ بعض الخيبات لا يملك المرء أمامها إلا الانسحاب بصمت..

لم ألحق بـ غيمة فماذا عسايَ أقول لها؟!.. لقد كانت الأدلّة الموجهة ضدي أكبر من أن أحاول الطعن فيها بمجرد الكلام.. نظرتُ نحو مِس جاكلين وقلتُ لها وأنا أُشير نحو آشلي:

- هُناك احتمالان إما أنْ تكون هذه الفتاة بارعة جدًّا في الكذب والتمثيل، وإما أنّها صادقة وأنا أُعاني من انفصام بشخصيتي.

فردت مِس جاكلين بحزم:

- وهُناك احتمال ثالث لم تقله

- ما هو؟!

- أن تحزم حقائبك الآن وتغادر هذا البيت فورًا، وأن لا تُريني وجهك أبدًا.. فأنت كاذب وأنا لا أتشرف بمعرفة شخص مُخادع يكذب على قلوب الفتيات مثلك..

كانت نبرة صوتها جادة للحد الذي أيقنت معه بأنّ فرصتي في إقناعها تكاد تكون معدومة؛ لذلك انسحبتُ عائدًا لغرفتي لأُلملمّ حاجياتي ثم أغادر.. وكانت تلك هي المرة الأخيرة التي أرى فيها مِس جاكلين.

بعد أن قامت مِس جاكلين بطردي من منزلها، لم أستطع أن أحادث عائلتي وأطلب منهم المال للانتقال للسكن في مكان آخر؛ إذ أنهم كانوا بالتأكيد سيسألوني مباشرة عن السبب الذي دفعني لتغيير السكن، وربما لا يقتنع أبي بالأسباب الكاذبة التي سأختلقها له فيقرر الذهاب للمكتب الذي نسق خطة الدراسة ويطلب منهم التحدث مع مِس جاكلين وسؤالها عن السبب وحينها سيُفتضح أمري..

فاضطررتُ أخيرًا للنزول بغرفة بائسة ورخيصة في أحد الموتيلات[1] المنتشرة في الطريق والتي كانت مخصصة غالبًا لاستراحة سائقي الشاحنات

مضى أسبوع كامل لم أحاول فيه الذهاب لغيمة أو الاتصال بها؛ فقد كنت أحتاج لدليل أُثبت لها به براءتي.. وهكذا لم يكن أمامي حل غير اللجوء لصديقي معاذ.. حاولت الاتصال به غير أنّ هاتفي لم يكن به رصيد كافٍ لإجراء المكالمة.. كنت أستطيع أن أشتري بطاقة شحن، ولكنّي فضلت أن أدخر المال القليل الذي بحوزتي للأيام القادمة..

كان منزل معاذ يبعد عن الموتيل قُرابة الساعة ونصف مشيًا على الأقدام، فذهبت أمشي إليه دون أن أتوقع رؤية الشيء الكبير الذي كان ينتظرني هُناك..

---

١ الموتيل هو عبارة عن: نُزل صغير يُقام غالبًا على الطرق العامة، وهو رخيص الإيجار نسبيًّا ومُعدّ في الأغلب لاستقبال النُّزلاء العابرين.

فما كدت أنعطف يمينًا عند نهاية الطريق حتى رأيتُ تلك الفتاة التي ادعّت أنها تعرفني «آشلي» وقد كانت للتو قد غادرت منزل معاذ..

اختبأتُ خلف جذع شجرة لكي لا تراني فتأخذ احتياطاتها وتخبر معاذ بأنّي كشفت أمرهما.. فأخذتُ أحدق فيها بحذر حتى رأيتها تصعد إلى سيارتها وتبتعد..

لم أكن بحاجة للكثير من الذكاء لأكتشف أنّ معاذ هو الذي كان يقف خلف إرسال آشلي، ثم وبقليل من التفكير توصلت للخطة التي استخدمها لتنفيذ مخططه حيث:

1- لم يحضر معاذ الحفل الذي أقامته غيمة لي بمناسبة القبول في الجامعة إلا من أجل شيء واحد فقط وهو الحصول على هاتفي..

2- في الحقيقة معاذ لم يطلب هاتفي من أجل الاتصال بأحد؛ بل من أجل إرسال رسالة لـ آشلي كان هذا محتواها:

«اشتقت إليكِ آشلي، تعالي لزيارتي غدًا صباحًا.. فـ مِس جاكلين لن تكون في البيت وسوف نستطيع أخذ راحتنا هُناك.. أحبكِ».

3- ثم وكحركة شطرنج قاضية كان معاذ قد ابتاع العقد الذهبي الناعم المُنتهي بلؤلؤة صغيرة منحوت بداخلها رسمة قلب والذي كان من المؤكد أنّه قد شاهد صورته سابقًا في أحد منشورات غيمة عبر صفحة حساب الفيس بوك الخاص بها، وقام بإعطائه لـ آشلي وطلب منها أن تتعمد إظهاره أمامها، وإخبارها بأني أنا من ابتاعها لها كهدية من لوس آنجلس.

طرقت باب منزله بكل قوتي حتى سمعت خطواته القادمة:

- من هذا الأحمق الذي يطرق الباب بهذه الطريقة؟!

وما أن فتح الباب حتى استقبلته بلكمة على وجهه جعلته يتراجع للوراء عدة خطوات.. ثم قمتُ بالاشتباك معه في قتال طويل لم ينتهِ إلا حين توقفنا وحدنا لفرط التعب..

بقيتُ أنا ومعاذ لوقت طويل ملقيَيْن على الأرض، مُتعبين من العراك تُغطي وجهينا الكثير الندوب وحبات العرق.. قلتُ لاهثًا:

- لماذا فعلت هذا معي؟!

لم ينكر؛ لقد عرف بأنّي رأيت آشلي تغادر منزله، قال ببرود:

- كل ما في الأمر، هو أنّي رددت لك صفعتك

- أي صفعة هذه التي تتحدث عنها؟!

- إخبارك غيمة بشأن خطبتي..

- ولكنّي لم أُخبرها..

- من اخبرها إذًا العصفورة؟!.. لا تكذب، فلا أحد بساندييغو يعرف هذا الأمر غيرك..

- ليست العصفورة، بل لسانك الذي يُصبح طويلًا أثناء الشُرب هو من فعل.. أنت من أخبرها بهذه الحقيقة يا معاذ من غير أن تنتبه..

لم يُعلّق وجعل ينظر نحو السقف بشيء من الشرود، كما لو أنه كان يخضع لجلسة سريعة يُحاسب فيها نفسه.. ثم سأل بجدية:

- لماذا أنت مُهتم لأمرها لهذا الحد؟!

- لأنّي أُحبها

- أنت لا تحبها، أنت تستخدمها لنسيان شخص آخر.

- كنت أعتقد مثلك في البداية، كنت أعتقد أنّي أستخدم غيمة فقط لنسيان خيبة سابقة، ولكن اتضح لي لاحقًا أنّي لم أُحبب سارة أصلًا

- ما الذي تعنيه بأنك لم تُحبب سارة أصلًا؟!

قلتُ شارحًا: **لقد كنتُ ملاصقًا لها منذ صغري للحد الذي لم يكن باستطاعتي فيه معرفة حقيقة شعوري تجاهها؛ فهناك علاقات لا نستطيع معرفة حقيقتها بشكل كافٍ إلا حين نُخضعها لاختبار المسافة، أنا لم أُحبها ربما كنتُ معجبًا بها لا أكثر؛ فهي الأُنثى الوحيدة التي كانت أمامي حين تفتّحت رجولتي.**

- وغيمة؟!.. ألا يمكن أن يكون شعورك تجاهها وهم أيضًا؟!

- إنها اليقين، وكُل ما عداها قابل للشك.

- ما الذي يجعلك متأكدًا لهذا الحد؟!

- لأنّي كُلما ابتعدتُ عنها، أشعر بأنّ روحي تكاد تُنتزع من جسدي أنا أُحبها، ولكنّي كنتُ طوال الوقت أخاف من الاعتراف لها، ذلك أنّ القدر صياد ماهر، يصطاد كُل شخص نعترف له بالحُب.

- لكنّك بهذا تُعرض نفسك لصدمة أخرى، فهذا الحب محكوم عليه بالموت قبل أن يبدأ؛ فأنت ستدرس الجامعة هُنا ثم تعود وتتركها خلفك.

- لن أتركها - ثم قلت معترفًا: **لأنّي قررت أن أتزوجها..**

متحسسًا جبيني قال: حرارتك عادية، ولكن يبدو أنّي لفرط ما أوسعتكَ ضربًا، أصبح لديك ارتجاج في عقلك، وبتَّ لا تدري ماذا تقول.

قلت وأنا أنظر إليه:

- إنّي معها لا أعرف كيف أتوقف عن الضحك، إنّي معها أنسى كم أنا وحيد وبائس وهش، إنّي معها لا أجد طريقًا للحزن أو الخوف أو القلق من شيء، إنّي معها لفرط الطُّمأنينة أشعر بأنّ الله راضٍ عنيّ، وهذه أمائر الحُب.

- لماذا تورطت بها لهذا الحد؟

- إنّ الحُب كالقدر، لا نختاره بل هو من يختارنا.

- وماذا تُريد مني الآن؟

- أن تُخبرها بالحقيقة، أن تقول لها بأنّك من أوقعني في هذا الفخ..

- وإذا قلت لك بأنّي لن أفعل؟!

- حينها لا أستطيع إجبارك.

صمت قليلًا يفكر بالأمر، ثم قال أخير متخذًا قراره:

- لن أُخبرها، ويُستحسن بك أن تُغادر قبل أن أطلب لك الشرطة.

قلت وأنا أنهض:

- لم أكن واثقًا من أنك ستُساعدني على كُل حال..

عدتُ ذلك اليوم للموتيل وبقيتُ وحدي أُقاسي مرارة الظلم والإقصاء والوحدة، وتوصلت إلى أنّه لا شيء أشد قسوة من أن تقرر فتاة نفيَك خارج أسوار قلبها، إنّه عقاب لا تتمناه حتى لأشد أعدائك كُرهًا.

16

بعد أيام من البقاء وحيدًا في الموتيل، وللحيلولة دون الإصابة بالاكتئاب قررت أن أذهب سيرًا على الأقدام لأحد متاجر الكتب القريبة لشراء بعض الروايات التي كنت قد خططت لشرائها سابقًا..

***

داخل متجر الكتب وفوق درجات السلم القصير والقابل للطيّ، كانت تقف بائعة الكتب على أطراف أصابعها تنفض الغبار المتراكم فوق سطوح الأرفف بواسطة منفضة ريش قصيرة، فيطفوا الغبار متطايرًا في ضوء الشمس، قلت لها بصوت خفيض كي لا أجرح وقار صمت المكتبة:

- من فضلك لو سمحتِ.

تركت البائعة من يدها منفضة الريش، ونزلت درجات السلم بخطوات متعجلة.. اقتربت مني وهي تكشف عن ابتسامة بشوشة تتوسط وجهها الأبيض المدور ذو الملامح الآسيوية:

- تفضل كيف أستطيع مساعدتك يا سيدي؟

مددتُ لها ورقة تحوي قائمة بأسماء الروايات:

- هل تتوفر هذه الكتب هنا من فضلك؟

ألقت نظرة خاطفة على العناوين وقالت بود:

- جميعها متوفرة، ارتح قليلًا ريثما أحضرها لك..

ما أن ابتعدت البائعة قليلًا حتى شقت صرخة مدوية وقار الصمت في متجر الكتب، وحين التفتُّ نحو مصدر الصرخة وجدت ثلاثة من حراس الأمن يمسكون بيد رجلٍ متقدم في العمر ويجرونه نحو الخارج..

كان رجلًا متوسط الطول يملك ملامح وجه ساخرة، وعينان تتقد مكرًا، ولديه جبين عريض وشعر رمادي اللون بدا وكأنه باروكة سيئة الصنع، وكان يملك شاربًا أبيض كما القطن تحت أنفه الكبير..

كان يقاوم حراس الأمن الثلاثة ويصرخ بإنجليزية غاضبة:

- كيف تجرؤون على حرمان رجل عجوز مثلي من رؤية أبنائه الجدد؟!

أذكر أنّ الفضول غمرني حينئذ: من هذا الرجل المتقدم في العمر؟!.. ولماذا يقوم حراس الأمن الثلاثة أولئك بحرمانه من رؤية أبنائه؟!

بعد لحظات جاءت البائعة تحمل في يدها سلة خشبية بداخلها كل الروايات التي كانت مسجلة في القائمة.. سألتني أن كنت أحتاج لشيء آخر وحين هززتُ لها برأسي نافيًا طلبت مني أن أتبعها نحو صندوق المحاسبة..

وقفتُ مكاني أراقب خطواتها وهي تبتعد.. كانت هناك فكرة تجول بخاطري مثل نسر يحوم فوق جثة، قلت لها أخيرًا قبل أن تبتعد أكثر:

- في الحقيقة نعم هُناك شيء أُريده

ألتفتت:

- تفضل يا سيدي؟

- الرجل الذي قام حراس الأمن بطرده للتو..

- نقدم لك اعتذارنا إن كان هذا الأمر قد أخافك

- ليس هذا ما قصدته.. كنتُ فقط أريد أن أعرف لماذا قام حراس الأمن بحرمانه من رؤية أبنائه؟

ابتسمت البائعة لسؤالي، وقالت موضحة:

- لا تشغل بالك، إنّه رجل مجنون يعتقد أنّ الكتب عائلته، وأنّ كل كتاب حديث الوصول بمثابة ابن جديد له، فيتحدث ويلعب مع الكتب مثل أب يُداعب أطفاله، وهذا الأمر كما تعلم يُثير فزع زبائن المحل لذلك قام حراس الأمن بطرده..

إن ذلك الرجل يُشبهني لدرجة التطابق، إنّه يكاد يكون صورة طبق الأصل مني حين أُصبح في مثل عمره، قلت:

- أريد رؤيتهم!!

- من هم؟!

- الأبناء

- أي أبناء؟!

- الأبناء الجدد لذلك الرجل!!

ضحكت بائعة الكتب معتقدة أنني أقول ذلك الكلام كنوع من السخرية لا أكثر، غير أنني قلتُ بجدية قاطعًا عليها ضحكاتها الساخرة:

- أنا جاد فيما أقول يا آنسة، أريد رؤيتهم.

أمام جديتي فيما أقول لم يكن أمام البائعة إلا أن تقوم بأخذي نحو رف الكتب الحديثة الوصول، لأشاهد هناك خمسة كتب قد نُصبَت أمامها لوحة مكتوب عليها: «وصل حديثًا»..

لم أكن حينذاك أملك ترف شراء الأشياء التي لم أكن قد خططت لشرائها سابقًا، فأصبحت أمام خيارين إما أن أشتري ما جئت من أجله، أو أشتري هذه الكتب الخمسة حديثة الوصول، قلت أخيرًا:

- سأشتري هذه الكتب من فضلك..

- ماذا عن الروايات التي كنت قد طلبتها؟!

- لقد غيرت رأيي..

وهكذا اشتريتُ الكتب الخمسة، ثم انطلقت للتفتيش عن ذلك الرجل، مُتمنيًا من كل قلبي أنْ أعثر عليه قبل أن يكون قد ابتعد كثيرًا.

***

لم أكن مُضطرًا للتفتيش عنه لوقت طويل، إذ أنّي لمحته وقد كان جالسًا فوق كرسي في أحد المقاهي القريبة.. جلست مُقابلًا له وأنا أقول:

- كيف حالك؟!

- أشعر برغبة في قتل أحد.

أحسستُ بقطرة عرق باردة تنزلق عبر عمودي الفقري إلى أسفل ظهري، ماذا لو كان هذا الرجل مُختلًا عقليًا؟!.. نهضتُ محاولًا الانصراف لكنّه أمسك يدي بقوة وسأل: لماذا لحقت بي إلى هنا؟

- لم ألحق بك.. لقد آآ..

- لا تكذب لقد لمحتك في متجر الكتب!!

مضغتُ ريقًا من الخوف وقلت:

- هل حقًّا تعتقد أنّ الكتب عائلتك؟!

- لماذا أنت مهتم، هل جئت لتسخر مني؟!

- لا، لم آتِ لأسخر منك..

- لماذا جئت إذًا؟!

- لأنّي مثلك، أعتقد أنّ الكتب عائلتي..

قال مُبتهجًا وهو يُرخي قبضته عن يدي:

- رائع لقد زاد المجانين واحدًا..

- أأنت سعيد لأنّ الناس يعتقدون أنّك مجنون؟

- نعم؛ فلا شيء أكثر حكمة من الجنون، مساكين أولئك الذين انتهت حياتهم وهم عُقلاء.

ابتسم شيء بداخلي؛ لقد كان ذلك الرجل المتقدم في العمر يُفكر بالعقلية ذاتها التي أُفكر بها، مددتُ له كيس الكتب الحديثة الوصول والذي كنت قد اشتريته له من المكتبة، ولكنه ما أن رأى ما بداخل الكيس حتى اختلفت تعابير وجهه..

فقد أصبح فجأة غاضبًا، كما لو أنّه تلقى شتيمة أوجعته، نهض من مكانه وقال قبل أن يغادر:

- هل هذه صدقة على فقير أثار شفقتك؟!.. أتظن أنّي ما كنت أستطيع شراءها؟.. لقد أتعبت نفسك يا هذا.. فأنا لم أكن أُريد إلا فقط أن آخذ حُريتي بالحديث معها في المكتبة..

وقبل أن يستدير ويبتعد قلت له بذات منطقه:

- لم أكن أرغب في شرائها، لكنّ الكتب طلبت مني أن آخذها إليك..

صمت لبعض الوقت دون أن تظهر على وجهه علامة تشي بحالته المزاجية، ثم همس متسائلًا وكأنه يريد أن يتأكد:

- هي من طلبت منك ذلك؟!

- نعم، فيبدو أنّكَ لست وحدك من يعتقد أنّ الكتب عائلته، إنّ الكتب أيضًا تعتقد أنها تنتمي إليك..

وكما لو أنّ كلماتي أصابت هدفها، عاد الرجل للجلوس فوق الكرسي المقابل، ثم قال وهو يُصافحني:

- **اسمي ميلاد..**

تحدثنا طويلًا في الكتابة والأدب ذلك المساء، ولم يمضِ علينا وقت طويل حتى شعرنا تجاه بعض بأنّا صديقان عزيزان التقيا بعد سنين عديدة من الفراق والقطيعة.. وفي ذلك اليوم تحديدًا أخذ العم ميلاد على عاتقه مهمة تعليمي الكتابة الأدبية، وكان ميثاق الشجرة والكاتب هو أول درس يُعطيني إياه، ثم توالت الدروس بعد ذلك..

17

السبت

12/ يونيو/ 2010

«قبل السفر للسعودية بخمسة أيام»

مساء ذلك اليوم.. وتحديدًا عند الساعة الخامسة وأربعين دقيقة أُضيئت شاشة هاتفي إثر اتصال غير متوقع من معاذ، وما أن أجبته حتى جاء صوته مذعورًا في السماعة:

- اترك أي شيء بيدك وتعال بسرعة!!

- ماذا هُناك، اهدأ لماذا تصرخ هكذا؟!

- أحمد.. لقد وجدوا غيمة مُلقاة على وجهها في مكان عام وبجوارها رسالة مكتوب عليها «تُسلّم لـ أحمد فقط».. أرجوك تعال بسرعة إنّ الوضع خطير جدًّا، والإسعاف في طريقه إلينا..

- أين أنت؟!.. أين وجدوها؟!

- في منتزه إيلين بارك، إنّها بين الحياة والموت!!

خرجت من غرفة الموتيل متجهًا بأقصى سرعتي نحو منتزه إيلين بارك، أجتاز الطرقات والشوارع المكتظة بالسيارات المسرعة دون أن أنظر يمينًا أو شمال، أقفز من رصيف لرصيف كشمبنزي يُلاحقه صياد..

حين وصلت لمنتزه إيلين بارك، كانت الشمس توشك على الغروب ولم يكن في المنتزه أحد غير معاذ الذي كان واقفًا وبيده ظرف مُلطخ ببعض قطرات حمراء، بدت وكأنها دم طازج:

- أين هي، لماذا لا أراها؟!

- لقد أخذوها للمشفى

قلت منفعلًا:

- أي مشفى؟!!

محاولًا تهدئتي:

- تماسك..

- قُل لي إنّها بخير يا معاذ!!

- لا أُريد أن أُعلقك بأمل زائف..

ثم قال وهو يمد لي الظرف الذي كان بيده:

- خذ إنّه لك من غيمة..

أخذت من يده الظرف وقلت بصوت خائف:

- ما هذا؟!

أجاب والحزن كامن في نبرة صوته:

- افتح الظرف واقرأ الرسالة التي بداخله، وستعرف كل شيء..

أخرجت الرسالة من داخل الظرف، لم يكن مكتوبًا فيها إلا كلمة واحدة فقط دون مزيد من الشروحات:

«موافقة»

نظرتُ لوجه معاذ مطالبًا إياه بتفسير فوجدته مبتسمًا دون أن يكون هناك سبب يدفعه للتبسم، ثم فجأة وفي تلك اللحظة ومن غير مقدمات أُضيء المنتزه بالكامل بواسطة شرائط إضاءة صفراء لم أنتبه إليها، كانت مُعلّقة بجذوع أشجار النخيل العالية المنتشرة بكثرة على طول امتداد منتزه إيلين بارك..

أصبح المنتزه يشعُّ بإضاءة صفراء بهيجة، والسماء مكتسية بلون بنفسج ما قبل الغروب، ونسيم البحر البارد ممتزج برائحة العشب المقصوص لتوه، .. ثم فجأة خرج أصدقاء المعهد تباعًا من مخابئهم يصرخون بصوت واحد:

«مبروووووووك»

أما أنا فإني بوجه أبله لا يعرف هل يضحك أم يستسلم للبكاء، نظرت نحو معاذ متسائلًا:

- ماذا هُناك؟!.. ما الذي يحدث؟!

- ألم تقل بأنّك تريد الزواج من غيمة؟!

هززت برأسي، فقال وهو يشير نحو الرسالة:

- إنها تقول لك بأنّها موافقة..

- ما زلت لا أفهم شيئًا!!

- انظر خلفك وستفهم كُل شيء..

وحين التفتُّ للخلف وجدت غيمة وقد كانت ترتدي فستانًا أبيض اللون بسيط، وتسير نحوي بخطوات متمهّلة تناسب الإيقاع البطيء لأغنية: "killing me softly" المنبعثة من مكبرات الصوت..

ثم فجأة لاحَ سرب من طيور الحمام في السماء جاءت لتزف أختها؛ ذلك أنّ غيمة كانت حمامة السلام التي في أزمنة الطوفان، عادت لسفينة نوح وغصن شجرة الزيتون في منقارها..

قال معاذ موضحًا بينما كانت غيمة لا تزال تقترب:

- لقد ذهبتُ واعترفتُ لها بكل شيء.. ثم أخبرتها بحقيقة شعورك تجاهها وأنك ترغب في الزواج منها..

«نعم كنت أُريد الزواج منها ولكن ليس قبل أن أُخبر عائلتي بالأمر»

قلت له محاولًا التأجيل لوقت آخر:

- ولكنّ الزواج يتطلب حضور مأذون شرعي، وولي أمر وشهود.. ولن يكتمل الزواج من غير هذه الاشتراطات؟!!

لم يفهم مغزى ما كنت أرمي إليه، أجاب وهو يُشير بيده نحو شخص لديه لحية خفيفة كان يقف بعيدًا ويمسك في يده بعض الأوراق:

- ذلك هو المأذون الشرعي الذي سيعقد قرانكما، وبالنسبة لوليّ الأمر فـ سام أخو غيمة هو وليّ أمرها وهو موافق.. وبالنسبة للشهود فسأكون فخورًا جدًّا وأنا أشهد على زواجكما، وسنختار أحد أصدقاء المعهد ليكون شاهدًا آخر..

لقد وجدت نفسي أمام الأمر الواقع، ولم تكن هناك طريقة لتأجيل الأمر ريثما أطلب مشورة عائلتي، لذلك كان يجب عليّ أن أتجرد قليلًا من ترددي وأحاول السباحة مع التيار:

- ولباسي هذا، إنّه لا يصلح أن أتزوج فيه

- أعرف ولكن انظر للجزء الممتلئ في الكأس، ستكون هذه الصورة ذكرى رائعة يضحك عليها أبناؤكما لاحقًا..

- معاذ!!!!

- حسنًا، حسنًا أمزح لقد تدبرت هذا الأمر لا تقلق

- ماذا فعلت؟!

- تعال معي..

سحبني معاذ من يدي نحو مواقف السيارات، بعد أن استأذن من الجميع وأخبرهم بأننا سنعود بعد قليل إليهم.. كان قد أحضر معه بدلة التوكسيدو تلك التي ابتاعها لي كهدية، والتي كنت قد أعدتها إليه في وقت سابق وقال وهو يمدها لي:

- هيا بدِّل ملابسك..

- هنا في مواقف السيارات؟!

- لا تقلق لن يراك أحد غيري

- هذه مصيبة أكبر!!

- لماذا ألست واثقًا من نفسك؟!

- معاذ!!!!

- حسنًا، حسنًا سوف أُدير وجهي للجهة الأخرى.

ارتديت البدلة على عجل، وقمت بتبليل شعري ببعض الماء، ثم مفففته بأصابع يدي وأنا أنظر لصورتي المنعكسة على زجاج نافذة إحدى السيارات، وحين انتهيت عدت للمكان الذي كانت غيمة تنتظرني فيه..

ورغم أننا كنا في مكان مكشوف، والأصدقاء كانوا يُحيطون بنا من كل حدب وصوب.. إلا أنّي للحظات شعرت بأنّ المكان خالٍ إلا مني ومنها..

وقفت أتأملها من بعيد، لقد بدت في ذلك المساء مُفرطة في الجمال للحد الذي قد يتساءل معه المرء حين يراها في نفسه: من أيّ سحابة خير هطلت؟! من أيّ كوكب بعيد جاءت هذه الفتاة؛ لأنّ مثلها لا يمكن أن تلدها امرأة على كوكب الأرض..

كنتُ ضعيفًا وبحاجة لحائط أستند عليه، كنت سأسقط من فرط الخوف عليها ولشدة الحنين، فركضت نحوها لأشدد بعناقها أزري، وحين عانقتها، قال لقلبها قلبي:

«رُدني إليك.. منفيٌّ أنا دونك من هذا العالم ولا أملك ملاذًا غيرك ألجأ إليه»

***

لقد كانت فتاة ملائكية تفوح من أعطافها رائحة السنابل والغيوم والسحاب، وكان يكفيها فقط أن تنفض الغبار عن فستانها الذي ترتديه لتضاعف أعداد النجوم والكواكب في السماء:

- أنا أُحبكِ.

مُعجزة الحُب هو أنّه قد يمنحنا القدرة على الطيران دون أن يكون لدينا أجنحة؛ أنّ الذي يقول أُحبك ولا يطفو بجسده فوق الهواء، لا يكون صادقًا في حُبه..

قلت وأنا أشعر بأنّي أرتفع:

- إنّي أُحبكِ لأتطهر، لأغتسل من ذنوبي، وأعود نقيًّا كيوم ولدتني أمي..

أمام حيائها، أكملتُ قائلًا:

- أنتِ أكثر شخص أحببته في حياتي، أعلم بأنّي لا أزال صغيرًا، لكنّي متيقن من أنّي سأظل أُحبكِ بهذا العمق لآخر يوم في حياتي..

قالت:

- لقد تشبثتُ بك كغريق يُمسك طوقًا، لا تتركني فتلقى الله وفي عُنقك نفسًا؛ فأنت الطوق وأنا بدونك أغرق.

- لقد ملأتِ روحي، ملأتِها للحد الذي لن تجد فتاة بعدكِ موطئ قدم فيها.. أنتِ الفتاة التي خلقها الله من ضلعي.

رددت ورائي كما لو أنّ تلك الجملة كانت قسمًا أبديًّا بيننا:

- لقد ملأتَ روحي، ملأتَها للحد الذي لن يجد رجل بعدك موطئ قدم فيها.. أنت الرجل الذي خلقني الله من ضلعه.

في ذلك اليوم تم كتب كتابي عليها بحضور وموافقة أخيها سام وبشهادة معاذ وأحد أصدقائنا في المعهد.. وهكذا أصبحت غيمة زوجة لي في الشرع وأمام الله..

حين انتهت لاحقًا مراسم الفرح، كنت محرجًا جدًّا من فكرة أنّ أصطحب غيمة معي لذلك الموتيل الرخيص، فقلت لها بأن تذهب لمنزلها وبأنّا سنلتقي غدًا، ولكنّها كانت أكبر من أن تلتفت للأشياء الصغيرة، فقالت غير مكترثة بكونِها عروسًا جديدة:

- سآتي معك، حتى لو أخبرتني بأنّك ذاهب نحو الموت أو بأنّ الجحيم سيكون محطتك القادمة.

وهكذا قضينا تلك الليلة داخل غرفة متواضعة أسفل الدرج، تُحيط بنا جدران غير عازلة للصوت في موتيل رخيص مُخصص لسكن سائقي الشاحنات..

***

استيقظتُ باكرًا في اليوم التالي وقلق كبير يتملكني تجاه ردة فعل والدَيّ، فكرت في البداية أن أخفي عليهما الأمر، ولكن شيئًا كهذا لم يكن بالإمكان إخفاؤه.. تُرى هل سيصدقان أن كل شيء حدث دفعة واحدة؟!.. وأنّي ما كنت أريد الإقدام على فعل شيء كهذا قبل أن آخذ إذنهما؟!

كانت غيمة تنام بوضع جنيني وبأناقة فتاة تخضع لجلسة رسم بورتريه، وكان مجرد النظر لوجهها المُسالم وهي غافية يُعين على تخفيف حدة القلق الجاثم في قلبي..

أفاقت بعد ساعة ونصف، وحين نظرت لمكاني بجوارها وجدته فارغًا، فأطلّت من نافذة الغرفة ورأتني وقد كنت جالسًا فوق الرصيف الموارب للموتيل..

بدَّلَت ملابسها ثم جاءت لتجلس إلى جانبي، مضى بعض الوقت دون أن نقول شيئًا، وفي الحقيقة هي لم تكن بحاجة للتحدث معي كي تفهم ما فيني، كان يكفيها فقط أن تنظر لعينيّ لتدرك ما أرغب بقوله، هي نفسها كانت دائمًا تقول: «أُحب النظر لعينيك لأنّهما تقولان ما لا تبوح به»

قالت لتفتح الموضوع معي:

- لقد كانت نومتك عصيبة..

- ماذا تعنين؟

- لقد تحدثت كثيرًا خلال نومك، يبدو أنّك خائف من ردة فعل عائلتك، فقد كنت طوال الوقت تتشاجر مع والديك في أحلامك..

قلت معترفًا:

- إنّي فعلًا أشعر بالقلق حيال هذا الأمر.

- هل تشعر بأنّك تسرعت في الزواج؟!

- لماذا تقولين هذا؟!

- لا أقول شيئًا، أنا فقط أتساءل.

قلتُ بصدق:

- الزواج منكِ كان أكثر شيء صائب قمت بفعله في حياتي..

- ماذا بك إذًا؟!

- كل ما في الأمر أنّي خائف من ردة فعل والديّ

- إنها حياتك يا أحمد، لماذا تخاف لهذا الحد؟!

- أنتِ لا تفهمين كيف تسير الأمور هُناك.. هُناك تستطيعين اختيار كُل شيء إلا الزواج.. إنّه أمر متروك لموافقة العائلة والقبيلة..

قلت ذلك ثم نهضت من جوارها متجهًا نحو الموتيل بخطوات شاردة، هتفت متسائلة:

- إلى أين؟!

- سأحزم حقائبي، فالسفر بعد ثلاثة أيام..

- هل تريد مني أن آتِيَ معك؟!

- لا تتعبي نفسكِ، أستطيع أن أحزم حقائبي وحدي.

- كنت أقصد السفر..

التفت إليها متفاجئًا مما سمعت، فقالت:

- هل تريد مني أن أُسافر معك؟!

- هذا سيكون أفضل؛ فبهذه الطريقة أستطيع أن أضع عائلتي أمام الأمر الواقع.. وتكون عملية إقناعهم أسهل..

- إذًا سآتي معك، بالإضافة إلى أنّي منذ زمن بعيد وأنا أنتظر اللحظة المناسبة لرؤية أمي، وأظن أنّ اللحظة المناسبة قد جاءت أخيرًا.

قلت مستدركًا أمرًا هامًّا:

- ولكن ماذا عن سام؟!

أجابت بهدوء ورباطة جأش:

- لا عليك ستتحدث معه، ونُقنعه.

***

في ذلك المساء ذهبنا لأخيها لسام من أجل محاولة إقناعه بسفر غيمة، غير أنّه رفض الفكرة بشكل قاطع وهددها بقطع العلاقة معها إن سافرت، ولكننا ما أن خرجنا من هناك حتى قالت غيمة بأنّها لن تكترث لتهديده وأنّها ستسافر، فقلت لها محاولًا عدم إفساد علاقتها به:

- لا أعتقد أنّه خيار صحيح؛ فأخوكِ سيقطع علاقـ..

قاطعتني قبل أن أُكمل:

- سنبحث لاحقًا عن الخيارات الصحيحة، كل ما يُهم الآن هو أن أفعل أيّ شيء لتكون سعيدًا..

كانت أذكى من أن تأخذ تهديد أخيها على محمل الجد؛ فهي تعلم بأنّ الأخ اتكاؤها ومتكؤها في الأوقات الصعبة، وأنّه قطعة ذهب لا يمكن أن تتسلل إليه بقع الصدأ..

18

خمسة وثلاثون ألف قدم فوق سطح البحر

خط سير الرحلة: سانديبغو/ واشنطن/ جدة.

في الحُب ليس ثمّة من يستطيع مُقارعة امرأة في شجاعتها، هذا ما كنتُ أدركه بينما الطائرة تمخر عباب السماء مُتجهة بنا نحو ساحة المعركة..

كنت خائفًا جدًّا ومتشائم وقلقي يتضاعف مع كل ساعة نقترب فيها أكثر.. مدّت غيمة يدها وأمسكت بيدي:

- لا تقلق، كل شيء سيكون على ما يرام.

كانت مسكة يدها تلك كفيلة بأن أجتاز بها قلقي، قالت:

- أتعلم لماذا خُلقت أصابعنا مُتفرقة؟

- لماذا؟!

- لتملأها أصابع من نُحب.

- أخاف أن يقفوا ضدي يا غيمة.

- ولو وقف العالم كله ضدك، لا تخف لديك أنا..

متشعبةٌ هي بداخلي كشجرة سدر عتيقة مدت جذورها منذ آلاف السنين، إنّ محاولة اجتثاثها من تُربتي تعني الموت لكلينا؛ وعدتها بأنْ لا يُزرع في تربتي غيرها، فوعدتني بأنْ لا تُغرس أبدًا في تربة أحد..

ثم ولتزجية الوقت طلبت من مُضيفة الطائرة أن تُحضر لنا ورقة وقلم، فغابت عنا المُضيفة قليلًا قبل أن تعود لنا بما طلبته منها..

أخذتُ أُخطط الورقة بأعمدة طولية وعرضية دون أن أشرح لغيمة ما أنا فاعل، ولكنها لم تُطق مع الصبر احتمالًا، فقالت متسائلة:

- ما هذا.. هل هذه لعبة؟!

- بل سنخترع حروفًا لا يعرفها إلا أنا وأنتِ.

- هل تقصد لغة مُشفرة؟

- بالضبط.. إنّها حروف لا يستطيع غيرنا فكّ شيفرتها؛ فيصبح بإمكاننا كتابة الرسائل لبعضنا بها فلا يفهم غيرنا معناها، وسيكون اسمها **لغة الغيوم**..

مكثنا أولًا لمدة نصف ساعة نكتب القواعد النحوية للغة الغيوم، وخرجنا بثلاث قواعد نحوية فقط:

1- أن تُكتب الكلمات من اليمين للشمال كما اللغة العربية..

2 - أن تُكتب الكلمات بحروف غير مُتصلة.

3 - أن نضع نجمة فاصلة بين كُل كلمة وأُخرى حتى يُصبح من السهل قراءة الكلام المكتوب..

ثم حين انتهينا من تأسيس قواعد النحو، كان يجب علينا البدء في اختراع أشكال لحروف تلك اللغة.. فقمنا أولًا بتوزيع حروف اللغة العربية أمامنا في الورقة ثم أخذنا نقوم بتحريف أشكالها معًا بحيث لا يستطيع أي شخص غيرنا قراءتها..

وحين انتهينا أخذت غيمة من يدي القلم، وقالت بأنّ لديها سرًا سوف تكتبه بلغة الغيوم.. كنتُ أراها تكتب بتركيز عالٍ وكأنها تحل مسألة معقدة، وحين أنتهت مررت لي الورقة وقالت:

- هذه هي الأمنية الثالثة التي كنتُ قد وعدتك بأن أُخبرك بها.

أخذت أقرأ متهجئًا الحروف:

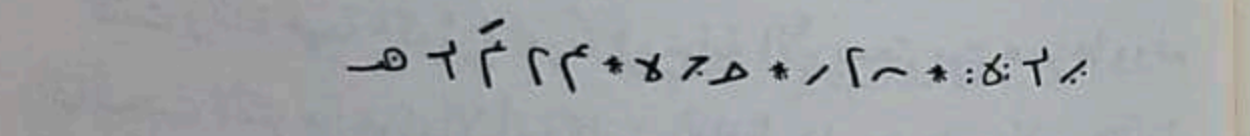

حين نظرت إليها بعد أن انتهيت من قراءة الكلام الذي كتبته، وجدتها وقد كانت تتظاهر بأنّها مُنشغلة في النظر للسُحب من خلال نافذة الطائرة.. وفي الحقيقة ما كانت تفعل ذلك إلا فقط لكي لا أنتبه لحُمرة الخجل المُعتلية وجنتيها..

19

مطار جدة الدولي،

بعد 16 ساعة من التحليق جوًّا

كان في انتظارنا أمام بوابة الوصول امرأة ترتدي عباءة سوداء لا يظهر من جسدها إلا كفَّاها وبياض وجهها، ما أن رأتها غيمة حتى أفلتت من يدها حقيبتها وراحت تركض نحوها وتعانقها بحرارة أدركتُ من خلالها بأنّ تلك المرأة هي والدتها..

كانت والدة غيمة «كوثر» امرأة في نهاية الأربعين من عمرها ورغم أنّها أنجبت لأكثر من مرة، إلا أنّها كانت تحافظ على جسد رياضي متناسق يُعطيها منظرًا أصغر من عمرها الحقيقي..

حين انتهى العناق وجففت الاثنتان من أعينهما دموع الفرح، وجاء دوري لأُلقي السلام، قالت غيمة تقدمني لوالدتها:

- هذا أحمد يا أمي، زوج ابنتك..

وضعتُ قبلة على رأس الخالة كوثر تقديرًا لها.. ثم وقبل أن نغادر المطار قامت الخالة بإعطاء ابنتها كيسًا ما وقالت لها:

- لقد أحضرت لك عباءة لترتديها، فهنا لا يُسمح لكِ بالخروج للشارع دون ارتدائك العباءة..

تناولت غيمة الكيس من يد والدتها، ثم ذهبت لأقرب دورة مياه حتى ترتدي العباءة بالشكل الصحيح أمام المرآة.. ولكنها ما أن ابتعدت وأصبحت خارج مجال السمع حتى انتهزت والدتها الفرصة لتُسقط قناع الطيبة الزائف عن وجهها وتقول بجلافة:

- ما كان يجب عليك أن تُقدم على الزواج من ابنتي..

لم أستوعب ما قالته في البداية؛ فابتسمت بوجهها تحسبًا لأن يكون ما قالته ذاك دعابة لم أفهم معناها.. غير أنها قالت قاطعة الشك باليقين:

- يجب أن تعرف أنّي لستُ راضية عن هذه الزيجة، ولكنّي أتصنّع الرضا من أجل أن أكسب ودّ غيمة.. قل لي ماذا تعمل الآن؟!

- آآ أنا.. أنا طالب في الجامعة

- ومتى ستُنهي دراستك؟!

- في الحقيقة لم أبدأ الدراسة بعد، فالجامعة ستبدأ بعد شهرين..

قاطعتني:

- وكم من المدة ستحتاج لتُنهي دراستك؟

- أربع سنين.. تقريبًا

- وفي هذه السنين الأربع كيف ستصرف على ابنتي؟!.. كيف ستوفر لها متطلباتها؟ أين ستُسكنها؟.. ماذا ستفعل عندما تُخبرك بأنّها تحتاج لشيء ما لا تستطيع أنت توفيره لها؟!

لم أكن أعرف بماذا أُجيبها، فمن جهة كنت لا أزال تحت تأثير صدمة كلامها الجريء، ومن جهة ثانية كان كلامها صحيح نوعًا ما.. أكملت:

- أنتم الشباب متهورون ولا تُحكِّمُون عقولكم في أمور حياتكم.. إنكم تعتقدون أنّ الحُب يكفي، ولكن في الحقيقة الحُب لا يشتري خبزًا ولا يجلب الماء!!

- أنا.. آآآ

- أنت كان ينبغي لك أن تعيَ جيدًا مسؤولية ما أقدمت عليه، قبل أن تورط ابنتي معك في هذه المغامرة غير محسوبة العواقب..

صحيح أنّها كانت قاسية معي، ولكنّي كنت أعذرها لأنّي كنت أتفهم سبب قسوتها تلك.. قلت محاولًا طمأنتها:

- سيتكفل أبي بالصرف علينا إلى أن أتخرج من الجامعة وأحصل على وظيفة تضمن لنا حياة طيبة..

لم تقتنع بكلامي ذاك، ولكنها لم تكن تملك شيئًا آخر لتفعله، فأنا وغيمة تزوجنا وانتهى الأمر.. هزّت رأسها وقالت بقرف:

- عمومًا حين تأتي عائلتك في الأيام القادمة لزيارتنا سنتحدث بهذا الشأن.

- ولماذا قد تأتي عائلتي لزيارتكم؟!

- من أجل أن نتفق على أمور الزواج والفرح؟!

- ولكننا قد تزوجنا أنا وغيمة بالفعل..

- ولكنّ أخوالها لا يعلمون بذلك، ويجب أن لا يصلهم خبر حتى لا يقوموا بأذية غيمة وأذيتك، فأنت تعرف عاداتنا وتقاليدنا وتعرف كيف تسير الأمور هنا.. لذلك يجب أن تأتي مع عائلتك وتتقدم لخطبتها وكأنه لم يسبق لك أن عرفتها من قبل.. مفهوم؟!

لقد تعقدت القصة أكثر مما ظننت، أومأت لها برأسي وقلت بصوت خافت: «نعم مفهوم».. ثم وفي تلك اللحظة جاءت غيمة ترتدي عباءة سوداء فضفاضة، وقد بدا شكلها مُضحكًا كدمية متحركة..

كنتُ حريصًا على أن لا تكتشف شيئًا يُثير غضبها تجاه والدتها؛ لذلك جاهدت لأصطنع ابتسامة زائفة أُخفي خلفها ما حدث قبل قليل..

***

أمام بوابة المطار كان ثمّة سيارة فارهة تنتظر غيمة ووالدتها.. استأذنت منهما قائلًا بأنّي سأستقل سيارة أجرة تأخذني للمنزل.. وهُنا وقبل أن تتكلم غيمة قالت الخالة كوثر بصوت يفوح منه النفاق:

- تعال معنا نوصلك لمنزلك؛ فأنت زوج ابنتي وبمثابة ابني..

ارتسمت على وجهي ملامح الدهشة مما سمعت.. طوّقتْ غيمة يدي وهمست: لا تخجل إنها تحبك كثيرًا وسيكون من دواعي سرورها أن تجعل سائقها الخاص يُقلّك لمنزلك..

20

الخميس،

جدة،

17/ يونيو/ 2010

في آخر الشارع الطويل من الحارة ذات الطرقات الضيقة، تظهر السيارة الفارهة.. يجلس في مقعدها الخلفي الخالة كوثر، وابنتها غيمة وزوج ابنتها ذاك الذي قبل أربعة أعوام كان يقود سيارته القديمة «كرسيدا موديل 1995» على نفس الطريق وهو عائد من المدرسة وفي يده ملف أخضر بداخله أوراق كثيرة من ضمنها شهادة تخرجه من الثانوية العامة..

طلبت من السائق أن يتوقف بعيدًا لكي لا يراني أحد وأنا أهبط من السيارة، ثم سرت على أقدامي نحو البناية رقم 37.. صعدت سلالم الدرج محاولًا أن أُخفي على الجميع قلقي، فُتح باب البيت وكان والدايَ في انتظاري وعلى وجهيهما ابتسامة دافئة..

***

مضى أسبوع كامل دون أن أفتح موضوع الزواج معهما، وكانت غيمة كلما سألتني عن الأخبار أقول لها كاذبًا لكي لا أُقلقها، بأنّ والديّ تقبلا الفكرة مبدئيًا وطلبا منّي أن أُعطيهما مهلة للتفكير..

ثم ولكي أُبعد الشكوك عني فلا تكتشف غيمة كذبتي، فإني قُمت ذات مرة بإرسال باقة ورد حمراء لها مكتوب على بطاقتها بلغتنا المشفرة:

«هذه الورود البيضاء لكِ» ..

جاءني ردها بعد قليل: «ولكنها ورود حمراء، وليست بيضاء»

فكتبت لها: «لقد جلبت لكِ باقة ورود بيضاء، ولكن ربما احمرّت خجلًا حين رأتكِ»

***

كنت أعرف أنّ الكذبة لن تستمر طويلًا، وأنّه سيجيء الوقت الذي سأكون مضطرًّا فيه للمواجهة.. وفعلًا جاء ذلك الوقت أسرع بكثير مما توقعت، حيث تلقيت اتصالًا من الخالة كوثر تقول فيه:

- إما أن تأتي أنت وعائلتك بسرعة وإلا فسينتهي الذي بينك وبين غيمة نهائيًا.. وأنا جادة فيما أقول.. لقد أخبرت أخوالها بأنّ هناك من سيتقدم لخطبتها ويجب أن لا تتأخر..

- لا عليكِ سنأتي في أقرب فرصة..

قالت قبل أن تُغلق الخط في وجهي:

- اسمع يا أنت.. غيمة الآن ليست حُرة كما كانت هناك.. هنا أستطيع حرمانها من رؤيتك بشكل نهائي.. فيجدر بك أن تأخذ الأمور بجدية وتتحرك بسرعة.

في الليلة ذاتها وعلى طاولة طعام العشاء وبينما كنت أنتظر الوقت المناسب لفتح الموضوع، إذ سألني والدي عن التخصص الذي سأدرسه فقلت له بأنّي أرغب في دراسة الأدب، ثم سألني عن المدة التي سأحتاجها لأُنهي دراستي فأخبرته أنني في أفضل الأحوال قد أحتاج من ثلاث سنوات ونصف إلى أربع سنوات.. فقالت والدتي وهي تحتسي الشوربة:

- إنها مدة طويلة يا بني..

علّق والدي:

- ليس إن قضاها بصحبة زوجته - ثم أضاف وهو ينظر نحوي: لقد أصبحتَ في سن الزواج يا أحمد، ويجب عليك أن تتزوج..

قالت والدتي مؤيدة ذلك الاقتراح:

- كم أتمنى أن أراك تُزف بجانب عروستك..

كنت أعلم بأنها فرصة مناسبة، ولكنّي كنت أجبن من استغلالها وقررت تأجيل فتح الموضوع لوقت آخر، غير أنّي تذكرت تهديد الخالة كوثر فقلت:

- في الحقيقة هُناك فتاة..

تعلقت أبصارهما في وجهي ينتظران مني أن أكمل الجملة.. لم أكن أريد أن أقول لهما بأنّي تزوجت، وفضّلت أن أخبرهما تدريجيًّا بذلك الخبر، أكملت قائلًا: **هُناك فتاة أُريد الزواج منها.**

بفرح بريء سألت أمي:

- هل هي واحدة من أقربائنا؟

- لا، ليست من أقربائنا، إنها من خارج مُحيط عائلتنا..

ترك والدي من يده ملعقة الطعام، وكأن الموضوع قد بدأ يُثير استهجانه..

كان الطقس بيننا متوترًا للغاية ولكنّي ما أن هممت بذكر اسمها حتى وجدت نفسي أتبسَّمُ رغمًا عني:

- اسمها غيمة وهي فتاة سعودية الأصل ولكنّها عاشت مع عائلتها طوال عمرها في أمريكا.. لقد تعرفت عليها أثناء فترة سفري، وأريد أن أقضي بقية عمري معها..

قطبت أمي جبينها وهي تتساءل باستنكار:

- ما هذا الكلام يا أحمد؟!.. أأنت جاد فيما تقول؟!

- كل الجدية يا أمي..

همس والدي باستياء وهو ينظر لها: يبدو أننا تعجّلنا كثيرًا حين قررنا إرسال ابنك للخارج يا مريم، يبدو أنّ الغربة قد أثّرت بعقله، وجعلته يقول كلامًا لا يعرف مدى خطورته..

- أنا لم أطلب شيئًا منافيًا للدين يا أبي.

- ولكنّك تطلب شيئًا مُنافِيًا لعاداتنا وتقاليدنا.

- نستطيع القفز من فوقها، إنّ العادات والتقاليد أسوار سخيفة قمنا نحن ببنائها ثم وجدنا أنفسنا محبوسين كالمساجين بداخلها!!

ضرب والدي طاولة الطعام بيده وقال:

- لن أسمح أن يُقال بأنّ ابنتي تزوج بفتاة التقاها في الشارع..

- لم ألتقِ بها في الشارع يا أبي!!

- كيف تفكر بالزواج منها، نحن حتى لا نعرف عائلتها!!

- أنا سأتزوجها هي، ولن أتزوج عائلتها!!

- ألغِ هذه الفكرة من رأسك، قبل أن أفصل رأسك عن جسدك

تدخلت والدتي بيننا:

- اهدأ يا عبد الله، اهدأ وسيعود ابنك لصوابه

كان يجب عليّ أن أصمت حينها وأنسحب لأعاود فتح الموضوع معهما في وقت لاحق، لكنني ما كنت في وضع يُتيح لي فيه التفكير بحصافة..

قلت:

- إن كان هُناك من يجب عليه أن يعود لصوابه فهو أنتما.. إنّ الزواج أكبر من أن يتم اختيار الشريك فيه بسبب جماله، أو بسبب عائلته..

- لا تقلق سأختارها لك فتاة ذات أخلاق حميدة..

- ستعرفين الجمال في لحظة يا أمي، ولكنكِ لن تعرفي أخلاقها في تلك اللحظة، ولن تعرفي إذا ما كانت أفكارنا ستتوافق أم لا.

- كلامك غريب يا ولدي..

قال أبي مُتدخلًا يحادث أمي:

- لقد لعبت تلك الفتاة بعقله ولن يُجدي كلامكِ معه نفعًا يا مريم.

- أنا لست صغيرًا، ولم يلعب أحد بعقلي يا أبي..

رد والدي حينها بتعليق يُشبه طعنة في الظهر:

- إنّ فتيات الليل، يُجدن اللعب بعقول زبائنهن يا ولدي..

صرخت في وجهه فاقدًا السيطرة:

- أبي!!!.. انتبه لما تقول، أنت تتحدث الآن عن زوجتي!!

صدمة كبيرة ظهرت على وجه أبي، وخيبة أكبر على ملامح وجه أمي.. انتشر بيننا تيار مشحون كنّا نستطيع لفرط كثافته أن نراه بالعين المجردة.. همس والدي بصوت خرج من حلق جاف:

- زوجتك؟!

- نعم، لقد تزوجتها هُناك.

- كيف؟!.. من سمح لك؟!

- أنا سمحت لنفسي؛ إنّها حياتي الخاصة.

تدخلت والدتي:

- لماذا فعلت هذا يا بني؟!

كان عذري ربما سخيفًا لهما، لكنه عظيم عندي:

- لقد أحببتها.

- ولكنّ الحب وحده ليس سببًا يكفي للزواج.

كنت أعلم بأن هناك فتاة نُحبها ولكننا لا نستطيع الزواج منها، وبأن هناك فتاة نتزوجها ولكننا لا نستطيع أن نُحبها.. كما كنت أعلم جيدًا بأن المحظوظ منّا فقط هو من يعثر على فتاة صالحة للحُب والزواج، ووحده الأحمق هو من يُفرّط في تلك الفتاة حين يلقاها.

همس والدي قاطعًا حبل أفكاري:

- المُهم أن لا يعرف أحد من أقربائنا بهذا الأمر، حتى لا تصبح ساقطًا في أعينهم - ثم أردف بغضب والشرر يتطاير من عينيه: لقد خذلتني..

كنت أريد أن أدافع عن نفسي، لكنه أغلق الطريق في وجهي حين نهض عن طاولة الطعام وهو يوجه أمره لي قائلًا:

- أنت سوف تطلق هذه الفتاة.

- لن أُطلقها يا أبي، هذا لن يحدث.

لم يكترث لرفضي، وقال قبل أن يعطيني ظهره ويبتعد:

- إن لم تُطلقها فستخرج من هذا البيت، وسوف تنسى للأبد بأنّ لك عائلة فيه..

أن تُحاول البقاء متوازنًا وأنت تسير بخطوات حائرة فوق الخط الفاصل بين النار والنار، أن تُحاول البقاء حيًّا وجسدك يتأرجح بين الهاوية والهاوية.. هذا ما كنت أشعر به حين قال والدي بأنّه يجب عليّ أن أختار.. لقد كانت المعادلة صعبة جدًّا؛ فأنا أُريد غيمة ولكن ليس على حساب عائلتي، وأريد عائلتي ولكن بشرط أن تكون فيها غيمة..

لم أكن أعرف ماذا أفعل وبقيتُ لمدة ثلاثة أيام فوق السرير ممددًا لا أصنع شيئًا، والهمّ نملٌ صغير يتسرب عبر الأوردة والشرايين يتناول قضمة كل دقيقة من قلبي..

في اليوم الثالث تلقيتُ اتصالًا من غيمة وما أن أجبتها حتى قالت مُعاتبة: أقلقتني عليك، لماذا لم تُجب على اتصالاتي طيلة الأيام الماضية؟!

- آسف، لقد تعقدت الأمور.

ما أنْ قلتُ لها ذلك حتى عرفت من خلال صوتي أنّ هُناك شيئًا جديدًا طرأ؛ فطلبت مني أن أذهب لرؤيتها فورًا..

***

ذهبتُ لحي البساتين حيث منزل والدة غيمة الأشبه بقصر.. قادني حارس البوابة إليها حيث كانت غيمة تنتظرني فوق جسر معلّق فوق بركة سباحة، والظُّلمة تحيط بالمكان إلا من إضاءة صفراء متموجة كانت تنبعث من قاع المسبح، قالت حين رأتني: ماذا حدث؟!

أجبتها معترفًا: كنت أكذب طيلة الوقت عليكِ، لقد قمتُ بمفاتحتهما بالأمر قبل عدة أيام ورفضا الموضوع بشكل قاطع..

كانت تعلم أنّ الوقت لا يتحمل العتابات فقالت:

- وأمي تقول بأنّها لن توافق على استمرار هذه الزيجة إلا بشرط حضور عائلتك إلى هنا، ويبدو بأنّ عائلتك لن تأتي..

ولأنّها فتاة؛ فإنها لم تكن تهتم بالكمّ الهائل للخسارات التي سوف تجنيها، طالما أنّها ستخرج من ساحة المعركة وهي ترفع عاليًا راية الحب:

- لا تهتم - قالت - سنعود من حيث أتينا، ونُكمل حياتنا هناك.

نطقت بصوت مهزوم:

- دعينا نستبعد هذا الخيار من الطاولة..

- ولكننا لا نملك خيارًا آخر غيره.

- أظن أننا تسرعنا في الزواج.

- لماذا تقول هذا؟!

- كان يجب علينا أن نأخذ موافقة العائلة أولًا.

- ولكن زواجنا ليس مُعاملة حكومية يجب أن تتم الموافقة عليها من عدة جهات، أنا أُحبك وأنت تُحبني وهذا كل ما يتطلبه الزواج.

- هنا الأمر مختلف، هنا الحُب ليس سببًا كافيًا للزواج.

- أتظن أنّي لستُ جيدة بما فيه الكفاية لأكون زوجتك؟!

كنت أعلم بأنّ أبنائي سوف يكونون في غاية الامتنان لي؛ لأنّي اخترت لهم أُمًا مثلها.. غير أنّي وقتذاك كنتُ مشوشًا من كل شيء يحدث حولي؛ لذلك التزمتُ الصمت ولم أعرف ماذا أقول..

كررت غيمة سؤالها:

- أتظن أنّي لستُ جيدة بما فيه الكفاية لأكون زوجتك؟!

- أنا لا أعرف ماذا يجب عليّ أن أفعل.

- ابقَ معي، هذا ما يجب عليك فعله.

- ولكن هذا سيُكلفني عائلتي

- أنا عائلتك، أنا التي لن تفلتك حين يخذلك الناس كلهم..

لم أقل شيئًا، فقالت:

- دعنا نترك كل شيء خلفنا ونهرب..

- ولكن أنا أنتمي لهنا، إلى هذه الأرض..

- وأنا أنتمي لقلبك، أرجوك لا تسمح للفراق بأنّ يشق له طريقًا بيننا، ألست أنت من قال بأنّي الفتاة التي خلقها الله من ضلعك؟!

- أنتِ لا تفهمين يا غيمة..

- لا أفهم ماذا؟!

- إن اختياري لكِ سيُكلفني والديّ.

- ماذا تعني؟!

- لقد خيرني أبي بينكِ، وبينه هو وأمي.. قال بأنّي لو اخترتكِ فإنه يجب عليّ أن أنسى بأنّ لي عائلة، وأنا لا أُريد خسارتهما..

صمتنا طويلًا ولكن هذه المرة ليس لكي نستمع للأغاني القديمة الآتية من المحيطات المنسيّة والتي كانت تحملها الأمواج في كل مد وجزر إلينا، بل لأنّ البحور جفت، وأوشك الطريق على الانتهاء..

نحن لا نخاف الفراق بل نخاف من الشوق الذي يأتينا بعده، لو أننا فقط نضمن النسيان لما خُفنا من وحش الفراق أبدًا..

اغرورقت عينايَ بالدموع، وعيناها بخيبات الأمل، قالت:

- اخترهما.

ثم ولكي تجعل الفراق سهلًا أضافت بقسوة:

- أتعلم؟!.. لا شيء يُغري المرأة في الرجل غير الأمان.. ولكنّها حين تفقده لا يصبح لديها سبب مقنع واحد يدفعها للبقاء معه..

- أحقًّا فقدتِ الأمان؟!

- هل تذكر حين قلت لي ذات مرة بأننا نحسن الظن بقلوب الذين نحبهم أكثر مما ينبغي، لذلك لا أحد بإمكانه تحطيمنا أكثر منهم؟!.. لو أنّي فقط استمعت لنصيحتك آنذاك، لكنت قد جنبت قلبي كل هذا الحُطام..

- أنا آآ.. أنا لا أعرف ماذا أقول..

- «أنتِ طالق».. هذا ما يجب عليك قوله.

فتحتُ فمي لأقولها، ولكنّي قبل أن أفعل، طوقتني غيمة بين ذراعيها لتُعانقني للمرة الأخيرة.. همست وهي تدفن وجهها في قميصي:

- لقد كنتُ أُحبني؛ لأنك فيني.

- وأنا كنتُ أُحب الحياة لأنكِ فيها.

- أتعلم؟!.. لقد خلقنا الله أحرارًا، ولكنّا بغباء نمنح للآخرين حق استعبادنا باسم الحُب، لقد كانت حياتي بخير قبل أن أراك، ليتني ما رأيتك.

- الله يشهد بأنّي بذلت كل ما أستطيعه للبقاء معك، الله يشهد أنّي أحببتك كما لم أُحبب أحدًا من قبل، ولكنّي لا أملك خيارًا آخر..

قالت ودموعها السوداء بسبب الكُحل تترك خطَّيْن على قميصي:

- كنت أعرف منذ البداية أنّي سأندم على حبكَ يومًا

- ولماذا أحببتني إذًا؟!

- لأنّي كنت سأندم أكثر لو أنني لم أفعل..

ثم همست كقتيلة تواسي قاتلها:

- لا عليك، لقد خرجت الأمور عن سيطرتك.. وأنا أعلم بأنّ القرار لو كان لك لكنتَ اخترت البقاء معي.. وهذا ما يخفف حزني قليلًا، والآن هيا كُن شجاعًا وافعلها..

- أنتِ طالق.

قلتُ ذلك ثم اسودَّتِ الدنيا في عيني، وما عادت إضاءة المسبح الصفراء المتموجة تُجدي نفعًا لإنارة دربي، رحت أسير بخطوات ثملة نحو بوابة القصر كضرير تائه يتلَمّس بعصاه الطريق..

22

ماذا حدث في غيابك؟!

عزيزتي غيمة:

الله وحده يعلم أي جهد كنتُ أبذله كي أستطيع مغادرة قصر والدتك بخطوات ثابتة دون أن أسقط أرضًا قبل الوصول لبوابة المغادرة.. حين عدتُ للبيت وطرقت الباب فتح والدي، لكنّه ظل واقفًا مكانه دون السماح لي بالدخول:

- هل اخترت؟!

- لقد طلقتُها.

***

كان غيابكِ شيء يفوق طاقة احتمالي؛ ومع الوقت دخلت تدريجيًّا في حالة نفسية حادة من التوحد والكآبة، فأصبحتُ أُفضّل البقاء مُنعزلًا في غرفتي لا أرغب في التواصل مع العالم الخارجي، ولا أتناول من الطعام إلا القدر الكافي لإبقائي حيًّا، وكنتُ أحاول دائمًا الهروب من قسوة الواقع لرحمة الحُلم.. هُناك حيث أستطيع رؤيتكِ دون رقابة أو تدخل من أحد..

عزيزتي غيمة:

كان قد مضى شهر ونصف على فراقنا، ولم يتبقَّ الكثير من الوقت على بداية الفصل الدراسيّ في الجامعة.. غير أنّ حالتي النفسية لم تكن تسمح لي بالسفر آنذاك؛ لهذا لم أسافر وواصلت الانعزال في غرفتي حتى جاء ذلك اليوم الذي طُرق فيه الباب.. وحين فتحت وجدتُ والدتي تقف بوجه مهموم أمامي.. فقلتُ لها وأنا أهمّ بإغلاق الباب:

- آسف، لا أريد أن أُحادث أحدًا.

كانت ملامحي ذاوية كمكعب ثلج آخذ في الذوبان، وكان شعري كثًّا ولحيتي غير مُشذبة، وثمّة ظلال بنفسجية تتمدد أسفل عينَيّ.. لم تحتمل والدتي رؤية ابنها يموت بين يديها دون أن تفعل شيئًا.. فأوقفت الباب بقدمها قبل أن أُغلقه وقالت:

- اذهب إلى حيث يأخذك قلبك..

- ماذا تعنين؟!

- اذهب لـ غيمة.. اطلب منها أن تسامحك على تخليك عنها، وحين تُسامحك تشبث بها ولا تتركها أبدًا.

- وأبي؟!.. أبي يا أمي أنا لا أريده أن يغضب مني..

- لا تقلق ربما سيغضب منك قليلًا، ولكنه سيرضى عنك لاحقًا..

وأضافت قائلة:

- إنّ الحُب جندٌ من جنود الله، يُرسله الله لقلب من يشاء، لا تستمع لمن ينهاك عن الحُب؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الإله.

ثم وبعد تردد قصير قالت تكشف عن سر خطير:

- لم تكن العادات والتقاليد السبب الوحيد الذي كان يمنع والدك من مُباركة زواجك بغيمة، فهُناك سبب آخر..

- سبب آخر؟!

- إنّه يريدك أن تتزوج من ابنة خالتك سارة.

مصدومًا مما قالته، سألتها وأنا أفرك أذني لأتأكد مما سمعت:

- آآآآ.. ولكن سارة متزوجة؟!!

- لم تتفق مع زوجها، فانفصلت عنه بعد شهرين من الزواج.. وأبوك كان يُريد منك أن تتزوجها؛ لكي تستر عليها على حد قوله.

ولأنّ البكاء وسيلة من لا حيلة له فإنّي بكيت قهرًا وحزنًا، وهممتُ بأن أقول شيئًا لكنّ أمي أغلقت فمي بيدها كما كنتِ تفعلين يا غيمة وقالت:

- لا تضيع الوقت يا ولدي، اذهب إلى حيث يأخذك قلبك..

***

حاولت الاتصال عليكِ لأكثر من مرة ولكنّ هاتفكِ كان مغلقًا.. ذهبتُ لمنزل والدتكِ وكلي أمل أن ألقاكِ هُناك لأخبركِ أيّ أحمق كنتُ أنا عندما لم أتمسك بكِ..

ولكنّي ما أن اجتزتُ بوابة القصر وقابلت والدتك، حتى أخبرتني بأنكِ رحلتِ منذ مدة وأنّها لا تعرف إلى أين ومتى ستعودين..

ثم لوحت بورقة في الهواء وهي تقول:

- ولقد تركت لنا هذه الرسالة قبل أن ترحل، ولكننا لم نفهم ما جاء فيها، فهي مكتوبة بحروف غريبة..

عرفت أنكِ تركتِ لي رسالة مكتوبة بلغتنا المشفرة، فاختطفتُ الورقة من يد والدتكِ وقرأت:

«لقد جئتني حُطامًا فرممتُك حجرًا فوق حجر.. وحين اشتد بناؤك حطمتني.. الوداع يا أكثر من أحببت في هذه الدُّنيا، ويا أكثر من خذلني فيها».

طويتُ الرسالة وخبأتها داخل جيبي، وهممتُ بالذهاب للبحث عنكِ، ولكنّي قبل أن أفعل أوقفتني والدتكِ قائلة:

- من الأفضل لك أن لا تتعب نفسك، فبعد أن طلّقت غيمة لن تتزوجها مرة ثانية؛ لأنني سوف أقوم بتزويجها من أحد أقربائها، أنه شاب طموح يعمل في وظيفة مرموقة ولديه الكثير من المال، ليس مثلك أيها المتسول..

أصابتني كلماتها تلك في مقتل، ولكنّي سلبت منها فرحة الإهانة بأن ابتسمت في وجهها بثقة وقلت:

- غيمة لن تُزرع في غير تُربتي..

فردت بتحدٍّ:

- لا تقلق، فوالدتها ستعرف كيف تُقنعها، وإن لم تقتنع فسأقوم بتزويجها بالقوة.. فأنا أعرف مصلحتها أكثر من نفسها..

قلت بعناد: سأعثر عليها وسأطلب منها أن تغفر لي ما فعلته بها..

وحين تفعل لن يُفرق غير الموت بيننا.

- لولا أنّي أخاف على غيمة، لأخبرت أخوالها عنك، ولكنهم بالتأكيد سيقتلونها، لذلك لن أُخبرهم.. غير أنّي في الوقت ذاته سأفعل كُل ما أستطيع فعله كي أمنعك من الوصول إليها.. إن زواجك منها كان غلطة، وأنا لن أسمح بتكرار تلك الغلطة مرة أخرى.

***

كان يجب عليّ أن أصل إليكِ أولًا يا غيمة، لأمنع والدتكِ من تنفيذ تهديدها، لم أكن أعرف إذا ما كنتِ لا تزالين في السعودية أم أنكِ عُدتِ لأمريكا، كنت سأتصل بمعاذ وأطلب منه المساعدة لكنّه كان قد انتقل لنيويورك لإكمال دراسته فيها، فأجريتُ اتصالًا بالعم ميلاد وطلبت منه البحث عنكِ في سانديبغو..

فتش العم ميلاد عنكِ في كل الأماكن التي كنتِ تذهبين إليها، سأل عنكِ الأصدقاء وعُمال المقهى الريفيّ، وعمال المقاهي والمحلات المجاورة ولكنّهم جميعًا قالوا بأنّهم لا يعرفون شيئًا عنكِ.. اتصل العم ميلاد بي بعد أسبوعين من البحث المتواصل وقال:

- لقد فتشتُ عنها في كل مكان، وسألت عنها الناس كلهم ولكن لا أثر لها هنا ربما تكون لا تزال في السعودية..

- أين ستكون وهي لا تعرف أحدًا هنا؟!

- ربما لا تزال في منزل والدتها

- ولكنّ والدتها أخبرتني بأنّها غادرت، وأنها لاتعلم أين هي..

- **أحمد.. لا تصدق شيئًا لم تره بعينك**

- ماذا تعني؟!

- أعني ما الذي يضمن لك أنّ والدتها لا تكذب عليك؟!

- سأتسلل لداخل القصر إذًا، وأتحقق بنفسي..

- هل جُننت؟!.. أتريد أن تُسجن؟!

- لا يُهم طالما أنّي سألقاها هناك..

- نحن لسنا واثقين من ذلك، هذا لا يعدو كونه افتراضًا، عمومًا لا تفعل شيئًا حتى آتي إليك.. لقد حجزت تذكرة للسعودية وسأصل بعد أسبوع..

***

ما أن وصل العم ميلاد للسعودية بعد أسبوع حتى باشرنا فورًا عمليات البحث عنكِ، ثم وفي سبيل تحقيق ذلك أصبحنا نراقب قصر والدتك ليل نهار ونرصد كل تحركاتها؛ علّها تقودنا لخيط يدلنا عليكِ..

ظللنا نفعل ذلك يوميًا ولمدة تزيد عن الثلاثة أشهر، وحين طالت فترة المراقبة دون فائدة، وبدأ اليأس يتسلل لنا قال العم ميلاد ذات مرة حين كنا في شقته:

- لا فائدة، لن نجدها بهذه الطريقة..

قلتُ مُستبقًا الأحداث:

- لا تطلب مني أن أوقف البحث عنها، لأنّي لن أفعل!!

- ما كنت سأطلب منك إيقاف البحث عنها، ولكنّي كنت سأطلب منك فقط أن تفكر معي بطريقة أخرى؛ فطريقتنا هذه لن تجدي نفعًا في الوصول إليها.

كان معه حق، يجب علينا تغير الطريقة؛ فغادرتُ شقته عاقدًا العزم على الانتقال للخطة الجديدة..

***

عند الساعة الثانية والربع بعد منتصف الليل دورت محرك سيارتي، وقدتُ ذاهبًا إلى حي البساتين.. وحين وصلت إلى هناك أوقفتُ السيارة بعيدًا حتى لا يُثير منظرها الكئيب المُتسخ أنتباه أحد، ثم التففت خلف قصر والدتك وتسلقت السور العالي..

كانت المهمة صعبة بعض الشيء، ولكني كنت مستعدًّا للذهاب لآخر العالم أمشي حافي الأقدام فوق طريق مفروش بالشوك والجمر المتقد، أن كان ذلك الطريق سيُفضي في نهاية المطاف إليكِ..

حين أصبحت داخل الفناء سرتُ متجهًا على أطراف أصابعي نحو البناية، ولكني قبل أن أُكمل التوغل للأمام توقفت؛ وذلك لأنّي رأيتُ من بعيد فتاة تقف خلف إحدى النوافذ، سارحة في التحديق صوب السماء.

لم أكن متأكدًا مما إذا كانت تلك الفتاة أنتِ أو أنها غيركِ، فقد كانت المسافة والظُّلمة تحجبان عنّي الرؤية.. كان يجب عليّ أن اقترب أكثر لأتأكد.. ولكنّي ما أن أقتربت بضع خطوات حتى امتدت يد من الخلف وأمسكتني: **"لقد كانا اثنين من حراس بوابة القصر"**

أرسلتُ للشباك نظرة أخيرة، قبل أن يأخذاني من هناك لكن من كانت عند الشباك اختفت.. آه لو أنّي كنت فقط أكثر حذرًا، لو أنّي انتبهت إلى الكاميرات الموزعة على سور القصر لكنت قد تقدمت أكثر وتأكدت من حقيقة الفتاة..

أخذوني لقسم الشرطة وبقيتُ هناك لمدة يومين ثم خرجت بعد أن قمتُ بالتوقيع على تعهد لدى القسم بعدم الإقترب من ذلك القصر مرة أخرى، وهكذا باتت مهمة الوصول إليكِ أكثر صعوبة..

***

كان العم ميلاد مستاء من تلك الحركة المتهورة التي أقدمت عليها:

- لقد طلبت منك أن تغير الطريقة، لا أن تفقد صوابك!!

- إنها تستحق أن يفقد المرء صوابه من أجلها..

كان يعلم بأنّي سأعاود الذهاب إلى هناك لأتأكد مما إذا كنتِ أنتِ هي تلك الفتاة التي رأيتها أم لا، كان يعلم بأنّي لن أتوقف عن البحث عنكِ؛ لذلك قال لكي يُجنبني مصائب قادمة لن أستطيع الخروج منها بسهولة:

- اكتب لها كتابًا وانشره؛ إنها طريقتك الوحيدة للوصول إليها.

- ولكن.. كيف سيصل إليها الكتاب وهُناك آلاف الكتب في المكتبات، وهي فتاة لا تُحب القراءة؟!

فكر للحظات ثم قال:

- التقط لنفسك صورة وضعها على الغلاف؛ فربما أخذها القدر يومًا إلى المكتبة ورأت كتابك هناك وقرأت رسائلك إليها.

- وأخوالها الذين قد يقتلونها إن عرفوا بحقيقة علاقتي بها؟!

- لا تذكر اسمها في الكتاب ولا تخبر به أحدًا - ثم أضاف: على الأقل هذه الفترة، وحين تهدأ الأمور لاحقًا تستطيع التصريح به إن أردت.

- وكيف أرمز إليها في الكتاب، أن كنت لن أذكر اسمها؟!

- ليكن اسمها مثلًا: **"الفتاة التي ينتهي اسمها بتاء مربوطة"**.. وللتمويه أكثر لا تذكر بأنك تزوجت منها..

- ولكن أن تنشر كتابًا في السعودية يتحدث عن مشاعرك تجاه فتاة، لا أظن أنها فكرة جيدة، بالله عليك كيف سينظر لي الأقارب والناس بعدها؟!

- ستقول أنها قصة مُتخيلة، وهكذا لن يعرف أحد أنها قصتك الحقيقية

- وهل تعتقد أن ينجح هذا الأمر؟!

- لستُ واثقًا، ولكنها وسيلتك الوحيدة إن كنت تريد الوصول لغيمة قبل أن تصل إليها والدتها، وتقوم بتزويجها من شخص آخر..

***

اعتزلتُ كُل شيء لمدة خمسة أشهر، من أجل إنجاز الكتاب بآمن وأسرع طريقة ممكنة، وحين انتهيت كان عليّ مواجهة الفقرة الأصعب، وهي النشر

لم أكن أعرف شيئًا عن النشر، ولكن ما أسعفني حينذاك هو أني تذكرت المرأة الكاتبة التي التقيتُ بها عندما كنت أعمل سابقًا في القرطاسية وأعطتني رقمها الخاص وطلبت مني الاتصال بها في حالة أني فكرت بتأليف كتاب.

في البداية كان عليّ أن أبذل بعض المجهود لأذكرها بي، وحين تذكرتني أخيرًا، طلبت منها أن تشرح لي عن طرق النشر، فقالت:

- هُناك طريقتان.. الأولى أن تقوم بطباعة وتوزيع الكتاب بنفسك كما أفعل أنا، والثانية أن تبحث عن دار للنشر تقوم بنشره بدلًا عنك.

ثم وقبل أن تبدأ بشرح مميزات وعيوب كُل طريقة قاطعتها قائلًا:

- وما هي الطريقة التي ستضمن لي انتشارًا أوسع لعملي الأدبي؟!

فأجابت:

- قد تكون عملية طباعة الكتب ونشرها بنفسك مربحة أكثر لأنك لن تكون مضطرًا لمقاسمة أرباحك مع أحد، ولكن إن كنت تفكر بالانتشار الأوسع فدار النشر هي الخيار الأفضل..

- وكيف أبحث عن دار للنشر؟!

- إن أردت نصيحتي، فعليك السفر للرياض في اليومين القادمين؛ فالمعرض الدولي للكتاب يُقام هُناك هذه الأيام.. وفي المعرض تستطيع الالتقاء مباشرة مع مديري دور النشر والاتفاق معهم بشكل مباشر وأسرع..

وهكذا كان يجب عليّ أن أنفض الغبار عن سيارتي الكرسيدا، وأطلب من والدتي قبل أن أسافر برًّا من جدة للرياض أن تُحصنني بدعائها طوال الوقت لكي لا تتفكك عليّ السيارة وأنا في منتصف الطريق..

العاصمة،

7:00 مساء،

معرض الرياض الدولي للكتاب.

كانت رائحة الكتب الورقية تفوح في أرجاء المعرض، وكانت الممرات تكتظ بالكثير من القرّاء مما يترك إحساسًا بالأمان في النفوس..

كنتُ أسير بين الزحام شارد الفكر، أحمل بين يديّ الأوراق التي أُريد نشرها، وكنتُ من فينة لأخرى ألمح الكتّاب خلف المنصات، يقومون بالتوقيع على كتبهم للقرّاء، فتتولد بداخلي رغبة سرية بأن أصبح مثلهم في يوم من الأيام..

كانت دور النشر في بداية الأمر يقابلونني بالكثير من الحفاوة ولكنهم عندما يُدركون بأنّي لستُ كاتبًا معروفًا ولا أملك صفحة إلكترونية واحدة على وسائل التواصل الاجتماعي، كنتُ ألحظ تبدلًا واضحًا في أسلوب التخاطب معي، فبعضهم كان يعتذر عن طباعة الكتاب، والبعض الآخر يقول:

- ستتكفل أنت وحدك بمبلغ الطباعة.

لم يكن لديّ مانع في التكفل بطباعة الكتاب، غير أنّهم عندما كانوا يخبرونني عن قيمة المبلغ الذي يتوجب عليّ دفعه مقابل الطبعة الأولى، كنتُ أمضغ ريقًا من الخجل وأقول لهم صادقًا:

- ولكن أنا لا أملك كُل هذا المال كي أدفعه لكم.

بعدها لم يكن النقاش يستمر طويلًا، فما هي إلا لحظات قليلة جدًّا حتى كانوا يعتذرون عن عدم تمكنهم من خدمتي، فألملم كرامتي المتناثرة وأرحل للبحث عن دار نشر أخرى..

كان ثمّة صوت بداخلي يقول: توقف عن البحث، وألقِ بكتاباتك في سلة النفايات، لن تقرأ لك غيمة، ولن تجني من هذا البحث المستمر إلا مزيدًا من الصفعات الموجهة لكرامتك..

وهذا ما كنتُ سأفعله حينها يا غيمة ولكنّي كلما تذكرت أن هذه الأوراق التي في يدي هي الوسيلة الوحيدة للوصول إليكِ، كنت أستجمع شجاعتي وأكمل البحث عن ناشر آخر يقبل بمساعدتي.

مررتُ بأحد دور النشر، وقفت أتأمل الكتب المعروضة لديهم بشرود، ثم فجأة قفز أحد الباعة باتجاهي معتقدًا أنّي كنت أُريد شراء كتاب ما، وقام بترشيح بعض الإصدارات المعروضة وحثّي على شرائها، حتى قاطعت ثرثرته قائلًا:

- لديّ كتاب أُريد نشره، أين مدير الدار هُنا لو سمحت؟!

ارتسمت على وجهه ابتسامة ثعلبية، وهو يقول:

- أنا اسمي باسل، وأنا مدير النشر في هذه الدار..

مددتُ له الأوراق التي بيدي قائلًا:

- هذه كتاباتي

أخذ الأوراق وقال قبل أن يبدأ في تصفحها:

- أخبرني باختصار عن قصتها..

أخبرته عن حكايتي معكِ يا غيمة، وحاولت قدر المستطاع أن أُثير في قلبه الشفقة فيُساعدني في نشرها، وحين انتهيت قال متمتمًا بأسلوب تاجر مُحنّك يرى أمامه فرصة جيدة للاستثمار:

- شاب يفقد حبيبته في ظروف غامضة، ثم ومن أجل أن يجدها يقرر أن يكتب لها كتابًا ويضع صورته على الغلاف..

أخذ بعد ذلك يتصفح الأوراق بتأنٍّ كما لو أنّه يتذوق الكلمات المكتوبة فيها، ثم سألني بتعجب:

- إنها أقرب للرسائل، ومع ذلك أراك تُصنفها على أنّها رواية؟

فقلتُ وبداخلي شيء يشبه اليقين:

- هذه الأوراق ستصبح يومًا ما قصة مُتشعبة الأحداث؛ لذلك قمت بتصنيفها على أنها رواية.. ربما لا تقتنع بجوابي الآن، ولكنك مع الأيام ستعرف أنّ حدسي كان في مكانه..

بدت الحيرة على وجه مدير الدار، إذ إنّه لم يكن يعرف ماذا يقول لذلك الشاب المجنون الذي كان يقف أمامه ويُريد أن ينشر رسائل لحبيبته الغائبة معتقدًا أنّ تلك الرسائل ستنمو ذات يوم وتغدو رواية..

سأل:

- وهل اخترت لها عنوانًا؟!

مُتذكرًا الوعد الذي قطعته لكِ عندما كنا تلك الليلة جالسين في متنزه إيلين بارك، قلتُ ومن غير تردد:

- مدينة الحُب لا يسكنها العقلاء.

- حسنًا - قال - تعال ادخل، ودعنا نتفاهم..

أخبرته قبل أن أدخل بأنّي لستُ كاتبًا معروفًا، وبأنّي لا أملك صفحة إلكترونية واحدة على وسائل التواصل الاجتماعي، وبأنّ ظروفي المادية لا تسمح لي بدفع مبالغ كبيرة لطباعة الكتاب، فقال بمكر:

- هل يُناسبك الدفع بالأقساط؟!

لم أُصدق ما قاله مدير الدار حينها، وقلتُ مندفعًا:

- نعم أظن أنّه يُناسبني جدًّا!!

- حسنًا إذًا ولكنْ هُناك شرط..

- وأنا موافق على أي شرط ستقوله..

كان ذلك الشرط هو أن أوقع عقد احتكار للدار يمتد لعشر سنوات، وأن لا أنشر عملًا أدبيًا عند أي دار أُخرى إلا بموافقة خطية من مدير الدار..

لم أهتم كثيرًا بما جاء في ذلك العقد، كنتُ سعيدًا لأني وجدت أخيرًا من سيطبع لي الكتاب، فوقعت عليه دون أن أفكر بالأمر مرتين..

اضطررت في اليوم التالي للذهاب لمعارض النسيم[1]، وقمتُ ببيع سيارتي الكرسيدا هُناك بمبلغ زهيد أودعته في الحساب البنكيّ للدار كدفعة أولى من أجل البدء في طباعة الكتاب، على أن أقوم بإيداع بقية الدفعات في الأشهر القادمة..

اتجهت بعد ذلك نحو مواقف «الكدّادين»[2].. لأبحث عن سيارة متجهة نحو مدينة جدة، وما أن وجدت واحدة حتى ارتميت فيها بالمقعد الخلفي..

كنت مُرهقًا جدًّا يا غيمة وحزين كسلحفاة مقلوبة، وأشعر بأنّي لفرط الحنين إليكِ أود أن أُغادر جسدي وأهرب بعيدًا.. بعيدًا إلى الخلاص.. إلى حيث السلام.. إلى حيث أنتِ..

أغمضتُ عيني وأسندتُ رأسي لكتف رجل لا أعرفه كان يجلس بجانبي، وحلمتُ بأنّي ألقاكِ في قارعة طريق طويل أسفل مظلّة تقينا رشات المطر، أهمسُ لكِ بحنين: كم كان خطئي فادحًا حين سمحت للفراق بأن يشق له طريقًا بيننا..

---

1 حراج سيارات يقع شرق الرياض

2 "الكدّاد" باللهجة الدارجة تعني الشخص الذي يقوم بنقل المسافرين بسيارته الخاصة مقابل مبلغ معيّن لكل راكب..

بعد أسبوعين من عودتي لجدة تلقيتُ اتصالًا مفاجئًا من مدير الدار أخبرني فيه بأنّه استلم كامل مبلغ طباعة الكتاب، فقلت له متعجبًا:

- ولكنّي لم أدفع شيئًا.

- يبدو أنّ هُناك من دفع عنك المبلغ..

قلتُ مُتلهفًا:

- من؟!

فقال بأنه لا يعلم..

وهكذا يا غيمة تم تسديد كامل قيمة الطبعة الأولى من مدينة الحب لا يسكنها العقلاء دون أن أعلم - إلى هذا اليوم - هوية ذلك الشخص الذي قام بفعل ذلك[1]..

1 بعد ذلك حصلت ظروف خاصة، أدت لتأخير طباعة ونشر الكتاب

النهاية

«شقة العم ميلاد»

الأحد،

شقة العم ميلاد، الرياض..

26/ يناير/ 2020

عزيزتي غيمة:

ها أنا ذا أكتب نهاية الجزء الثالث من هذه السلسلة.. لقد أخبر الأطباء العم ميلاد بأنّه سيفارق الحياة قريبًا، وكانت أمنيته الأخيرة أن يكتشف ذلك السر الذي كتبتِه لي في الورقة النقدية من فئة العشرة ريالات.. وأنا أطلب منكِ الآن أن تُعيدي إرسال ذلك السر إليّ مرة ثانية.

أعلم بأنكِ لا تزالين غاضبة مني وأنكِ لا تزالين تشعرين بخيبة أمل كبيرة جرّاء تخلّي عنكِ، كما أعلم أيضًا بأنّ معكِ الحق.. بل كل الحق في ذلك..

أنا لن أُحاول تبرير شيء لكِ؛ فقد علمتني أن الحُب لا يعرف لُغة التخلّي، وعلمتني أيضًا أن لا شيء يشفع لقلب رحل عنا يومًا بإرادته..

أعلم بأنكِ لا تؤمنين بالفرصة الثانية عندما يتعلق الأمر بالثقة، وأنكِ فتاة تمتلك موهبة إعادة الأشياء مثل ما كانت قبل أن تلتقي بها، فأنا الذي كان معكِ يشعر بأنّ الأرض تسبح في مداراته، أصبحتُ اليوم من بعدك نسيًا منسيًّا

ولكن هذا الطلب ليس من أجلي، بل إنّه من أجل تحقيق رغبة أخيرة لشخص سيموت قريبًا.. إنّي أنتظر رسالتكِ التي ستخبرينني فيها بالسر وأعلم بأنكِ لن تخذليني.

***

حين انتهيت من كتابة الصفحة الأخيرة من الجزء الثالث لسلسلة مدينة الحب لا يسكنها العقلاء، أفلتُّ القلم من يدي، ونظرت لوجه العم ميلاد الذي كان شاردًا يُفكر بأمر ما..

سألت:

- هل تعتقد أنّها ستقرأ هذا الكتاب؟!

أخرجه سؤالي عن شروده:

- لا تقلق ستقرأ لك؛ فلا أحد يُراقبنا أكثر من الغائبين..

ثم أخذ يُرتب الأوراق المتناثرة فوق الطاولة بيديه الممتلئتين بالعروق البارزة وحين انتهى من ترتيبها قال: يجب أن نرسلها لمدير الدار بسرعة، فالوقت يُداهمنا..

2

بعد ثلاثة أسابيع،

الساعة 2:30 ليلًا،

منزلي.

بعد ثلاثة أسابيع من إرسالي رواية "رُدني إليك" لبريد الدار الإلكتروني، هاتفني المدير ليخبرني بأنّ لجنة القراءة قد وافقت عليها، وبأنّ المطبعة ستبدأ غدًا صباحًا بطباعتها، ولكنه قبل أن يُغلق الخط سأل بفضول:

- أذكر أنّ غيمة كتبت لك في الجزء الثاني بأنّها لم تغادر البلاد، وبأنها أصبحت تدرس في جامعة الملك عبد العزيز، هل تعتقد بأنها كانت طوال الوقت عند والدتها؟!.. وإذا كانت كذلك فهل تعتقد بأن والدتها قد نفذت تهديدها لك وأرغمتها على الزواج من شخص آخر؟!.. هل تُراه يكون هذا هو السر الذي كتبته لك غيمة في الورقة النقدية من فئة العشرة ريالات؟!.. وإذا كان هذا هو السر فماذا ستفعل؟!..

الحقيقة أنا لا أعرف شيئًا، فقد اختفت غيمة منذ عام 2010، ولم تظهر إلا بعد ثماني سنوات تقريبًا عبر حزمة من الأوراق قامت بإرسالها مع طفلة صغيرة في معرض جدة الدولي للكتاب.. وحتى في تلك الرسائل لم تذكر بشكل مفصل ما حدث معها في الغياب، فقلت لمدير الدار:

- ربما نعرف إجابة أسئلتك هذه يومًا..

لم تعجبه إجابتي وألح:

- هيا فكر معي، لا بد بأنك تعلم شيئًا..

- كل ما أعلمه هو أنّي سأنتظرها حتى تبعث لي بالسر.

ألقى بسؤال خبيث:

- وإلى أن ترسله إليك ماذا ستفعل؟!

- سأواصل الكتابة..

- لا.. أقصد ألن تواصل بحثك عنها؟!

ابتسمت.. ثم قلت وأنا أستعد لإغلاق الخط:

- أستاذ باسل ألم تنظر للوقت في ساعتك قبل أن تتصل بي؟!

***

ما أن انتهيت من مكالمة مدير الدار حتى اتصلت مباشرة بالعم ميلاد لأخبره بأنهم سيبدؤون بطباعة الكتاب غدًا ولكنّ هاتفه كان مغلقًا؛ ففكرت بأن أذهب لشقته وأخبره بنفسي، غير أن الوقت كان متأخرًا وفضلت الانتظار لليوم التالي.. دون أن يخطر في بالي نوع المفاجأة التي كانت تنتظرني هُناك..

الباب ما بعد الأخير

«الحقيقة»

ملاحظة: تمت كتابة هذا الباب قبل طباعة الرواية بساعة واحدة فقط..

شقتي السكنية، الرياض..

17/ فبراير/ 2020

حين استيقظتُ صباحًا كان أول شيء أقوم بفعله هو معاودة الاتصال بالعم ميلاد لأخبره بأن الكتاب أصبح في المطبعة، ولكنّ هاتفه كان لايزال مغلقًا؛ الشيء الذي جعلني أشعر بقلق شديد حيال هذا الأمر..

غسلت وجهي وبدلتُ ملابسي سريعًا ثم اتجهت نحو الحي السكني الذي كان يسكنه.. أوقفت سيارتي قريبًا من العمارة، ثم صعدت سلالمها على عجل.. وما أن وصلت لشقته حتى وجدت المفاجأة: لقد كان الباب مفتوحًا والشقة فارغة كما لو أنّ أحدًا لم يسكنها منذ سنين طويلة، وكانت هُناك لافتة بيضاء مكتوب عليها: «شقة للإيجار».

أخرجت هاتفي النقال وتواصلت مع الشخص الذي كان رقمه مسجلًا في اللافتة.. وما أن أجاب حتى قلتُ له مندفعًا:

- أين الرجل الذي كان يُقيم في الشقة؟!

- تقصد الرجل العجوز ميلاد؟!.. لقد غادر..

- إلى أين؟! ومتى؟!

- غادر منذ ثلاثة أيام، ولكن لا أعرف إلى أين..

صمت الرجل قليلًا ثم قال متسائلًا:

- أنت صديقه أحمد أليس كذلك؟!

- نعم أنا هو..

- لقد طلب الرجل العجوز مني أن أُعلّق اللوحة على الباب لكي تتصل عليّ حالما تذهب لشقته وتجدها فارغة..

- لماذا أرادني أن أتصل عليك؟!

- لكي أُخبرك بأنّه ترك لك رسالة أسفل فرشة الدواسة..

***

رفعت طرف فرشة الدواسة، فوجدت ظرفًا أبيض اللون كُتب عليه من الخارج:

«إلى صديقي الأبدي أحمد»

فتحت الظرف وأخرجت ما كان بداخله، وقد كانت عبارة عن ثلاثة أوراق مكتوبة بخط آلة الكتابة القديمة التي كان العم ميلاد يُحب دائمًا الكتابة عليها..

قرأت:

يؤسفني أن أُخبرك بأنّ هذا الألم سيُرافقك طويلًا، وبأنّك لن تستطيع التخلص منه مهما فعلت، لكنّك حتمًا مع الوقت سوف تجد طريقة ما للتعايش بها معه..

ستحاول كثيرًا أن تنساها، لكنّك ستراها في كل مكان تذهب إليه، للحد الذي سيصل بك الحال فيه لأنْ تعتقد بأنّ الأماكن كُلها آخذة بالتآمر معها ضدك، ستفتش عن طرق تُفضي بك للنسيان، بيد أنّ كل الطرق ستأخذك إليها في نهاية المطاف..

ستظل هذه الفتاة تسكن ذاكرتك إلى الأبد، وستظل تتذكرها حتى وأنت ميت في قبرك؛ لذلك توقف مكانك يا صديقي فلا جدوى من الهرب، أغمض عينيك ورتل بقلبك لها ما تيسر من تلاوة الذاكرة، وراقص في العواصف طيفها كلما هبّت على روحك من السماء رياح الحنين..

أحمد.. حاول أن تجد لك الآن مقعدًا تجلس عليه، فأنا أُراهن على أنّك لن تستطيع الوقوف على قدميك حين تقرأ هذه السطور القادمة:

هل تذكر ذلك الجد الذي قالت لك غيمة بأنّه يُحب الأدب والنقد والسينما، وبأنه انتقل بعائلته للعيش في الولايات المتحدة الأمريكية لأنّه ما وجد البيئة المناسبة في بلده؟!.. هل تذكر ذلك الجد الذي قالت لك غيمة يومًا بأنّها تُريد أن تُعرّفك عليه ليُساعدك في أن تصبح كاتبًا؟!.. أنا آسف يا أحمد لأنّي أخفيتُ عليك الحقيقة طوال الوقت، فذلك الجد هو أنا.. **أنا هو جد غيمة..**

إني أكاد أسمعك تتساءل بينك وبين نفسك عن هذه الحقيقة الصادمة؛ فدعني إذًا أقصص عليك ما حدث منذ البداية:

ذات صباح جاءت غيمة لزيارتي في منزلي، وقصّت عليّ قصتك كاملة ثم أخبرتني عن شغفك بتعلم الكتابة، وعن حلمك في أن تُصبح كاتبًا في يوم ما.. أما أنا فإني مُتجاهلًا كل كلامها ذاك سألتها بريبة:

- هل تحبينه يا غيمة؟!

أجابت والحياء يملؤها بأنّك صديق لا أكثر، لكنّ عينيها قالتا شيئًا آخر.. وأنا أثقُ بكلام العيون أكثر؛ فحين تتقدم في العمر يا صديقي ستعرف أنّ العيون لا تكذب إطلاقًا..

- ساعده أرجوك - قالت - إنّه يريد أن يصبح كاتبًا.

لم يكن باستطاعتي أن أرفض شيئًا تطلبه مني حفيدتي غيمة، فقلت لها بأنّي موافق على مُقابلتك وتعليمك الكتابة، غير أنّها قالت شيئًا غريبًا:

- ولكنّي لا أريده أن يعرف أنّك جدي.

- لماذا لا تريدينه أن يعرف أنّي جدكِ؟!

- لأنّي عرضت عليه بأن أطلب منك أن تساعده لكنه رفض.

- ولماذا يرفض؟!

- إنّه يخاف أن تكتشف فيه عدم جاهزيته لأن يصبح كاتبًا، ولكنّك تواصل تعليمك له من باب المجاملة.. إنّه لا يحب أن يكون ثقيلًا على أحد؛ لذلك أُريدك أن تجد طريقة ما تدخل فيها حياته وتعلمه الكتابة دون أن يعرف بأنّك جدي.

قلت غير مقتنع: لا بأس، إن كان هذا سيُرضيكِ.

في تلك اللحظة رنّ هاتف غيمة، فأجابت على الاتصال وما أن انتهت منه حتى اختلف لون وجهها وبدت الحيرة عليها، سألتها:

- ما بكِ؟

- إنها مِس جاكلين.. المرأة التي يسكن عندها أحمد.

- وماذا قالت لكِ ليُصبح وجهكِ شاحبًا هكذا؟!

أجابت غيمة والرعب يسكن عينيها:

- تريد مني أن أترك أيّ شيء من يدي مهما كان في غاية الأهمية، وأذهب لمنزلها فورًا.. إنّها تقول بأنّي كنتُ مخدوعة طوال الوقت، والآن انكشف الأمر.

- وما معنى هذا الكلام بظنّك؟؟

- لا أعلم، ولكن يجب أن أذهب بسرعة لأرى ما الحكاية.

قمتُ بإيصال حفيدتي لمنزل مِس جاكلين، أطفأت محرك السيارة وهممت بالنزول معها، ولكنها طلبت مني البقاء في السيارة:

- ابقَ في السيارة يا جدي، يجب أن لا يراك أحمد برفقتي ويعرف من تكون وحينها ستفسد خطة تعليمك إياه الكتابة..

- حسنًا لا بأس، سأنتظرك هنا..

وهكذا ذهبت غيمة وحدها وبقيتُ في انتظارها داخل السيارة، ولكن لم يمضِ الكثير من الوقت حتى خرجت غيمة من منزل مِس جاكلين، وقد بدا أنها تجاهد بكل قوتها حتى تتماسك ولا تبكي أمامي:

سألتها: ما الذي حدث في الداخل؟!

أجابت غاصّة بدموعها: لا شيء، فقط خذني للمنزل.

كنت أعرف أنّي لو أصررت على سؤالي لكانت ستنهار بالبكاء، لذلك فضلت أن أوصلها لمنزلها محاولًا قدر الإمكان أن أكون ملتزمًا بالصمت طوال الطريق..

ما أن أوصلتها لمنزلها حتى قالت وهي تفتح باب السيارة وتهمّ بالمغادرة:

- ستقوم مِس جاكلين بطرد أحمد من السكن.. أرجوك يا جدي عُد إلى هُناك وابقَ معه.. وساعده إن تطلب الأمر.

- لا عليكِ سأذهب، ولكن كوني بخير..

ما أن عُدت بسيارتي لمنزل مِس جاكلين حتى رأيتك يا أحمد تخرج من هُناك ومعك حقائب كثيرة، فعرفت أنّك طُردت مثلما قالت غيمة.. اقتفيتُ أثرك من بعيد، حتى رأيتك تستقر في أحد الموتيلات الرخيصة، وظللت أراقبك لأيام منتظرًا الفرصة المناسبة التي أتسلل فيها لحياتك دون أن تشعر بأنّ هناك من أرسلني إليك؛ لذلك ما أن رأيتك تدلف لمتجر أحد محلات الكتب في ذلك اليوم حتى عرفت أنّها الفرصة المناسبة!!

دخلت بعدك للمتجر، ثم انتهزتُ فرصة انشغالك بالتحدث مع بائعة الكتب ذات الملامح الآسيوية، وقمتُ بتصنّع الجنون حتى قام حراس الأمن الثلاثة بطردي، وكنت حريصًا حين مررت بمحاذاتك أن تسمعني وأنا أقول: **«كيف تجرؤون على حرمان رجل عجوز مثلي من رؤية أبنائه الجدد؟!»..**

كنت أعرف يا أحمد - لفرط ما حكت لي حفيدتي عنك - بأن تلك الجملة كانت تشبهك كثيرًا، وأنّها كفيلة بتحريك الفضول بداخلك وجعلك تُلاحقني كسمكة في النهر تلاحق طُعمها..

طردني حراس الأمن خارج متجر الكتب، وما أن فعلوا حتى اقتعدتُ كرسيًا في أحد المقاهي المواربة للمتجر حتى أكون واضحًا لك حين تخرج لملاحقتي..

وبهذه الطريقة دخلتُ حياتك، وأصبحتُ صديقك واستطعت أن أُعلمك الكتابة دون أن تعرف أنّي كنتُ مُرسلًا إليك من غيمة..

والآن وبعد أن قمتُ بتلقينك كُل أسرار الكتابة التي أعرفها، وبات بإمكانك الاعتماد على مهاراتك وشق طريقك بنفسك، لم يعد لديّ سبب آخر يدفعني للبقاء، فعدتُ لساندييغو كي أرقد بسلام هُناك..

أحمد يجب عليك أن تجد غيمة وأن تكتشف السر الذي قامت بكتابته لك في الورقة النقدية من فئة العشرة ريالات؛ لأنّه سر خطير جدًّا..

كما أتمنى أيضًا أن أقرأ السر قبل فوات الأوان، ولكن إن فات الأوان ولم أقرأه، فقم بزيارة قبري يومًا واتلُ عليّ السر هُناك وحينها سأسمعك بكل حواسي مثل ما كنت أسمعك دائمًا..

أخيرًا.. سامحني يا صديقي، على كل المتاعب التي تسببت لك بها في الماضي، وعلى كل المتاعب التي ستكتشف في المستقبل بأنّي كنت أنا السبب فيها.. ولكن قبل كل شيء تأكد بأنّي ما فعلت شيئًا إلا لمصلحتك، وتذكر أيضًا بأنّي قلت لك ذات مرة: **لا تصدق شيئًا لم تره بعينك..**

ميـلاد،،

لم أكن أملك وقتًا للدهشة أو التفكير بالأمر، كان أول شيء فعلته بعد أن انتهيت من قراءة رسائل الاعتراف تلك هو الاتصال بمدير الدار، والذي ما أن رفع الخط حتى قال:

- للتو كنت سأتصل عليك من أجل إخبارك بأنّهم بدؤوا بطباعة الكتاب..

قلت له بنبرة جادة:

- أخبرهم بأن يوقفوا الطباعة

- هل تمزح؟!

- هل يبدو لك صوتي بأنّي أمزح؟!

- لا ولكن كلامك يؤكد لي أنّكَ لست جادًا فيما تقول..

- هُناك باب أخير أريد إرفاقه مع الرواية..

- ولكنهم لن يستطيعوا إيقاف الطباعة؛ فهنالك جدول لخط الإنتاج، ومالك المطبعة لن يوافق على تعطيل خط إنتاجه لمدة يوم كامل من أجلك..

قلت بحزم:

- هذه الرواية لن تُنشر إلا بهذا الباب..

- ما معنى كلام الأطفال هذا يا أحمد؟ لقد قمتَ بتسليمنا النسخة النهائية للرواية، والآن تقول بأنها لن تُنشـ..

- ألم تقل بأننا أصدقاء؟!.. قدم هذا المعروف لصديقك إذًا - ثم قلتُ له متوسلًا: أرجوك يا أستاذ باسل إنّه باب مهم..

صمت مدير الدار قليلًا ثم قال مُستسلمًا:

- اذهب للمطبعة بسرعة.. إنّها في جنوب الرياض، سأبعث لك موقعها الآن - ثم أضاف قائلًا: ولكن تذكر أنّ هذا دين عليك، سوف تُسدده لي يومًا.

فتحت جهاز الكمبيوتر الخاص بي، وقمت بصف وكتابة الكلام على برنامج الـ "word".. ثم طبعت الأوراق واتجهت بها نحو الموقع الذي كان مدير الدار قد شاركه معي عبر تطبيق الواتس أب..

***

ما أن وصلت للمطبعة حتى دخلت مكتب مالكها «الأستاذ مسفر».. وهو رجل أسمر اللون لديه شارب كثّ وملامح وجه غاضبة حتى وإن لم يكن هُناك سبب يدعو للغضب..

أعطيته الأوراق فأخذها من يدي بصمت يشي بانزعاجه واتجه بها لغرفة الكونترول، ولكنّه قبل أن يذهب فكرت بشيء ما فاستوقفته قبل أن يبتعد:

- أستاذ مسفر لحظة، تذكرت شيئًا أريد إضافته..

أعاد لي الرسالة وقال بلهجة متوعدة وبصوت أشبه بهدير مُحرك يعمل بوقود الديزل:

- ليكن هذا طلبك الأخير، إن كنت تريد أن تخرج من المطبعة سليمًا.

ابتسمت لفرط الخوف وهمست: «حاضر».. ثم استعرت قلمًا وورقة من فوق طاولته المكتبية..

أخذتُ نفسًا عميقًا كغواص يستعد للقفز إلى الماء، وكتبت:

عزيزتي غيمة:

"إنّي كلما فكرتُ بالوقت القادم الذي سأقضيه بدونكِ أرتجفُ خائفًا كقطعة حطب تعلم بأنّها التالية في حُفرة نار مُشتعلة.. إنّ هذا الفراق لا يليق بمثلنا، نحن اللذان بلغنا من الحُب عتيًّا، هل ينتهي بنا المطاف أغرابًا لا نعرف عن بعضنا شيئًا؟!..

إنّي بدونكِ مُنطفئ كقنديل نفد من خزانه الزيت، بائس كعصفورة عند الغروب عادت بالطعام لصغارها، لكنها حين حطت على الغصن لم تجد الصغار ولم تجد العُش، حزين كشبح عاد من الجحيم لحبيبته فوجدها مستغرقة في عناق شخص آخر..

تعالي واجلبي معكِ جسور الفرح أريد أنْ أجتاز بكِ هذا الأسى، تعالي وإن كان مجيئكِ صعبًا فابعثي مع الريح قُبلة، إنّي ميت وأُريد أن أحيا"..